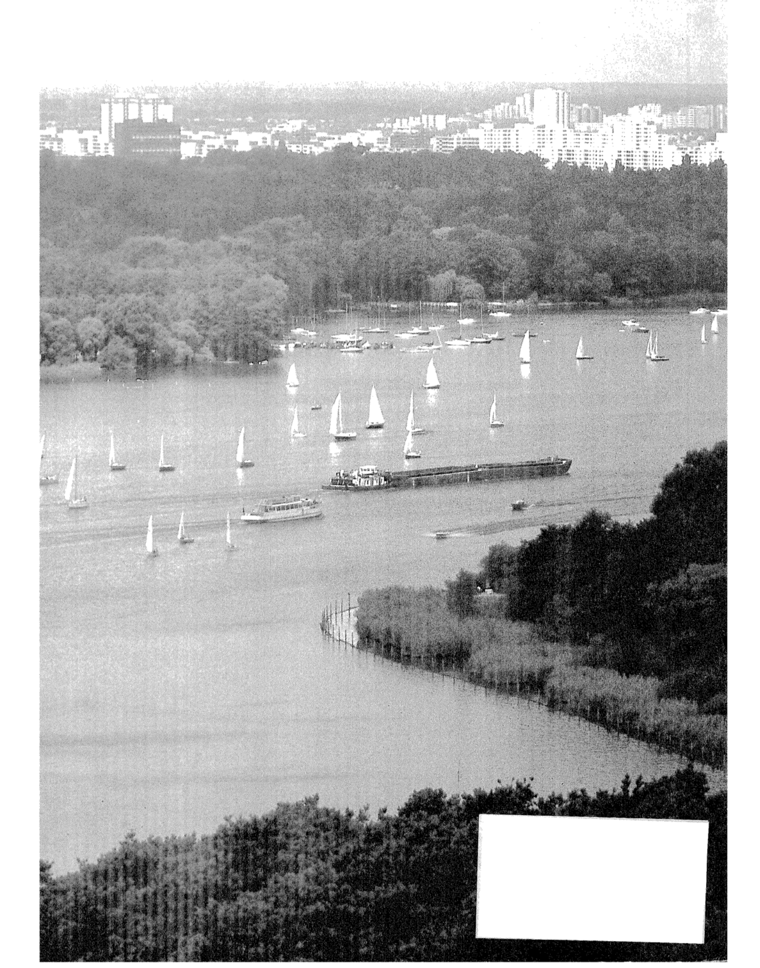


INTER NATIONES
فكر وفن
٤٦
MIAŁEŚ
TUTAJ
BYĆ —
STEFANIE!
SCH
MASHA



خلال هذا العام، أحتفل أهالي برلين (الغربيّة) و(الشرقية) على حدّ السّواء بمرور ٧٥٠ عاما على تأسيس هذه المدينة التي تجسّد أكثر من غيرها من المدن الاوروبيّة مآسي هذا العصر وتناقضاته، بالاضافة الى انها رمز لجراح الامة الالمانيّة التي تعاني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تراجيديا التقسيم والانفصال. وبهذه المناسبة اقيمت في شطري برلين حفلات موسيقية، وعروض فنية ومسرحية، كما نظّمت معارض ضخمة عن برلين التي كانت ولا تزال قلب المانيا النابض. ومن بين هذه المعارض يمكننا ان نذكر معرض «برلين، برلين»، و «برلين وانا»، ومعرض آخر قدمت من خلاله أهمّ مراحل الفن الالماني الحديث. وقد اختارت مجلة «فكر وفن» في عددها هذا عددا من النصوص لكتاب المان واوروبيين يعبرون فيها عن أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه هذه المدينة التي «لاتبرأ من عللها» على حد تعبير الكاتب الالماني الكبير» غونتر غواس» والتي لا تزال رغم الآمها، عاصمة للابداع وللتجديد وللفانتازيا مثلما كانت دائما.

ووفاء منا لما كنا وعدنا به قراءنا سابقا، نقدّم في هذا العدد ترجمة لقصيدة من أهم قصائد الشاعر الغنائي الكبير «راينار ماريا ريلكه» اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه». كما نقدم ترجمة لست قصائد قصيرة ومقتطفات من كتابه الشهير «كراسات لوريدز بريجه». ونحن نعد قراءنا بتقديم نماذج من مؤلفات أهم الشعراء والكتاب الالمان في اعدادنا القادمة.

أما النص الفكري الذي ارتأينا اختياره في عددنا هذا فهو للفيلسوف الفرنسي «جون بوفري» المتخصص في فلسفة «هيدجير» وفيه يتحدث عن لقاء بين الشاعر الفرنسي «رني شار»، و«مارتن هيدجير» في «البروفانس» الفرنسية. وخلاله دار الحديث حول العلاقة بين الشعر والفكر من جهة، وبين الشعر والفلسفة من جهة أخرى. ونرجو ان يساهم هذا النص في تعميق النقاش الدائر الان في اوساط المبدعين والنقاد العرب حول مكانة الشعر العربي في العصر الحديث.

ومواصلة لما شرعنا فيه منذ العدد ٤٢، نقدم في عددنا هذا ملفا عن اليمن. غير اننا نلفت انتباه قرائنا الى أننا لم نتمكن من تقديم نماذج من الادب اليمني المعاصر وذلك لان الكتاب والشعراء اليمنيين لم يفوا بما وعدونا به. ولذا اقتصرنا على «رحلة خيالية الى اليمن السعيد» وهي تحتوي على نص تاريخي هام للمؤرخ الايطالي «سبينيتو موسكاني» يتحدث فيه عن خصائص الحضارة اليمنية القديمة، وعلى نص آخر يروي الرحلة الاولى الى بلاد اليمن والتي قام بها الرحالة الشهير «نيبور» صحبة فريق من الباحثين والعلماء وذلك لكشف أسرار حضارة اليمن القديمة. ومعلوم ان هذه الرحلة الشهيرة كانت من اوائل الرحلات التي ساعدت الباحثين والمؤرخين الأوروبيين على فهم جوانب مهمّة من حضارة قديمة وعريقة الا وهي الحضارة اليمنية. ولا ننسى ان نلفت نظر قرائنا ايضا الى انه نظم في ربيع السنة الحالية معرض ضخم في مدينة ميونيخ، أقيم فيه سوق شبيه باسواق مدينة صنعاء وتوافد عليه آلاف المتفرجين. وقد حضر حفل الافتتاح كل من السيدين «غينشر» وزير خارجية جمهورية المانيا الفيدرالية، و«عبد الرحمان الارياني» وزير خارجية الجمهورية العربية اليمنية. ومن المعلوم ان هذا المعرض لايزال متواصلا الى حدّ هذا الوقت.

الفهرس

العدد ٤٦ العام ٢٤ ١٩٨٧
تصدرها إنترناسيونيز، مديرة التحرير: اردموته هللر

الفهرس

Nr. 46, Jahr 24, 1987

Herausgeber: InterNationes, Redaktion: Dr. Erdmute Heller

يقدم الناشر ودار النشر شكرهم لكل من ساهم بمعونته في إعداد هذا العدد.

Adresse der Redaktion: Dr. Erdmute Heller, Franz-Joseph-Str. 41, D-8000 München 40 :إدارة التحرير

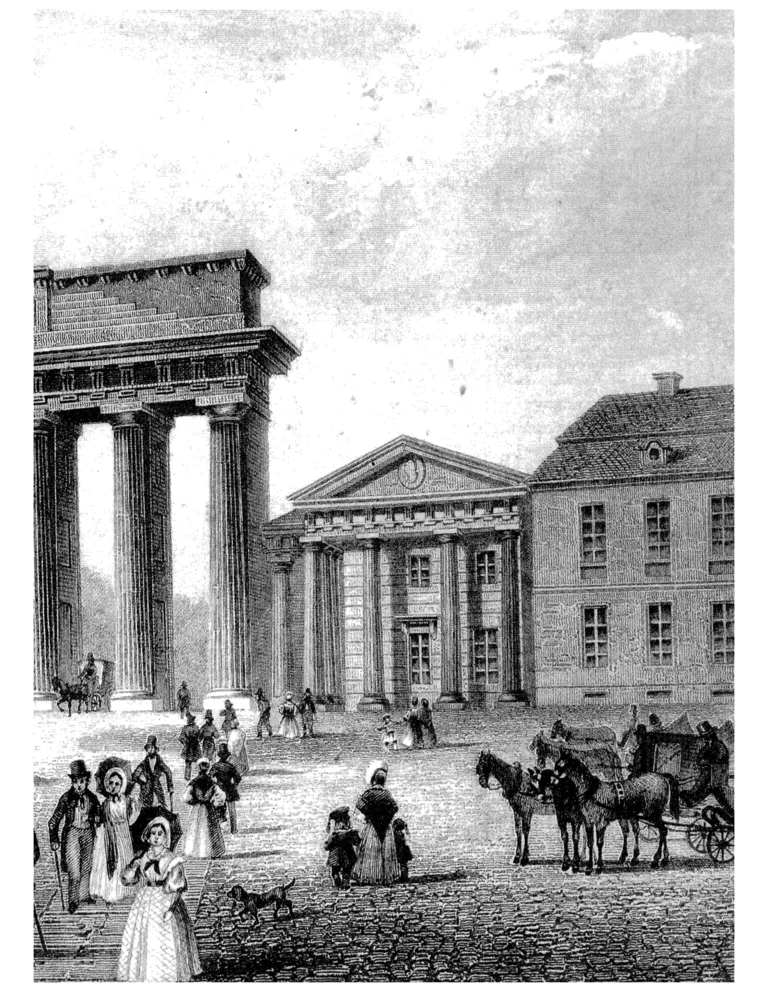
تظهر مجلة «فكر وفن» العربية مؤقتاً مرتين في السنة: ثمن النسخة ١٤ مارك ألماني، النسخة للطلبة ٧ مارك ألماني.
تقدّم طلبات الاشتراك الى دار النشر.

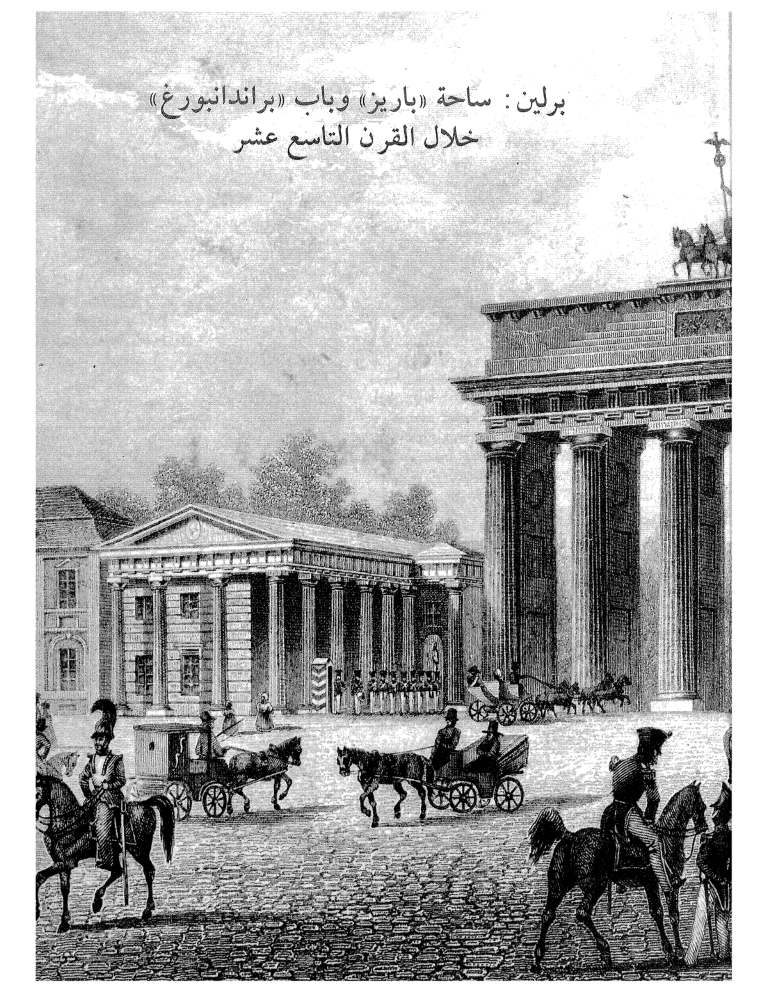
Druck: Greven & Bechtold, Köln :الطباعة Satz: Fotosatz Froitzheim, Bonn :صف الحروف

ملاحظة: تتوجه مجلة «فكر وفن» بتشكراتها الى جميع أصدقائها ومراسليها وتعلمهم أنها ليست قادرة على الاجابه على مراسلاتهم أو الرد على اقتراحاتهم. أو على النصوص التي يرسلونها سواء نشرت أم لم تنشر

إدارة المجلة.

الغلاف الخارجي: رسوم على جدار برلين.
الغلاف الداخلي ١: بحيرة «هافل». مراكب شراعية.
الغلاف الداخلي ٢: مشهد من صنعاء.




برلين: ساحة «باريز» وباب «براندانبورغ»
خلال القرن التاسع عشر

برلين المدينة التي لاتريد ان تبرأ من عللها

بمناسبة الاحتفال بمرور ٧٥٠ عاماً على تأسيس برلين

خلال هذا العام احتفل الألمان شرقاً وغرباً، وكل حسب طريقته الخاصة، بمرور ٧٥٠ عاماً على تأسيس برلين، هذه المدينة التي أصبحت حسب تعبير «الن بولوك» (ALLAN BULLOCK) «رمزاً للقرن العشرين». وهو القرن الذي شهد حروبا وصراعات دامية وفواجع كثيرة من بينها فاجعة تقسيم برلين.

ولقد كانت برلين خلال التاريخ مركزاً سياسياً واقتصادياً وعلميا وثقافياً تجسدت فيه بامتياز العبقرية الالمانية. وفي البداية كانت برلين عبارة عن مدينتين صغيرتين هما «برلين» و«كولن» (KÖLN) تقعان على ضفاف نهر السبري» (SPREE) وخلال حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨) انخفض عدد سكانها من ١٢٠٠٠ الى ٦٠٠٠. ولهذا السبب قرّر الملك «فريديريك فيلهالم» (FRIEDRICH WILHELM) الملقب بالملك المعظم السماح للعديد من الاجانب والمنفيين وخاصة من اليهود ومن الهوغنوت بالاستقرار في المدينة. وهو عامل ساعد في مابعد على تطورها في جميع المجالات. وفي عام ١٧٠٩ سمى فريديريك الثاني ملك بروسيا برلين عاصمة المملكة البروسية الجديدة. ومع الثورة الصناعية في المانيا (١٨١٥)، أصبحت برلين المدينة الصناعية الاولى في اوروبا بأسرها. ولهذا السبب جلبت اليها اعدادا هائلة من الباحثين عن عمل. وفي سنة ١٨٤٩ أصبح عدد السكان ٤١٢٠٠٠ وفي سنة ١٨٧١ تضاعف هذا العدد. وفي سنة ١٩٠٥ بلغ عدد السكان مليوني ساكن.

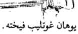
وقد تسبب هذا الوضع الجديد في انفجار العديد من الصراعات الاجتماعية والسياسية يمكن ان نذكر من بينها ثورة آذار/ مارس ١٨٤٨ التي اسقطت النظام القديم. وفي سنة ١٨٧١ نصب فيلهالم الأول امبراطورا وسمّي بيسمارك مستشاراً للرايخ وأصبحت برلين عاصمة الامبراطورية الالمانية. وفيها أصبحت تتمركز كل التناقضات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعيشها المانيا.

الصراعات واحتدت التناقضات في برلين الشيء الذي أدّى الى قيام ثورة ١٩١٨-١٩١٩ التي قادتها روزا لكسمبورغ. ثم مالبثت ان سقطت سلطة الرايخ وعندئذ قامت جمهورية برلمانية ديمقراطية وهي التي عرفت بجمهورية «فيمار» (Weimarer Republik) غير ان هذه الجمهورية الجديدة لم تتمكن من معالجة المشاكل الاقتصادية والسياسية المتفاقمة. وسرعان ما ازداد الوضع تعفنا عند انفجار

غوتفريد فيلهالم فون لايبنيتز.







يوهان غوتليب فيخته.

غوتهولد افرايم ليسينغ.

جامعة في برلين عام ١٨١٠

الازمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩، وخلال هذه السنوات الصعبة تحوّلت برلين الى مركز للارهاب والقتل والفوضى. وسرعان ما استغل النازيون هذا الوضع المتعفن لكي يفتكوا السّلطة عام ١٩٣٣.

ومن برلين اعلن هتلر الحرب على الدول التي هزمت المانيا خلال الحرب العالمية الاولى. وبعد نهاية هذه الحرب عام ١٩٤٥ كانت برلين قد تحوّلت الى انقاض. ودخلت قوات الدول المنتصرة المدينة وقسمتها الى مناطق نفوذ روسية وامريكية وفرنسية وانكليزية.

وفي عام ١٩٤٩، وامام تكاثر اعداد الهاربين من المانيا الشرقية الى المانيا الغربية اقامت السلطات الشيوعية التي تحكم المانيا الشرقية الجدار المقيت الذي لايزال شاهداً على مأساة المانيا خلال هذا العصر. وكانت برلين طوال تاريخها ايضا عاصمة للاداب والفنون والعلوم. وابدا لم تتخلى عن اداء دورها هذا الا عند استيلاء النازيين على الحكم.

في عام ١٧٠٠ اسس فيها العالم «غوتفريد فيلهام ليبنيتز» (GOTTFRIED WILHELM LEIBNIZ) اكاديمية العلوم البروسية وفي عام ١٧٤٠ دعى «فريديريك الكبير» الفيلسوف الفرنسي «فولتير» (VOLTAIRE) للاقامة في القصر الملكي مدة ثلاث سنوات، غير ان مجد برلين الثقافي تألق خاصة خلال القرن الثامن عشر بفضل المستنيرين الجدد من أمثال «غوتولد افرام ليسينغ» (GOTTHOLD EPHRAIM LESSING) و«موسى ماندالسون» (MOSES MENDELSOHN) و«فريديريك نيكولاي» (FRIEDRICH NICOLAI) وهكذا تحولت برلين الى مدينة «التنوير المدني» (BÜRGERLICHE AUFKLÄRUNG). وخلال القرن التاسع عشر، اصبحت مركزاً للرومانطيقيين الالمان. وفيها تجمع علماء وادباء كبار يمكن ان نذكر من بينهم: الاخوة هومبولت (HUMBOLDT) والاخوة شليغيل (SCHLEGEL) ويوهان يختة (J. FICHTE) وهاينريس فون كليست (H. v. KLEIST) ونوفاليس (NOVALIS) وغيرهم كثيرين.

وفي عام ١٨١٠ تأسست الجامعة التي درّس فيها كل من الفيلسوف الكبير فريديريك فيلهام هيغل (HEGEL) (١٨١٨) والمؤرخ «ليوبولد فون رانكه» (L.v. RANKE) (١٨٢٥) والعالم والطبيب الاسكندر هومبولت (HUMBOLDT) (١٨٢٧).

وخلال القرن التاسع عشر أيضاً تأسست مراكز ثقافية وعلمية جديدة من بينها مسارح ومتاحف ونوادي علمية وثقافية.

وعندما أصبحت برلين عاصمة الامبراطورية عام ١٨٧١ ازدادت اهميتها الثقافية والعلمية. وقد اقيمت فيها عام ١٨٧٩ «الجامعة التقنية» والتي أصبحت في ظرف زمني قصير مثالاً يحتذى في اوروبا باسرها. وبفضل اكتشافات كل من «روبرت كوخ» (ROBERT KOCH) و«ماكس بلانك» (MAX PLANCK) والبرت اينشتاين (ALBERT EINSTEIN) عرفت العلوم الفيزيائية والطبيعية تقدما كبيرا كان له انعكاس على المستوى العالمي.

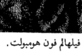
وفي عام ١٨٨٣ تأسس في برلين «المسرح الالماني» (DEUTSCHES THEATER) كما تأسست مسارح اخرى كانت مستقلة عن سلطة الدولة. وفي عام ١٨٩٥ كانت هناك في برلين ٦٥ صحيفة يومية. وبعد نهاية الحرب العالمية الاولى أصبحت برلين واحدة من اهم المراكز الثقافية والفنية في اوروبا بأسرها. غير ان استيلاء النازيين على السلطة حول برلين الى مدينة قاتمة وكئيبة. وهكذا هجرها الفنانون والمبدعون لفترة طويلة.

وبهذه المناسبة تقدم «فكرك وفن» نصوصا لكتاب مختلفين يتحدثون فيها عن جوانب متعدّدة لهذه المدينة التي تجسد كما ذكرنا آنفاً واحدة من أبشع مآسي هذا القرن.



مغازة «تيتز» في ساحة الآسكندر عام ١٩٢٨.





فيلهلم فون هومبولت.

فريديريك هيغل

فاليحفظ الله هذه المدينة!

كورت توخولسكي

ليس هناك سماء فوق هذه المدينة. ويمكننا ان نتساءل اذا ما كانت الشمس تضيء فيها ذلك اننا لا نراها الا حينما تبهرنا لحظة اجتيازنا الشارع. وبطبيعة الحال نحن نحتج ضدّ الطقس. غير انه لا طقس في برلين.

البرليني ليس له وقت. البرليني الذي هو في أغلب الأحيان من (POSEN) أو (BRESLAU) ليس له وقت. دائماً لديه شيء يشغله, انه يتلفن. ويتواعد مع آخرين، ويصل مقطوع الانفاس الى المواعيد ومتأخرا ايضا. انه مشغول طول الوقت. وفي هذه المدينة، لايعمل الناس. انما يشتغلون بحمية كبيرة (حتى اللذة هي بالنسبة لهم عمل. وهم يستعدون اليها باصقين على أيديهم مصمّمين على الاستمتاع بها الى اقصى حدّ ممكن). والبرليني ليس مثابرا أو مجتهداً. انه دائماً يتحرك. غير انه نسى مع الاسف الشديد لماذا نحن من هذا العالم.

ونحن نشاهد احيانا برلينيات في الشرفات. وهذه الشرفات ملتصقات بعلب تسمى منازل. وهن - البرلينيات - يجلسن هناك ليسترحن، بين مكالمتين، أوفي انتظار موعد ما، أو لأنّهن بكرّن قليلاً على اوقات مواعيدهن، فانهن يجلسن وينتظرن. وفجأة ينطلقن مثل السهم باتجاه التليفون في انتظار الموعد المقبل.

هذه المدينة مشدودة الى عربتها. ومعقودة الجبهة هي تدور طول الوقت حول نفسها دون ان تنتبه إلى انها باقية دائماً في نفس المكان وانها لم تتقدم ولو خطوة واحدة.

والبرليني لايعرف كيف يناقش. احيانا، نشاهد شخصين يتحدثان. غير انهما في الحقيقة لايتحدثان وانما كل واحد منهما يحدث نفسه فقط. وفوق ذلك لايعرف البرليني آداب السماع. انه ينتظر بصبر شديد حتى ينتهي الاخر من الكلام ثم يبصق بعنف. بهذه الطريقة تدور العديد من المناقشات في برلين.

البرلينية واضحة وهي تمقت الالتباس والمراوغة. وهي في الحب كذلك. وهي بلا أسرار. انها الفتاة الشجاعة والحسنة المعشر التي يجب ان يتغزل بها شاعر الحي. والبرليني لا يستفيد كثيرا من الحياة. الا اذا كان يربح أموالا كثيرة. وهو لا يحبّ ان يرافقه احد لان ذلك يعقد الحياة ويجلب كثيراً من المشاكل. انه يلتقي باصدقائه ويحاول ان يبدو جميلاً وأنيقا وعند الساعة العاشرة تبدو عليه عوارض النوم.

والبرليني عبدٌ لدواليب مدينته. انه عبد لها حين يركب وسائل نقلها، أو حين يذهب الى المسرح أو الى المطعم او حين يعمل في ورشة أو معمل أو ادارة. انه اقل من يكون كائنا بشرياً. الالة تثقب اعصابه وتمزّقها. وهو يستسلم لها تمام الاستسلام. انه يفعل كل ما تطلبه منه المدينة. اما ان يعيش.. فهذا شيء بعيد.. ومستحيل مع الأسف.

والبرليني يمضي يومه وهو يزمجر. وعندما ياتي الليل يقول بانه تعب من العمل ولاشيء غير ذلك. ويمكننا ان نعيش سبعين سنة في هذه المدينة دون أي ربح لارواحنا الابدية.

ثمة وقت كانت فيه برلين آلة جيّدة. يمكن لدمية من الشمع ان تحرك يديها ورجليها أوتوماتيكيا حين نلقي في الفتحة ١٠ فينينغات (Pfennige). اما اليوم فانه بامكاننا ان نضع قطعا كثيرة دون ان تتحرك الدمية.

الآلة تعطّبت الآن، ولم تعد قادرة على ان تتحرك مثلما كانت تفعل في الماضي. والسبب هو كثرة الاضرابات في برلين. لماذا؟ لست ادري. هناك من يساند الاضرابات. وهناك من يقاومها. لماذا؟ لست أدري.

والبرلينيون ينظرون الى بعضهم بعضاً كما لو أنهم لا يعيشون في نفس المدينة، ولايمارسون نفس العادات. وهم يمضون الوقت في شتم بعضهم بعضا سواء في الترامـوي اوفي الشارع. لاشيء يجمعهم اويوحد بينهم. وهم لايريدون ان يعرفوا شيئاً عن بعضهم بعضاً. كل واحد يعيش لنفسه وفي عالمه الخاص. وبرلين تجمع بين سلبيات مدينة امريكية كبيرة وسلبيات عاصمة من عواصم الاقليم الالماني. وايجابياتها يمكن العثور عليها في كتاب «المرشد الازرق».

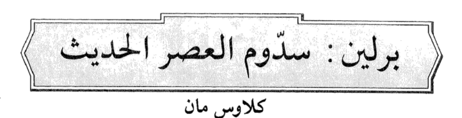
وفي كل عام، حين ينطلق الى الاصطياف، يشعر البرليني انه بامكانه ان يعيش فوق الارض أيضاً. ولمدة اربعة اسابيع يحاول ان يفعل ذلك غير انه لايفعل ذلك. انه يجهل معنى الحياة. وعندما يعود مسرورا وينزل في محطة القطارات يغمز بعينيه الى خط الترام ويشعر بسعادة كبيرة لانه عاد الى برلين. الحياة؟ لقد نساها تماماً.

ومن جديد تقرع الايام اجراسها الرتيبة. وحتى وان عشنا مائة عام في برلين فان الحياة تظل كما هي دون أي تغيير. لاشيء يلج حياتنا الداخلية. ولاشيء ينعش أرواحنا أويساعدنا على الانفتاح أوعلى الفرح. آه برلين! برلين!

عندما قرأ رئيس التحرير هذه الفقرات، قطب حاجبيه قليلاً، وابتسم بمودة في وجه الشاب الواقف امامه وقال: وهل

غيورغ غورس: المحرّض.

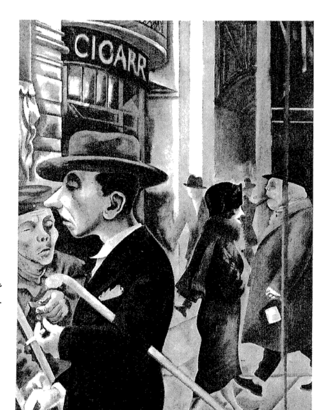
برلين مخيفة الى هذا الحد؟ الا تعلم ان لبرلين ايجابياتها أيضاً. هدوءاً، هدوءاً، أنت لازلت شابًا على كل حال. ولايمكنني ان الومك!». وبما ان الفتى كان لايزال فتى حقاً، وبما انه كا مؤدباً ومعروفا لدى الجميع بدماثة اخلاقه وحسن سلوكه، فانه نزع قبّعته التي ظلت فوق رأسه منذ دخوله مكتب رئيس التحرير، وبتأثر بالغ رفع عينيه الى السقف وقال بصوت حاد وخاشع في نفس الوقت: ليحفظ الله هذه المدينة!».



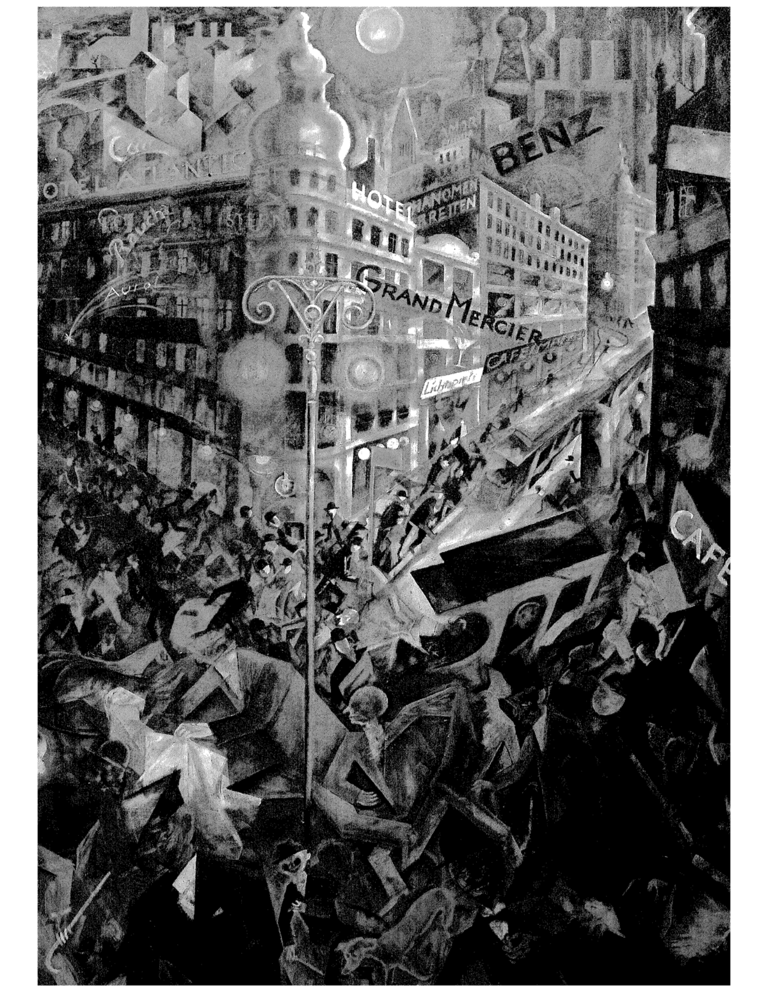
برلين: سدّوم العصر الحديث

كلاوس مان

برلين رقيقة الاحساس وقاسية القلب في نفس الوقت. انها ضجرة، لكنها مع ذلك شرهة طول الوقت الى الرغبات والاحاسيس الجديدة. ولقد حاولت دائماً ان تكون المركز الثقافي والاخلاقي لالمانيا ـ تماما مثل باريس بالنسبة لفرنسا ـ غير انها لم تفلح البتة. وبعكس العاصمة الفرنسية، فان برلين ليست لها موهبة الخلق وانما موهبة التنظيم فقط. ان عبقريتها ودورها التاريخي يتمثلان في انها لابد ان تستحوذ على كل الاتجاهات الكامنة والمستترة في المانيا، وأن تستوعبها، وان تمنحها شكلاً دراماتيكياً ثم تدفع بها الى الحد الاقصى. ان برلين هي الدماغ الذي يشكل الاحاسيس والغرائز، والحنين، والضغينة في قلوب الشعب الالماني بدقة علمية متناهية وبأناقة صحفية متميزة. العاصمة لا تخلق: انها تمثل. واذا ماكانت برلين العاصمة الامبراطورية، بفرقعة سيوفها قد منحت المظهر الديناميكي والعنيف للقومية الالمانية الفتيّة، فان برلين السنوات الاولى التي اعقبت الحرب عكست بنفس الوضوح حالة التشاؤم والانهيار لدى الأمة المهزومة. «انظروا الى، تصرخ العاصمة الألمانية المُتبجّحة حتى في يأسها، انا بابل، الآثمة والمذنبة والاكثر فظاعة من المدن جميعا. حتى سدوم كانت أقل منّي فسادا واثما. ادخلولي اذن أيها السادة والسيدات. ان ليالي لا مثيل لها يا ابنائي. قديما كان لنا جيش رائع. والآن لنا لذات وانحرافات رائعة! تعالوا الى حيث نزعات اللذة كلها! تعالوا!».

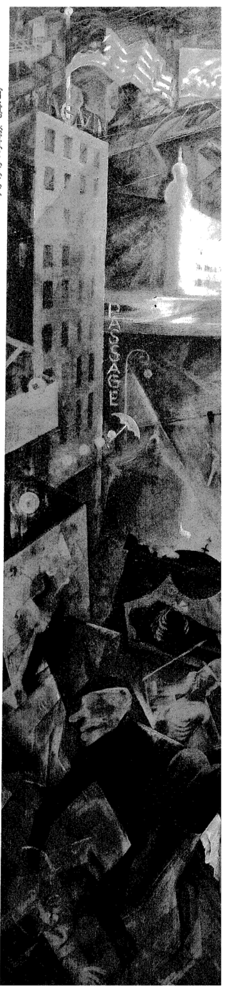


غيورغ غروس:
جادّة «الكودام» عام ١٩٢٥.


BENZ
HOTEL
GRAND MERCIER
CAFE



نيكولاوس براون: شارع من شوارع برلين



غيورغ غروس: المدينة الكبيرة ١٩١٦-١٩١٧

وقف ثيسين - بورنيميسا ، لوجانو/سويسرا.

برلين خلال السنوات العشرين

جون ميشال بالمبي

ثمّة أغنية في السنوات العشرين تقول ان برلين واحدة ولن تكون اثنين البتة. المهرّج الميتافيزيقي «كارل فالنتين» صديق «برخت» عرض بنفسه زجاجة تحتوي على هواء برليني. اغان، قصائد، روايات، لوحات، افلام خلدت هذه المدينة، انطلاقا من «جورج هايم» الى «كريستوفر ايشاروود» مروراً «ببرخت»، و«بيكر»، و«دوبلن»، و«ليونهارد فرانك»، و«غوتفريدبن»، و«تيخوليسكي»، و«ايريك فاينرات» و«هاينريش مان» وغيرهم كثيرون. قليلة هي المدن التي أثرت في الأدب وفي المسرح والسينما مثل برلين خلال السنوات العشرين. لقد كانت حقا منبعاً لابداعات كثيرة لاتزال مؤثرة الى حد هذا الوقت. خلال تلك الفترة، كانت برلين رمز الطليعة الاوروبية، ليس فقط بالنسبة للحركة التعبيرية، وانما ايضا بالنسبة للحركة الدّادائية، وللحركة المستقبلية وغيرها. لقد كانت مدينة المسارح والكباريهات، والمكان الذي يلتقي فيه فنّانو أوروبا الطليعيون والثوريون.

ان العصر الذهبي لهذه الطليعة يمتد في مابين ١٩١٠ و١٩٢٠. وقبل ان يلتقوا في الكابريهات الادبية، كان فنانو الطليعة الجديدة يلتقون في المقاهي. ومنذ بداية العشرينات، بدأت برلين الشعبية تفقد دورها الطليعي. وكانها ظهرت برلين جديدة. برلين الاغنياء. برلين الـ (Kurfürstendamm) والـ (Tauentzienstrasse) والـ (Kantstrasse) وكانت المقاهي التي تعوّد الطليعيّون الجدد الالتقاء فيها هي (Romanisches Cafe) و (Café Grössenwahn) وهي المقهى التي شهدت ظهور العديد من الأعمال الطليعية الجديدة. من هم هؤلاء «الطليعيون الجدد»؟ انهم شعراء بؤساء، يعانون الفاقة وبالكاد يجدون قوت يومهم. ومن خلال روايته الشهيرة Mephisto تحدث «كلاوس مان» عن تلك الفترة ووصف تأثير الفنانين الالمان المقيمين في برلين على الحياة الادبية والفنيّة في تلك الفترة. وعاش «برخت» في برلين في تلك السنوات فقيرا لايملك سوى معطفاً جلدياً وقبّعة. ويوما ما سقط في الشارع بسبب الجوع والارهاق. غير أنه في ما بعد لمع في برلين وسطع نجمه كشاعر وكمسرحي وخاصة بعد عرض مسرحيته «طبول الليل» و«أوبرا الاربعة مليمات في مسرح «Am Schiffbauerdamm» سنة ١٩٢٨.

وبعد ان كانت برلين مدينة السينما والمسرح، أصبحت مشهورة بكابريهاتها التي اصبح الناس يتهافتون عليها بأعداد كبيرة. وشيئا فشيئاً اكتشفت برلين مجلات العري. غير انها لم تقتصر على ذلك، بل انا سمحت لجمهور المسارح والكابريهات بالاستمتاع بحفلات ترقص فيها غانيات وهنّ شبه عاريات. ويتحدث «غيورغ هايم» عن برلين في تلك الفترة وكانها إله من آلهة الشر، وعالم يتميّز بالفزع والرعب والوحدة. أجراس الكنائس تتدفق كما لو انها «بحر من القلاع السوداء».

وفي كل الاماكن «يصاعد دخان المعامل» ويلتهم المدينة. انها - اي برلين - شبيهة بإله يمد قبضته الشبيهة «بقبضة الجزّار» لايري «هايم غير مشاهد حزينة ومخيفة في برلين، ويتحدث «غوتفريد بن» عن الاجواء الحزينة، وعن علب الليل المقيته بشيء من الانبهار والاشمئزاز في آن واحد.

ويرغب «ليشتنستاين» في الهروب من المدينة ومن الشوارع الفارغة، ومن سماء السقوف الحمراء، ليتمدّد أمام الشمس الصافية والزرقاء والكبيرة.

كيف شهدت برلين ظهور الحركة التعبيرية؟ من خلال الرسم في البداية. ذلك ان برلين أظهرت دائماً ولعا كبيراً بالرسم. لقد عرض فيها «مونش» (MUNCH) لوحاته الفضائحية وقبله شهدت برلين معارض مختلفة ومتنوعة. ومن الأكيد ان «مونش» لم يشهد الاقبال الذي يستحق عام ١٨٩٢، غير ان لوحاته الجديدة اثرت تأثيراً واضحاً في الجيل الجديد في الطليعة الفنيّة وكانت برلين في ذلك الوقت مفتوحة أمام كلّ ما هو قادم من البلدان الاسكندنافية وفيها عرضت مسرحيات ابسن (IBSEN) وستراندبارغ (STRINDBERG) وقد التقى «مونش» ريشارد داهمال (R. DEHMEL) في برلين، وأيضاً اوتو جوليوس بياريوم (O. J. BIERBAUM) وستراندبارغ وجوليوس مايرغراف (J. M. GRAEFE) الذي ألف كتابا عن فن «مونش» وكان ظهور المجلة الفنية «DER STURM» عام ١٩١٠ مناسبة لتدعيم الحركة الفنية الجديدة وتمهيداً لظهور لتطور الحركة التعبيرية. وفي البداية قوبل الفنانون الجدد في برلين بتحفظ كبير. بل ان الفنانين القدماء رفضوا أعمالهم واعتبروها مجرّد عبث طفولي لاعلاقة له بالفن على الاطلاق غير ان هذا لم يحد من حماس الطليعة الجديدة. وفي ظرف قليل بدأت تنشط لفرض نفسها. وجاء فنانو (BRÜCKE) ليستقرّوا في برلين. وفي عام ١٩١٠ عرض كوكوشكا (KOKOSCHKA) في قاعة (CASSIRER). وفي عام ١٩١١ عرض فنانو «الحصان الأزرق» (BLAUE REITER) اعمالهم في قاعة (DER STURM) التي أصبحت المكان المفضل الذي يلتقي فيه فنانو الحركة التعبيرية الجديدة.

وخلال فترة زمنية قصيرة انتشرت نار الحركة الفنية الجديدة في جميع أنحاء برلين، وجلبت اليها اعداد هائلة من فناني الجيل الجديد. ويمكن ان نذكر من بينهم: «كورت هيللر» (K.HILLER)، يعقوب فون هوديس (J. V. HODDIS) الذي أصيب في ما بعد بمرض عقلي وحرقه النازيون. و«فرانز بفامفارت» (F.PFEMFERT)، و«ريدولف ليونارد» (R. LEONARD) وغيرهم، واختلط الشعراء بالتعبيريين، وجميعهم أصبحوا يلتقون في المقاهي وفي الكابريهات. وخلال السنوات التي سبقت الحرب، عرض «ماكس راينهارد» (M. REINHARDT) المسرحيات التعبيرية الأولى.

وامام خطر الحرب الداهم، لجأ الفنانون الجدد الى المقاهي محاولين تجنب الكوارث التي بدات تلوح في الافق. غير ان ذلك لم يجد نفعا ذلك ان البعض منهم شهد مصرعه في تلك الحرب الطويلة. وبعد انهيار النظام القديم، وانتشار البؤس والفاقة، استيقظت الحركة التعبيرية من اوهامها القديمة، وراحت تعمل من أجل خلق عالم جديد، ومن أجل توحيد الأمل واليأس ضمن مشروع ثوري جديد. وهكذا أصبحت برلين رمزا للأزمة الشديدة التي كانت تمزّق المانيا. واذا ما كانت برلين قبل الحرب عاصمة الحركة التعبيرية بامتياز، فانها أصبحت بعد ذلك مدينة «الفن اليساري» الجديد. وخلال تلك السنوات نشطت الحركة الفنيّة الجديدة. وتهافت الناس على المتاحف وعلى قاعات السينما والمسرح لمشاهدة اعمالها في جميع مجالات الفن.

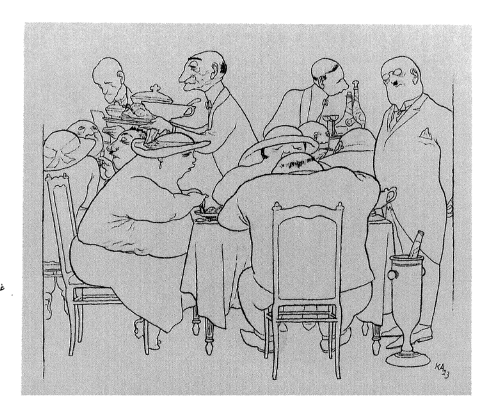
وبرغم قسوة تلك الفترة التي اعقبت الحرب، فان برلين عاشت مفتوحة لكل اللذات ولكل ما هو ثوري وجديد وطليعي. ولقد كانت تحاول من خلال ذلك ان تنسى مآسي الحرب وألم المجاعة والبؤس.

وفي سنة ١٩٢٢، قرّر «برخت» الاستقرار في برلين. كما استقر فيها أيضاً مخرجون لامعون من أمثال «راينهارد»، و«جسنر» و«هولندر» و«بيسكاتور». وظلت الحركة التعبيرية تعيش الى حدود عام ١٩٢٨. ولمّا طلب من «مابوز (MABUSE)» ان يحدد مفهوم التعبيرية قال: ان التعبيرية لعب ساخر. ولكن الحياة هي أيضا لعب ساخر!».

وفي برلين أيضاً، عرفت الحركة التعبيرية أوجها. ولقد جاءت الى برلين في نهايات الحرب كما عاصفة هوجاء أوكما جياد الرؤيا الأربعة. في فبراير ١٩١٨، قام «هولسنباك» (HUELSENBECK) بمحاضرة في برلين اعلن فيها عن تأسيس الحركة الدّادائية. ومنذ ١٩١٨ الى عام ١٩٢٠ نظم «نادي دادا» اثني عشر سهرة، واصدر بيانات عديدة. وفي عام ١٩٢٠، افتتح «المعرض العالمي للحركة الدّادائية» في قاعة «بيرخارد» (BURCHARD). وسرعان ما نعت الدادائيون «بالبلاشفة». غير ان هذا لم يكن صحيحاً تماماً. وذلك ان الدادائيين، حتى وان كان البعض منهم متعاطفا مع الثورة البلشفية، فانهم لم يكونوا متحزّبين بالمفهوم الايديولوجي للكلمة.

حول قاعة (DER STURM)، وحول المجلة التي تحمل نفس الأسم، التقت الاتجاهات الجديدة والمتميّزة في مجال الرسم: كاندينسكي، فرانز مارك، شاغال، وأيضاً فنانو الحركة التكعيبيّة في فرنسا. وقد شهدت معارض الرسامين الجدد اقبالا شديداً ومتحمساً من طرف الجمهور.

كانت برلين خلال العشرينات، تحاول وسط الهزّات السياسية، ووسط أجواء الجوع والفاقة، ان تجد في تلك الحياة الصاخبة وفي وهج الفنون الجديدة مواساة لجراحها والآمها. كانت تريد ان تنسى وان تهرب بعيداً في فترة «كانت فيها الفتاة تشتري بسيجارة وقطعة الخبز بمليون مارك!». وفي احدى اللافتات المستوحاة من قصيدة «لفالترماهرينغ» (W. MEHRING) يمكننا ان نقرأ: «برلين، راقصك هو الموت!».



غيورغ غروس: مقهى في برلين

برلين أيام الحرب

كارين بليكسن

جئت الى برلين في فترة فقدت فيها لمعانها ورونقها تماما مثلما يفقد الطائر زهوه في موسم النسول . لم تكن هناك موسيقى في الشوارع . ولا أعلام ترفرف في الريح لاصوت أقدام بالآلاف . وكل مايمكن ان يبهر كان غائباً تماما . لقد حدثني اصدقائي الذين حضروا الالعاب الاولمبية منذ أربع سنوات عن عاصفة الانتصار التي كانت ينفخها الرايخ الثالث بقوة وعنف . غيرواننا في برلين لم اعثر على شيء من هذا القبيل . لقد شعرت اني في مدينة كئيبة . الشوارع قذرة بطريقة لايمكن وصفها . لقد ازالت الشاحنات الثلج قليلاً من الشوارع ، غيرانها تركتها مكدّسة وانطلقت لتأدية مهام أخرى اكثر أهمية . الناس يسيرون بحذر مرتدين ثياب السّنة الماضية . لم أرثياباً رثة ، كما اني لم أرثياباً أنيقة . في مدينة كبيرة ، اكثر مما في أي مكان آخر ، يكون ألغيرمجدٍ هو الضروري ، ودونما نخبة مثقفة تبدو المدينة رتيبة كما اليأس نفسه . وعندما كنت في بهو فندق «أدلون» بأثاثه الوقور ، فكرت في ان الاشخاص الوحيدين الجديرين بذلك المكان هم البوّاب والصرّافات . وكأن الفندق بني لشيء آخر غيرتلبية رغبات الناس . كل شيء كان يؤكد ان برلين تعيش أياماً عصيبة وقاسية .

غير انه بعد مضي أيام ، بدأ المحيط في التغيربطريقة غير محسوسة . ذلك ان الأعمال الكبرى تتواصل ، وضربات المطارق تفرقع فوق المداخن العالية وعلى الارض حيث تبنى شوارع عريضة . هذا المجتمع ليس مسلوبا وانما هويمتنع بوعي تام عن شيء محدّد ، تماما مثل رجل يشعر أنه عليه تادية عمل ما ، وفي الحال ينزع سترته ، ويشمر عن ساعديه ، ويشرع حالا في القيام بذلك . الارادة ، والرغبة العامة في تأدية الواجب تسيطران على برلين التي ملأها الشتاء قذارة وحزنا . ان منع الجولان ، اذا لم نتعرض اليه من قبل ، يزعج النفس كثيراً في مساءات آذار . اننا نحس نفس مشاعر رجل يدرك انه يغرق وانه لاسبيل الى الخلاص . غيرانه مع مرور الوقت ، نتعود بسرعة على التنقل في العتمة . لكن الفزع يظل يرافقنا رغم ذلك . ليست العتمة هي التي تضغط عليك ، وانما الاحساس بان هناك حولك ، وفي كل النواحي ، أربعة ملايين من البشر ، قرّروا ان يختفوا وان يظلوا هادئين وصامتين في العتمة .

وفي برلين كانت المسارح تغصّ بالناس برغم منع الجولان وقذارة أشهر الشتاء . ومن الصعب الحصول على تذكرة في اي مسرح من المسارح . ولولا مساعدة وزارة الدعاية لما كنت تمكنت من مشاهدة أي شيء . وليس في البرامج مسرحيات حديثة . هناك تهافت من جانب المخرجين على الأعمال الكلاسيكية . وهناك اجانب كثيرون في برلين يشتكون من هذا الوضع ، وهم بفارغ صبر ينتظرون الفن المسرحي الجديد الذي سوف تبتكره ارادة الرايخ الثالث . ولكن من يدري ان هذا الشعب الذي يقدس واجباته يذهب الى المسارح دونما وعي لكي يفلت لساعات من اولئك الذين يريدونه ان يظل في الطريق المستقيم .

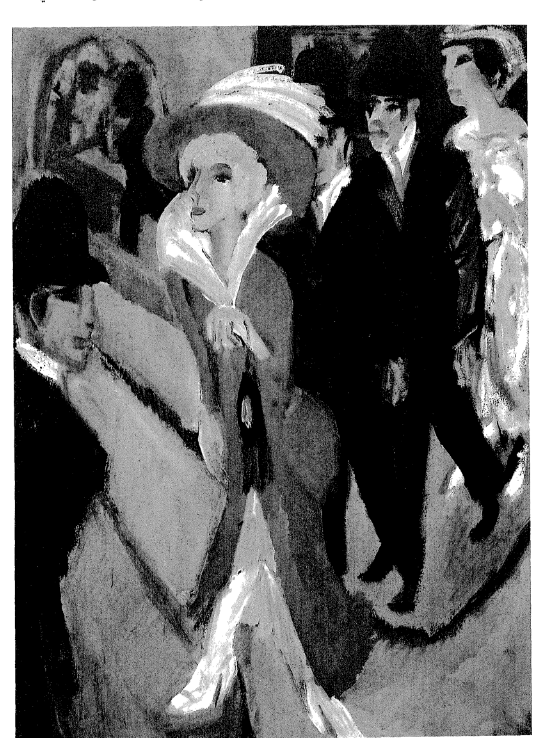
ولقد سمعت كثيرين في برلين يتحدثون عن الفن الشعبي . وهم يقولون ان فن الرايخ الثالث لا تخلقه النخبة الثقافية وانما الجماهير بأسرها . لكن ماذا ترى تقول الجماهيراذا ما دعوها تتكلم وتعبرعن رأيها؟ ولقد تمكنت من مشاهدة العديد من الاعمال التي قيل لي أنها تنتسب الى الفن الشعبي . وانا لم اشاهد أبداً معارض رسم واعتقد انها لا تقام اطلاقا لافي برلين ولا في غيرها من المدن . غيراني شاهدت بعض الاعمال التصويرية ، وأيضاً سقوفاً مزينة وبنايات رسمية مزخرفة . وكل ذلك مستوحى من روح الرايخ الثالث . اشخاص عراة يبدون شرفاء اكثرمن اللازم . فتى عار ، يد على المحراث والاخرى على السيف ، وعيناه زرقاوان كبيرتان . والى جانبه فتاة عارية وضخمة الجسد ، وصافية الوجه تتحول في الصورة الاخرى الى أم سعيدة ، محترمة من طرف الجميع ، ومنها يتدفق الحليب والعسل . انها الصورة المعلقة في جميع الاماكن والتي تجسد البطولة والمجد كما يراها الرايخ الثالث . غيران الشعب لا يرى نفسه كذلك . واعتقد جازمة انه يحمرّ خجلاً حين يُستحث على أن يرى نفسه كذلك . [. . .]

ولكي أطلع على مايضحك الشعب الالماني ، ذهبت صحبة الدكتور «باغال» الى (CAROWS LICHTBÜHNE) التي هي قاعة عادية تقدم فيها عروض مختلفة ومتنوعة . وفيها يشرب الناس الخمر والبيرة . وكانت حقا سهرة ممتعة . «كاراو» الذي هوبدون شك ، صاحب القاعة والذي حسب ما اعلمني البعض ، قيد الى السجن مرتين أوثلاثة ، بسبب هزله المرّ احيانا ، هو الذي كتب المسرحية وهو الذي يمثل الدور الرئيسي فيها . وكانت مليئة بالهزل وبالسخرية عكس تلك المسرحيات التي يؤلفها بعض البورجوازيون الثقلاء . وكان الجمهور سعيداً ذلك ان الممثلين عبّروا عن مرارته [. . .]

كما استمعت أيضاً الى السمفونية الخامسة لبيتهوفن . مسؤول وزارة الدعاية الذي كان يرافقني قال لي : «ان السمفونية

الخامسة هي التعبير الحقيقي والرائع للروح الالمانية». وهكذا استمعت الى السموفية بطريقة تختلف عن المرات السابقة.

«هكذا يضرب الله على الباب» كان يقول بيتهوفن. ونحن لا نعرف اذا ما كان ذلك وعدا ام وعيدا. وكان «برليوز» (BERLIOZ) يسمي الوثْبة الرابعة «وثْبة السفينة». غير ان شومان (SCHUMANN) الذي استمع وهو طفل الى السمفونية الخامسة قال قبل نهايتها: ان هذا يخيفني». والنهاية تنتفخ، وتتدفق ثرية وعنيفة، ويَصِلُ الانفعال الى اقصاه: «النصر، النصر!» يصرخ في النهاية. وقبل ذلك بليال كنت استمعت الى «القيثارة الساحرة» التي عزفتها بطريقة رائعة «الاوبرا الكبيرة». وقد عدت الى الفندق تحت عاصفة ثلجية عنيفة. غير اني كنت سعيدة الى درجة اني اردت ان امنح تلك القطعة شكلاً مستوحى من احدى روايات الكاتبة السّويديّة سلمى لاجروف: «آه انت الذي أحب كمْ أنت علمتني ان أطير بجناحي في السماوات العالية!». غير انه في تلك الليلة، لم تمنحني السمفونية الخامسة اجنحة. وبعد مضي شهر على اقامتي في ظل الرايخ الثالث، شعرت انها ترن بتلك المناقشات التي دارت بيني وبين بعض الرسميين حول قوّة الارداة. ولقد بدت لي مجسّدة للانسان الاعلى اكثر مما هي إلهيّة!.



ارنست لودفيك كيرختر: شارع المرأة الحمراء

رواية الفريد دوبلن :
برلين : ساحة الاسكندر جحيم برلين الثلاثينات

جون فرانسوا فوجيل

في يوم ١٠ أيار ١٩٣٣، قام كاتب فاشل يدعى «غوبلس» (GOEBBLES) بحرق أعمال أربع وعشرين كاتباً وشاعراً المانيا أمام جامعة برلين من بينها أعمال «الفريد دوبلن» (A. DÖBLIN) الذي كان قد سارع بالهروب الى باريس وذلك عقب حرق «الرايشتاغ».

وقبل ان يجتاح الاعصار النازي المانيا بقليل، كان «الفريد دوبلن» قد نشر رائعته الشهيرة: «برلين: ساحة الاسكندر» وذلك عام ١٩٢٩ اي عند انفجار الازمة الاقتصادية الكبرى التي اجتاحت العالم الراسمالي في ذلك الحين.

يقول الناقد «افرايم فريش» معلقاً في آوخرا عام ١٩٢٩ على ظهور هذه الرواية انه لا رواية عن برلين مثلها بعد «فونتانا» (FONTANE) (كاتب الماني عاش في الفترة الثانية من القرن التاسع عشر وكتب عدة روايات عن برلين وأجوائها - المترجم). ويواصل هذا الناقد قائلاً ان رواية دوبلن ليست ملحمة برلين وحدها وانما هي ملحمة البؤساء، والهامشيين، والمشبوهين. وقبل «دوبلن» كان تيودور فونتانا، قد جعل برلين في رواياته حاضرة باجوائها، وبشوارعها، وبمطاعمها ومقاهيها. وفي الفترة التي عاش فيها هذا الكاتب، اي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت برلين لاتزال عاصمة اقليمية، ، ولم تكن قد أصبحت بعد عاصمة للامبراطورية البروسية، وبعد «تيودور فونتانا» لم تختفي برلين من الاعمال الادبية والفنية. فلقد كانت حاضرة بصفة خاصة في اعمال الفنانين التعبيريين. غير ان الرواية الوحيدة التي تحدثت عن برلين كمتروبول حديث هي رائعة «الفريد دوبلن»: برلين ساحة الاسكندر.

ماذا كانت هذه المدينة في مطلع الثلاثينات؟

لقد كانت مركزاً ضخماً للمواصلات (٢٠ محطة كبرى و ١٠٠ صغرى) وكان عدد سكانها قد بلغ أربعة ملايين خلال أربعة عشر عاماً فقط! وكان فيها ثلاثون الف معمل، وثلاثة الاف فرع بنكي، وثلاث مائة ورشة! ومثلما توقع «مارك توين (M.TWAIN)»، فان برلين كانت قد أصبحت منذ نهاية القرن التاسع عشر «شيكاغو» اوروبا. وبما أنها اصبحت عاصمة للألمانيا باسرها، فقد كانت على صلة يومية باهم العواصم الاوروبية: باريس وبودابست، وموسكو، ولندن. يقول «الفريد دوبلن»: «ان وصف مدينة كهذه، يبدو مشروعاً صعب التحقيق. ولكي أتوصل الى النفاذ الى جزء من روحها، على ان اتصفح وثائق الاحصائيات، وان احصى اعداد المواليد والاموات، وأن أدرس حالة المعامل، وان انتبه الى افلاس الاشخاص والمؤسسات، وان اتعرف على أوضاع العاطلين عن العمل، وأن أطلع على مستشفيات الامراض النفسية، وعلى الملاجىء الليلية، وعلى حدائق الاطفال..» غير ان كل هذه الصعوبات لم تثني «دوبلن» عن انهاء روايته التي أثارت حال ظهورها اعجاباً شديداً لدى النقاد والقراء على حد السّواء. ولايمكن البتة الاستناد الى اجواء ازمة ١٩٢٩ الاقتصادية وحدها لتفسير نجاح هذه الرواية، بل لأن «دوبلن» تمكن كَخلّاق كبير من أن ينفذ الى اعماق المدينة وان ينقل لنا كوابيسها والآمها ومخاوفها باسلوب ساحر وعنيف في نفس الوقت.

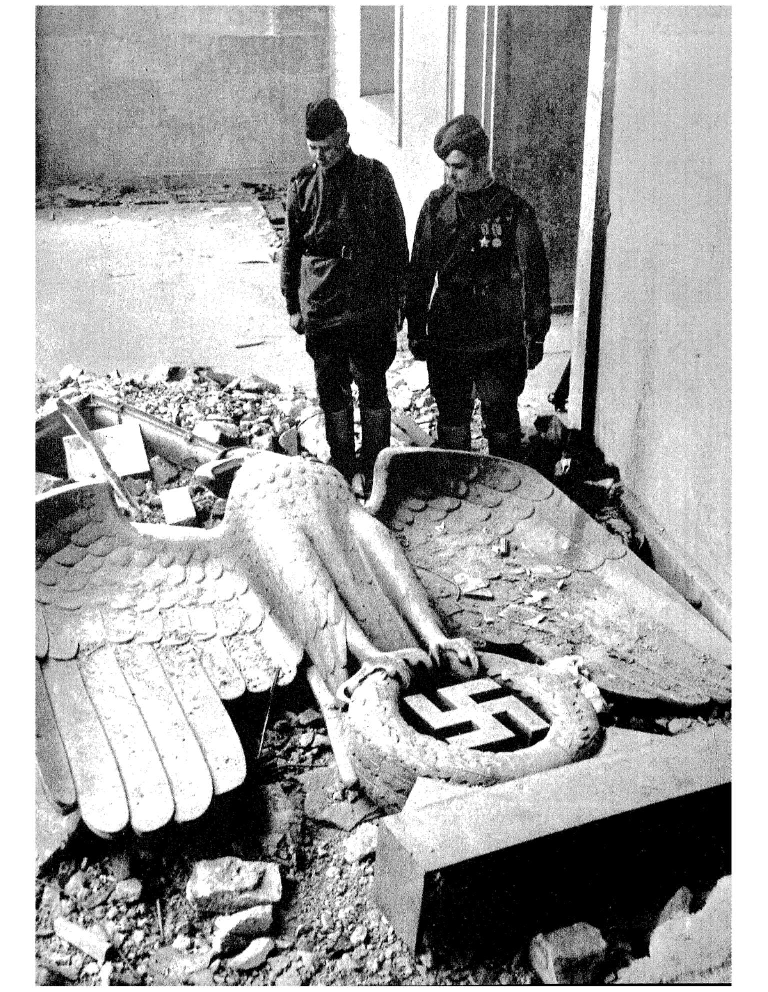
وقد كتب «دوبلن» روايته دون بطل ايجابي، ودون تمهيد، ولكن بأسلوب حديث مكنه من ان يكون قريبا من سيلين ومن جويس في نفس الوقت.

لقد صّورت رواية «برلين: ساحة الاسكندر» جحيم برلين بعد الحرب العالمية الاولى وقبل استيلاء هتلر على السلطة. ولذا فانها جاءت قاتمة، ومفعمة باليأس والالم: «فالنسر بفرح.. ان الحرب تنتظرنا». وفيها يلتقي المشوّهون والبغايا بالاثريا والخونة. وكل ابطالها يعكسون اوضاع اشخاص حقيقيين عاشوا جحيم برلين خلال تلك الفترة: «راينهولد» الذي يلبس أحسن مايملك من الثياب ليقابل النساء، و«بلومر» الاكثر سمنة من الخنزير الأكثر سمنة»، و«فرانز بياركوف» الذي يتردد في وضع يده الاصطناعيّة قبل الخروج.

هؤلاء كانوا ابطال جحيم برلين خلال الثلاثينات.

غيورغ غروس: المحرّض







عائلة مشرّدة

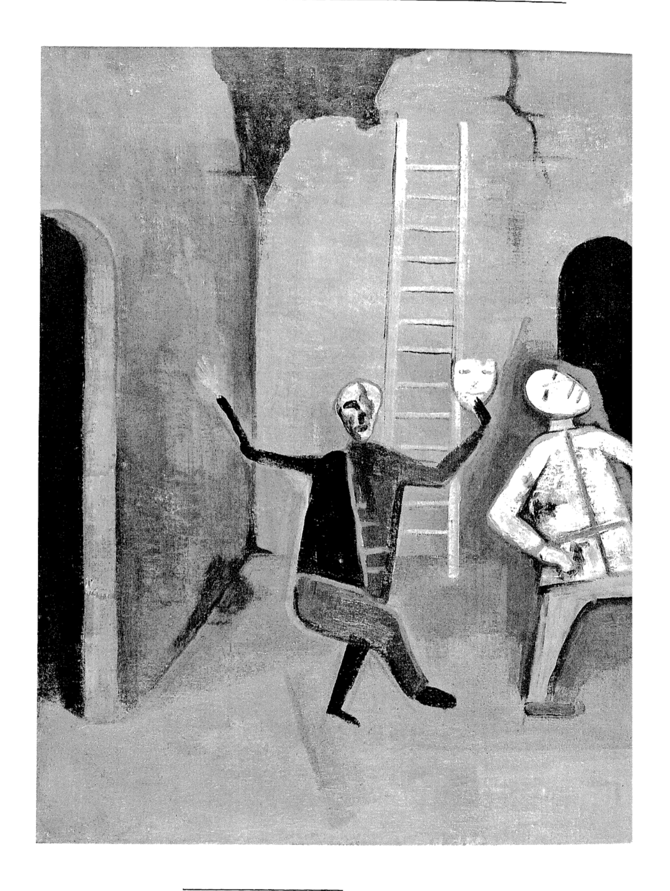


بقول امام باب براندانبورغ. برلين ١٩٤٧

شعار النازية على الأرض في نهاية الحرب العالمية الثانية. برلين، ماي ١٩٤٥



كارل هوفر: اعادة بناء العمارات



برلين عاصمة العالم

جاك تيبول

منذ خمس سنوات، زرت برلين لأول مرّة. ومنذ ذلك الوقت وانا أعود اليها دائما. في البداية كنت أذهب اليها بنفس الرغبة التي اذهب بها الى المدن الاوروبية الكبيرة بحثا عن الاختلاف بين الاماكن وبين العادات وبين العقليات محاولاً أن أجابه الصورة التي في رأسي بصور وأصوات صاحبة لمدينة مذهلة ومعقدة ورمادية وشرسة في آن واحد: برلين السنوات العشرين، برلين الحركة التعبيرية في الرسم والفنّ، والغليان الثقافي والسياسي، برلين دوبلن ورائعته الشهيرة «برلين، ساحة الاسكندر». بعد الحدود، سارت سيارتي في طريق بائس باتجاه خط حدودي آخر. وبعد ذلك دخلت المدينة التي شغلت خيالي وذهني لفترة طويلة. برلين الكوزموبولوتيّة واللّامعة اختفت أو تكاد. انها اليوم مدينة أخرى يسكنها أجانب يرتدون ازياء عسكرية مختلفة. لقد صدمتني برلين، برلين المدينة الجرح هي اليوم عاصمة للوجع والألم. وكل شيء فيها يدل على ان الجرح لما يزل مفتوحا وانه لن يندمل البتة. برلين، عاصمة لهذا العالم الكئيب ذلك انها تبرز من خلال انقاضها، وجدارها القبيح، وجراحها الكثيرة ما تحرص مدن اخرى على اخفائه. ان برلين تجسد أكثر من غيرها، التمزق، والحقد، واكاذيب الايديولوجيات، وجنون تاريخنا المعاصر. انها عاصمة لهذا العالم لانها تعبر اروع تعبير عن أرهاب القوى التي تجابه بعضها بعضاً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. أحياناً ينتابني إحساس بان العواصم الاوروبية مدن سوداء. سوداء من الارصفة ومن واجهات العمارات. انها مدن تختنق تحت تاريخها الطويل، بنيت فوق مآسي وجثث كثيرة. وفي كل واحدة منها حدثت محاولات للتجميل، والاصلاح، والترميم. وفي كل واحدة منها حاول الناس ان يكونوا سعداء بقدر الامكان وان يعيشوا الوهم. غير ان الموت كان يعود دائماً. بهدوء مع تنفس الاحجار الاسود.

أمّا في برلين فليس هناك أيّ وهم: ان اثار الالم والحرب لاتزال واضحة. كما لا تزال واضحة أيضا الكوارث التي عرفتها الانسانية خلال هذا القرن [. . .] برلين مدينة التناقضات الكبيرة. انها المدينة التي تعكس اكثر من غيرها حالتنا كأوروبيّين مضطربين وحيارى.

والبرلينيون مجبرون على ان تكون لهم ذاكرة قصيرة ذلك ان المدينة تفرض عليهم طول الوقت ان ينظروا الى اثار النازية. ان ذاكرتهم تقف عند هذا الحد ولا تستطيع ان توغل في الماضي البعيد وبرلين تكشف لنا بوضوح تام لماذا كتّاب المانيا وسينمائيوها هم بلا ذاكرة مثل تلك الشخصيات التي في أعمالهم.

في احدى افلامه يذمّ سيباربارغ (SYBERBERG) الدمية التي تجسّد شخصية هيتلر قائلاً: «لقد حطمت برلين عليك ان تجيب منازل دون ارواح، بعيون مخروقة وبلا دموع، ومدناً لم يعد بامكانها ان تفكر، وحياة لم تعد قادرة على التحرك. لقد سرقت منا غروب الشمس. وكلّ ما تبقى شوهته ودنسته: الشرف، الحياة الريفية، الوفاء، حب العمل، السينما، الوطن ـ الوطن! الكبرياء والعقيدة! شكراً لك على كل مافعلت!».

برلين جرح لا يندمل. وثمة مدن اخرى تموت وتتعفن غير انها تسعى بكل جهدها لاخفاء ذلك. وخلال تجوالي عبر شوارع برلين كان يلاحقني بعنف شديد كل من الموت والحقد اللذين نشرتهما اوروبا في العالم باسره منذ امد طويل، ووجهتهما ضد نفسها وضدنا نحن أيضاً.

وعقب مضي شهور على زيارتي الأولى الى برلين، كانت أول ذكرى سجلتها في يومياتي، هي الصورة الفرحة والجميلة لبحيرة «فانسي» تحت شمس يوليو. وهي صورة تحمس الأنسان الى قضاء عطلته الصيفية في برلين. صورة زرقاء وصافية ومليئة بمئات الاشرعة البيضاء. غير أن هناك تفاصيل أخرى لا يجب ان أنساها: على الضفة الأخرى من البحيرة، ثمة جنود بريطانيّون يضعون في السماء آلة حربية ضخمة وسوداء. وبعيدا من هناك تخرج من السماء تلك اللافتة المعتادة التي تنبه الناس الى ان هناك من يغادر برلين الغربية. انها السعادة المهددة دائما باشارة، اشارة المأساة.

إن نشوة العشرينيات ومرحها اختفيا من هذه العاصمة المحاطة بالبحيرات وبالغابات وبالحدائق. ثمة آثار أخرى بقيت: حين تتجول على طول (KURFÜRSTENDAMM) نكتشف بين واجهات المغازات الأشد أناقة، الواجهة القديمة لعمارة منهارة وعلى جدرانها آثار رصاص. أمّا بلّور النوافذ فحطّم تماما. وعلى باب الدخول سمّرت الواح خشبية. وهناك في المدينة عمارات كثيرة شبيهة بهذه. عمارات مهملة ومنهارة تذكر باهوال الحرب والغارات الجوية. عمارات صامته وكئيبة تنضح منها كوابيس ايام الفزع [. . .].

ينتصب الحائط بشعا فاصلا بين جزئي المدينة. ينظر الالمان والبرلينيون الى بعضهم بعضا لمدة طويلة دون كلمة ولقد أقيمت منصات هنا وهناك لكي يتمكنوا من ان ينظروا جيدا الى بعضهم

بعضـا . ويخيـل لنا انهم ينتظرون . انهم ينتظرون . ونظراتهم تكون فضـاء تتـلاشى فيـه الـذاكـرة ، ويضيـع فيـه الوعي ، وتتمزق فيه الهـويـة . المانيا مقسّمة ، وشعب منفصل عن نفسه ، وبرلين مجزأة . وفي برلين الغربية ثمة انفصامات اخرى بين السكان ، واختلافات عميقة بين الافراد .

بين (Brandenburger Tor) و (REICHSTAGSGEBÄUDE) الشهـير ينتصب الحـائط مدهونا باللون الابيض . وعلى طوله تنبت حشـائش وحشيّـة وطفيليـة . كما تنبت شجـيرات فوق انقـاض السفارات القديمة ، وترتعش اعشاب مجنونة في الفضاءات الفارغة الـواقعـة حول (PHILHARMONIE) والمتحف الـوطني . وبين هـذين الاثـرين الهـامـين اللذين لم تمسسهـا الحـرب بسـوء ، هناك كنيسة صغيرة تقدم فيها احيانا حفلات موسيقية . ذهبت اليها مرّة . وفيها استمعت الى «مـوتـزارت» . كانت هناك موسيقى تحت جناح تلك الكنيسـة المنعـزلـة ، وحـول ذلـك الفضـاء الـذي أصبـح فارغـاً ومتـوحشـا . وبعيـداً الحـائط ثم أضواء برلين الشرقية . ليس هناك لحظـة من لحظـات السعـادة لايهـددها الموت أو الانفصال . هكذا عشت في برلـين . ليس هنـاك مكان واحد لاتفاجئك فيه اشارة من اشـارات أيـام الـرعب التي تحدث احيـانـا موجـات من العنف والغضب خاصـة في أوساط المراهقين والشباب في حي كرويزبارغ (KREUZBERG) . على جدار مقـبرة هذا الحي ، وبـالقـرب من البـاب الـرئيسي كتب احـدهم : فاليحيـا المـوت (VIVA LA MUERTA) . على الرصيف يلعب أطفال أتراك [. . .] .

وككـاتب انـا جد حسّـاس للأشياء التي اشاهدها وللمشاعر التي تولـدهـا في نفسي . وأذكـر أني ذات مرة فاجـات فتـاة وشـابـاً يمارسـان الجنس واقفين ومستندين الى الجدار . كان الشاب يستند الى الجـدار وكـانت الفتـاة تستند اليه مفتوحة الساقين . وغير بعيد عنهما ، قرأت على الجدار الابيض (THIS WALL IS AN ILLUSION) (هـذا الجـدار وهم) . وعلى بعـد امتـار من هنـاك جنديان ، واحد انكليـزي والآخـر امـريكي ينظـران الى النـاحية الأخرى بواسطة المنظار . ثم أشعلا سيجارة بهدوء كما لو انّهما كانا يتأمّلان البحر .

كان كل شيء هادئا في ذلك المكان المنعزل . وكل شيء كان مهدّداً أيضاً . وهذا المشهد من مشاهد نهاية الظهيرة راح يغرق شيئا فشيئا في الصمت الخانق لكابوس لم يكن باستطاعتي إدراك نهايته .

أوروبيًّا حائـراً ومشتت الـذهن اكتشفت برلـين . وأوروبيـا حائـراً ومشتت الـذهن أيضـاً مشيت في شوارعهـا . انهـا عاصمـة مهـزومـة ، أعيد بناؤها ، واحتلت ، وقسمت وهي تقول بعنف انها اضـاعت روحهـا وان التهـديـد لم يختفي البتة وهي تبرز بوضوح ما تحاول مدن أخرى دفنه وإخفاءه .



«شبيتال ماركت» : احد أسواق برلين .

ذات يوم أحد في برلين الشرقية

ميشـــال دكوســـت

ما يدهش في البداية هو صمت الشوارع، خاصة في الساعة الحادية عشر من يوم الأحد، وعندما تكون الشمس حارة، وكل واحد يعلم انها عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة في الصيف قبل الخريف الخفيّ والعابر، والشتاء القاسي والبارد. السيارات القليلة تتحرك صامتة في الشوارع. وهي ليست مجبرة على ان تستعمل المنبه او ان تفرمل لان المارة قليلون. وعندئذ تولد في انفسنا الرغبة في ان نلتمس أي رُوح تعيش بعيداً عن الشوارع الخالية، وان ندخل تحت الاروقة، والى الحدائق، والساحات الخلفية... ثم فجأة، نكتشف أننا بحثنا دونما جدوى في الناحية الأخرى، وهكذا نعود الى بطن برلين الشرقية على بعد خطوتين من السّهم الاصفر ومن البلور اللامع لـ «ALEXANDERPLATZ» علينا ان نتمهّل، وان نسير في الشوارع ببطء، وأن نتصيد مثل القطط دون أن نظهر بأي حال من الاحوال اننا نبحث عن شيء ما. الحي اليهودي القديم حول «ORANIENBURGSTRASSE» يبدو كما لو انه خرج لتوه من دخان الحرب: منازل لاتزال قائمة غير انها مسودّة، جدران مثقوبة بالرّصاص، ملاك صغير ورؤوس نساء مقطوعة أو دونما أنوف، جراح أشد عمقاً خلفتها شظايا القنابل. غير ان كل شيء منتصب في مكانه. غزارة وجمال الاروقة المقوّسة على الطريقة القوطية او المثلثة والمقامة منذ نهاية القرن الماضي تجعلنا نتخيل دخول عربات الخيل الفاخرة، حاملة حرفاءها الى مدارج المرمر ذات الفوانيس المصنوعة من الخشب النادر أو من الحديد، والتي لاتزال ثرياتها تعرض بلورها الجميل.

غير ان الالق ينتهي عند هذا الحدّ، اي عندما نجد أنفسنا أمام قائمة المتساكنين المكتوبة باليد على ورقة مصفرّة، وأمام صناديق الزبالة الملقاة في الساحة الى جانب ركام من الفحم، وأمام الذاكرّة المعلقة على باب الدخول: «الاوساخ تجمع كل أيام الأثنين، الكلاب ممنوعة، لاتنسوا الاضواء، لايمكن لاي اجنبي أن يدخل الى السّاحة...» النوافذ مغلقة. نوافذ الساحة الداخلية أيضاً. لاصوت ترانزيستور على الاطلاق. لاصوت يرتفع. حتى صخب العائلات العادي في صباحات الاحد معدوم تماماً. لا صوت مطبخ أو ماء يسيل. حيّ غريب، فيه التاريخ اكثر حياة من الحياة نفسها. على جدار معبد يهودي، اسود الجدران، لافتة من النحاس مكتوب عليها: «هذا المعبد حرق ليلة الصفاء عام ١٩٣٨ وقصف عام ١٩٤٤. وقد أبقي على هذه الحالة تذكيرا بالام الشعب اليهودي». على بعد خطوتين، عمارات تبدو كما لو انها قصفت لتوّها. وحدها الشجيرات التي نبتت في التجاويف تؤكد جرحاً قديما لمّا يندمل بعد.

قريبا من «ALEXANDERPLATZ» نلتقي اخيرا البرلينيين ثلاثة أطفال بشرتات رياضية برتقالية نسبة الى الشبيبة الشيوعية يجرون حاملين رايات. فتاة صغيرة تحرك دريجتها على البلاط. عائلة تتوقف طويلاً امام مغازة: بطاطا، كرنب، بصل، قصب السكر، كرفس، وواجهة قرية فقيرة من قرى السهول الشمالية... على بعد خمسين متراً من المغازة.

ساحة الاسكندر: فولاذ مصقول، بلّور، بلاطات من المرمر والاسمنت، مكتبات فنية، واخرى للتاريخ والدعاية، فنادق كبيرة، مقاهي مستقيمة وبلا ارصفة الا في ماندر، روائح المقانق، والدجاج الممزوج بالفلفل، وحساء الحمص... والسوّاح بطبيعة الحال. سوّاح من الصين واليابان وروسيا والمانيا الغربية. شعور بالقرف. أين هم السكان؟ فارغة الممرات بين العمارات الحديثة. فارغة المقاهي الصغيرة في الساحة الكبيرة. فارغة المقاعد والحدائق الصغيرة في وسط المدينة. وعلى بساط البارات «الفخمة» يعطونك فطائر كبيرة محشوة بلحم الدجاج - ويالة من لحم عجيب! - ومعها كأس كوكاكولا بدون فقاقيع. ولا ابتسامة. والكلام يتم بصوت منخفض. والطعام بارد وبلا طعم.

علينا عندئذ ان نقفز في أوّل قطار وان نجتاز غرب المدينة، وان نترك وراءنا أحياء الأسمنت والاجر، ودخان المناطق الصناعية، وان نتأمل اشجار التنوب الأولي، وغابات البتول، وان ننتظر محطتين أو أكثر لكي نركب تراما قديماً، ذا مقاعد مبرنقة باتجاه «MÜGGELSEE».

البرلينيون هناك، في الحانات المتوزعة على ضفاف البحيرة يشربون البيرة بنَهَم، وينظرون الى المراكب الشراعية، والى الجدافين، والى المراكب البخارية التي تقوم بجولات حول البحيرة، باعثة الفزع في مجموعات البطّ والتمّ. هم أيضاً حول قطع شطرنج ضخمة أو هم يجرون وراء اطفال يتسلقون حيوانات معدنية في الحديقة. وعند العودة نراهم متحلقين امام واجهات مغازات السلع الالكترونيّة كما في أيام اعياد المسيح.

بارت هاردي: بين عالمين (برلين ٩٥٤



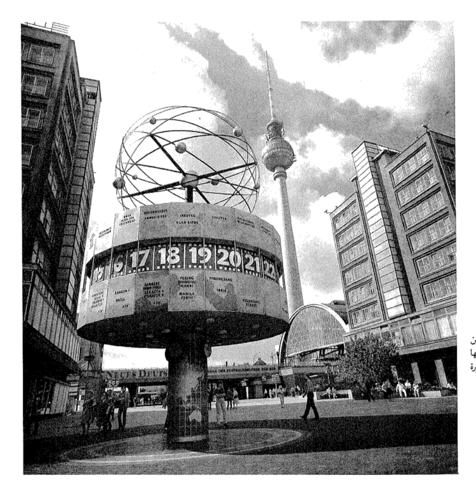
ثلاثة أحلام برلينية

كلاوس شليسنجر (كاتب من المانيا الشرقية)

-١-

ركبت الميترومتوجهـا الى عملي. كنت اتصوّر انـه سيمر بالمحطـات التي تعـوّد المـرور بها. غيرانـه وهـويقـترب من المحطة الأخيرة، انتبهت الى انه سيعبر الى الناحية الغربية تماماً مثلما كان يفعـل في المـاضي. ووصـل الميـترو الى المحطـة الحدودية. وصعد مراقبـو التـذاكـر ومـروا بين المقـاعد. جلست وتكمشت مذعوراً، ورحت انظر من خلال بلوّر العربة القذر وكان الأمر لا يعنيني. غير ان قلبي كان يدق بعنف الى درجة اني تصورت ان كل الذين كانوا حولي سمعوا دقاته. اذا ما طلب مني مراقب ما اوراقي وتذكرتي، فليس امامي سوى حل واحد وهو ان أنهض وأتبعه. ليس لدي أية وثيقة تُخوّل لي اجتياز الحدود. لست أدري العقاب الذي ينتظرني، غير اني أعلم أنـه سيطبع حياتي باكملهـا. وفي لحظـة ما، تحرك الميـترو. خف المي قليـلاً، وبـدأت أدخـل فضـاء يملأه ضوء بارد وقوى. نزلت في محطة حديقة الحيوانات. لم انتبه الى اي شيء من حولي: الان انا أبحث عن صديقي. وحل الانتظار محل الخوف. لم يكن باستطـاعتي العثـور على البيت الـذي يسكنه صديقي منذ هروبـه الى المنطقـة الغربية. شخص ما كنت رايته ذات مرّة جرّني الى سقيفة وهمس في أذني ناصحاً أياي بعدم مواصلة البحث لاني لن اعثر على صديقي وحتى على أمّه وطلبت منه ان يوضح لي ما يقصد بنصيحته تلك فأجابني بصوت معسول: «لانه يعمل في ماخور!».

ولاني لم اكن اتصوّر البتة شيئاً كهذا، فاني اندهشت ورحت العن الـراسـماليـة. وعنـدئـذ تعـرفت على الـرجـل الذي قدم لي نصيحته الثمينة وتذكرت انه كان سكرتيراً للحزب في المعمل الذي كنت اشتغل فيه. هل آواصل التحاور معه؟ غيرأن الرجل كان قد اختفى دون ان ينطق بكلمة.



ساحة الاسكندر في برلين الشرقية وتبدو فيها ساعة العالم الشهيرة

واشتـد خوفي. لست أدري كيف أعـود لاني لا أملك عملة المنطقـة الغـربية. وإذا ما عثرت على صديقي فانه سيدفع لي ثمن تذكرة الاياب، غير اني كنت يائسا من العثور عليه. وداهمني ذلك الشعور القديم يوم ضيعتني أمي في احدى المغازات الكبيرة.

-٢-

كنت في الطـابق الثـاني لمنزل ما وكنت أنظر من خلال النافذة الى الشـارع الـذي ولـدت فيـه. وبعيـداً هنـاك شاهـدت اللون الأزرق الشـاحب لمحطـة من محطات شال. كان الصمت عميقا. ويبـدو مهـدّداً اكثر مما هو مطمْئناً. وبـالفعـل، بعد وقت قصير، سمعت طائرات تُحلّق فوق الشارع الذي ولدت فيه. وبالرغم من سرعتهـا الخـارقـة ومن انها كانت تطير على مرتفع منخفض للغاية حتى انـه خيـل الى أنهـا تلامس الشرفات الرمادية للطوابق العليا فانّـه كان باستطـاعتي ان أعـدهـا. كانت خمس طائـرات. وكانت شبيهـة بطيـور الخطـاف. وفجأة تداخلت الطـائـرات الخمسـة وانفجـرت بين العـمارات. وهـا الشـارع الذي فيه ولدت يحترق. ومـذعوراً، وضعت يدي في جيوب سترتي وعندئذ انتبهت الى أنّي نسيت سجـائـري في المكتب. نظـرت الى المنزل الذي ولدت فيه وهو ينهار وأدركت أن الحرب بدأت من جديد.

-٣-

ذات صباح، صعدت الى مخزن بيتنا ولمّا فتحت كوّة النافذة التي تفتـح على السقف، وجـدت مدينة فوق المدينة. وظهر أناس من وراء الحـواجـز وراحـوا يتقـدمون مني مادّين الى أيديهم. وثمّة رجـل عجـوز ضخم الجثـة اخـذني من كتفي وسـاربي في طرقات شبيهة بالازقة.

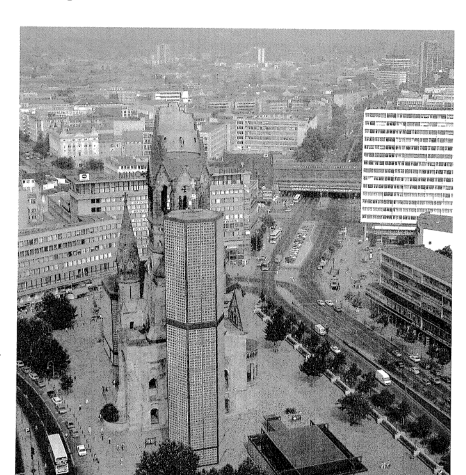
نحن نعيش هنـا، قال، واشـار الى أنـاس يلبسـون ثيـابا بائسـة، غير انهم كانـوا يبدون سعداء. وكانوا يشيرون اليّ داعينني الى شيء ما.

اقـتربت من حافـة السقف لكي أنظـر الى الارض غير ان الـرجـل الـذي كان يرافقني جذبني الى الخلف وهـو يصـرخ: هل تريد ان يكتشفوك؟

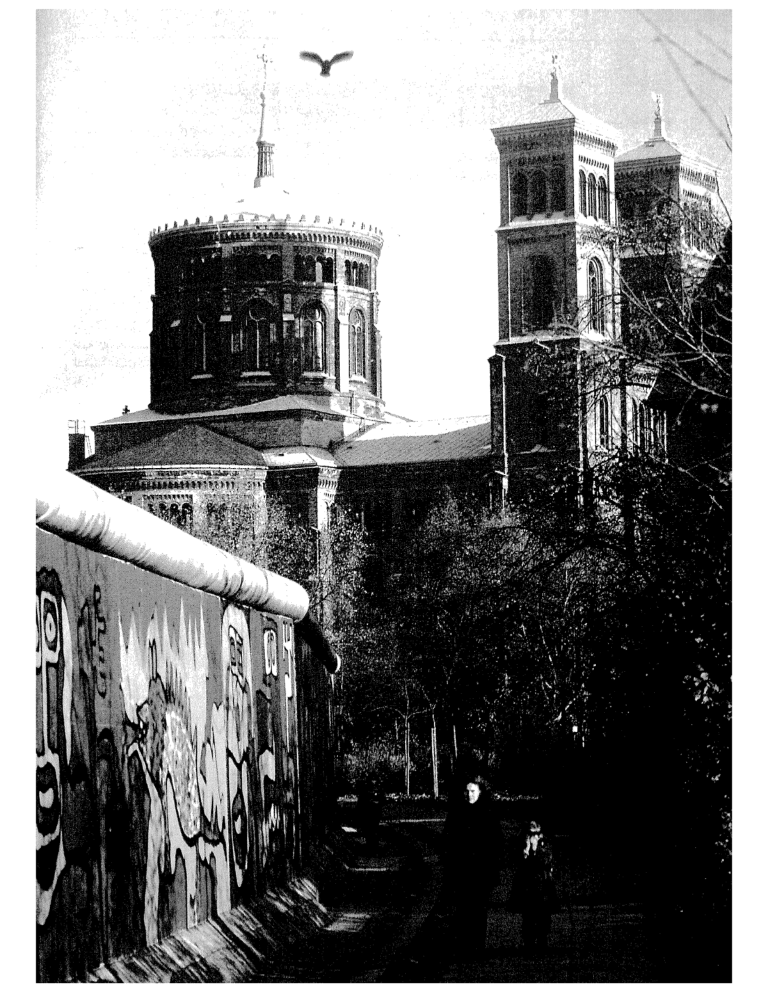
صديقي مارتن كان مستنداً الى المدخنة. ضربت يدي فوق رأسي وصـرخت: ماذا تفعل هنا؟ كنت اعتقد انك في الناحية الاخرى! حرك رأسه وقال مبتسماً: كلهم يعتقدون ذلك!

احمـر وجهي لمّا شعـرت انـه لايثق بي واني بالنسبـة اليـه مثل الاخـرين تمامـاً. قلت: لوكنت اعرف لكنت ذهبت معك! حرك رأسه من جديد وقال: هنا لا يأتي الا الذين لم يعد بامكانهم تحمل الحياة هناك في الاسفل. والى حد الان انت لم تصل الى مثل هذا الوضع.

وادركت عندئذ انه عليّ ان اصل حالاً الى مثل ذلك الوضع.

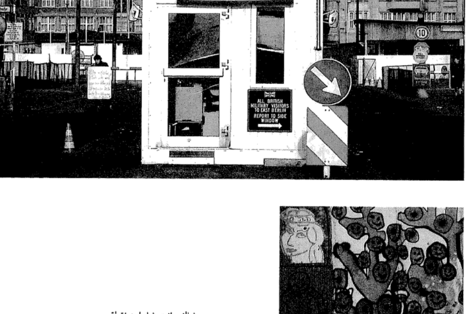


كنيسة برلين الغربية
وجادة «الكودام».









شاك بوانت شارلي: نقطة عبور
بين المدينتين - برلين الشرقية
وبرلين الغربية.





رسوم على جدار برلين.

اسمها يرنّ كما الجرس

فلاديمير نابوكف

برلين! في الأسم نفسه للعاصمة التي لاتزال مجهولة لديه، في ثقل وهدير الجزء الأول من الكلمة، وفي خفة الجزء الثاني منها، كان هناك شيء ما يثير مخيّلته تماماً مثلما هو الامر بالنسبة للاسماء الرومانطيقية للخمور الجيّدة وللنساء الفاسدات. كان يخيل اليه ان القطار السريع يعجّل السّير الان في الجادّة الشهيرة، المحاطة، كما يتصور بأشجار زيزفون ضخمة يعود الفضل في وفرة اوراقها الى اسم الجادّة الرنّان. وتحت اشجار الزيزفون كانت تتحرك جموع متلالئة (وكان ناقوس نادل المطعم يرن داعيا الحرفاء المتأخرين عن موعد الأكل) ويندفع القطار تحت جسر ضخم تزخرفه قطع صدفية. وبعيدا: وسط ضباب سحري، بطاقة بريدية أخرى تدور حول دعامتها مبرزة برجاً شفّافيّا وسط خلفيّة سوداء. ثم تختفي فجأة، ووسط مغازة كبيرة يتدفق فيها النور بين دمى مذهّبة، ومرايا صافية ومباسط بلوريّة، كان «فرانز» يروح ويجيء مرتديا جاكتة، وبنطلونا مضلّعاً، وحذاء أبيض، وباشارة ودية من يده كان يوجه الحرفاء الى الرفوف التي يرغبون في رؤيتها.

المدينة التي لا تبرأ من عللها

غونتر غراس

عندما قرّرت عام ١٩٥٣ الانتقال من المانيا الغربية إلى برلين، لم يكن في نيّتي فقط البحث لنفسي وأنا النحات عن استاذ قدير وهو «كارل هوتونغ»، وانما كان قراري يستند أساساً الى مبدأ: لقد كنت أريد ان أدير ظهري الى المعجزة الاقتصادية التي انفجرت فجأت في المانيا الغربية. وبرغم كل التحوّلات الاقتصادية والسياسية التي حدثت، فإن حكمي على برلين في تلك الفترة ظل هو نفسه الى حدّ هذا الوقت. ان هذه المدينة تعني بالنسبة لي المدينة التي ترفض ان تبرأ من عللها. انها الجرح المفتوح باستمرار ذلك انها تبرز كل التصدعات التي عرفها التاريخ الالماني. ويخيّل لي ان كل الازمات ذات الابعاد العالميّة، والتي يحيّرنا تنوّعها ويظللنا، متمركزة في برلين، وكما لو أن هذه المدينة تريد أن تظهر لنا انها مثاليّة من خلال تراكم المشاكل.

وربّما تكون هذه الصّراحة وهذه الوقاحة اللتان تبرز بهما برلين جراحها والتشويهات التي حدثت لها هما اللتان تبهران الفنّان وتشدانه اليها. احيانا أكون بحاجة الى مسافة ما. ويطوّح بي الاندفاع والحماس الى عوالم أخرى. غير أني سرعان ما أنتبه الى ان مواضيع كتبي حتى ولو انها بدت بعيدة وغريبة عن أجواء برلين، فانها تنتمي اليها. فلقد ولدت هناك. وهناك تم تنظيمها والتفكير في عناصرها وأفكارها. ان هذه المدينة تظل دائماً نقطة بداية هروب خيالي الى عوالم بعيدة وغريبة.

وعلى كل، فان برلين مكان جد مُرْبك. وكل الذين يريدون امتلاكه بسرعة، يجدونه منيعاً. ان الاحكام المتسرعة الشبيهة بـ «برلين مريضة، برلين تحتضر، برلين تموت!!!» لا يمكنها البتة ان تسبّب اي اذى لهذه المدينة المذمومة، ذلك ان أمراضها هي في نفس الوقت ينابيع حيويتها ثم ان الموت والتلف يطبعان فتنتها الهشة. اني اتكلم عن المدينة باكملها حتى وان كان الجدار، العاري والشرس، يحاول ان يقنع الناظر اليه بأنه مقام الى وقت طويل. غير انه مع ذلك لا يستطيع ان يمنعنا من ان نرى ان نصْفي المدينة يعيش كل واحد منها باتجاه الآخر.

خلال السبعينات، كنت من ضمن عدد قليل من الكتاب الذين تعوّدوا في ذلك الوقت على تنظيم لقاءاتهم في برلين الشرقية، دون حضور الجمهور، وذلك لتبادل الاراء وقراءة فصول

أو فقرات من اعمالهم الجديدة. وانا اندهش شديد الاندهاش عندما أدرك الان ان تلك اللقاءات التي استمرت أكثر من أربع سنوات ولا تزال الى حد هذا الوقت تؤثر بطريقتها الخاصة، لم تكتشف من طرف احد ماعدا أجهزة الأمن بطبيعة الحال، وظلت طول الوقت مخفية عن فضول الجمهور. وهذا دليل قاطع على ان الحياة الادبيّة في برلين تنشط في فضائين منفصلين ومختلفين أيضاً. فضاء ينتج فيه المبدعون والفنانون في صمت ووحدة. وآخر تسيطر عليه الصّناعة الادبية التي تنشط بحيوية كبيرة حتى في غياب الكتاب والمبدعين.

إن الكتب التي تظهر في برلين تحمل جراح وندوب مدينة تعوّدت على الالم. ومثل كل الاماكن التي يحج اليها الناس، فان برلين مكان ملائم للمبالغات الهستيريّة. وهي الوحيدة التي تجعلنا نأمل في حدوث معجزة ما. ولو لم تكن برلين موجودة، لكنا اخترعناها.

حين تحطّ الطائرة في مطار برلين

بيتر شنايدر

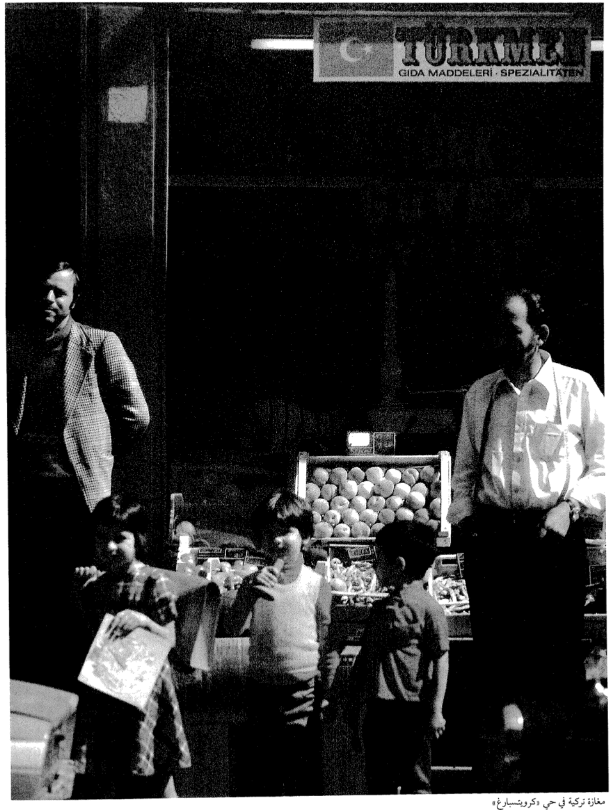
طقس برلين تُهيمن عليه دائما الرياح الغربيّة. والمسافر الذي يأتي بالطائرة له ما يكفي من الوقت لكي يتأمل المدينة من فوق. وقبل ان تحط الطائرة القادمة من الغرب، يجب عليها ان تجتاز المدينة ثلاث مرات. وهي تطير في البداية باتجاه الشرق، وعندئذ يمكنها ان تصل الى سماء برلين الغربية. وبعد ذلك ترسم خطا منحنيا وعريضا باتجاه اليسار وتمرّ فوق الناحية الشرقية من المدينة. ومن جديد، وهي قادمة من الشرق، تمرّ للمرة الثالثة فوق المدينة وفوق الحائط الذي يفصل نصفيها. وتبدو المدينة من الطائرة كما لو انها مدينة واحدة. واذا لم يكن المسافر عارفاً بالاماكن، فانه لايتصوّر البتّة انه يقترب من منطقة تتجابه فيها قارتان.

وما يلفت الانتباه بقوة هو هذا النظام الخطّي، وهذه الزاوية المستقيمة حيث لايوجد أي خط منحن. وفي وسط المدينة يمكننا ان نلاحظ ان كل العمارات السكنية مبنيّة كما لو أنها قلاع. واغلبها تبدو كما لو أنها مربّعات ضخمة في وسطها ساحة داخلية تنتصب فيها شجرة كستناء. وعندما تتحرك اغصان هذه الشجرة قليلاً، يمكن للساكن في العمارة ان يدرك ان هناك عاصفة وان قوة الريح هي بين الست والثمانية عقد. وبلغة البرلينيين، تسمى العمارات المذكورة ثكنات للسكن. وهذا التعبير يجسد جيّدا الطريقة التي صمّم بها المعماريون تلك العمارات. أما انتصاب المداخن فانه يذكر بتلك القطع البلوريّة التي توضع فوق جدران الساحات الداخلية لقطع الطريق على القطط وعلى اطفال الجيران.

وتبدو المنازل الجديدة في ضواحي المدينة كما لو انها لم تبن من اسفل الى تحت. انها شبيهة بكتل من الاسمنت اسقطتها هيلوكوبترات امريكية اوسوفياتية. وعندما تبدأ الطائرة في الهبوط لايتمكن الزائر الغريب من التفريق بين نصفي المدينة. واذا ما تامل المناظر الطبيعية المحيطة بالمدينة، فانه لايرى اي لون سياسي لها. بل ان كل شيء، المباني الادارية، ومحطة التلفزيون، وقاعة المؤتمرات، وحديقة الحيوانات، والملعب الرياضي، والفندق الرئيسي للمدينة، وغيرذلك من الاشياء، تعطي للزائر الغريب دليلاً على انه يقترب من مدينة موحدة ولاتعاني من أي انقسام ولا من أي صراع.

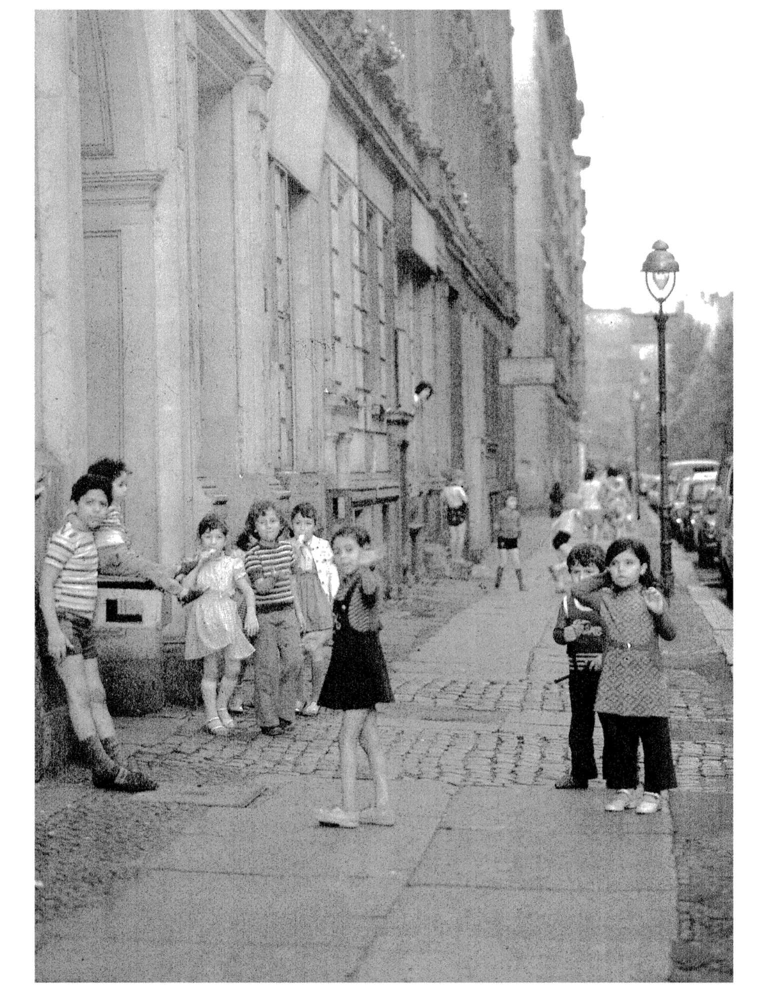
وبين كل هذه الزوايا المستقيمة، يبدو الجدار كما لو انه وحش صاغه خيال فوضوي. ومضاء بشمس الظهيرة، وبالكشافات ليلاً، يلوح كما لو انه عمل معماري فني وليس خطا حدودياً.

وعندما يكون الطقس جميلا، يمكن للمسافر ان يشاهد ظل الطائرة وهو يتسرب من هذا النصف الى ذاك ويظل الأمر هكذا حتى تلامس الطائرة الأرض. وعندئذ ينتبه المسافر الى ان الظل هو وحده القادر على ان يتحرك بحرية بين شطري المدينة وتبدو له الطائرة عندئذ كما انها وسيلة من وسائل النقل التي تخيّلها اينشتاين والتي خرج منها مسافرون صغار وغير مبالين بطريقة مضحكة لكي يزوروا مدينة مرّ عليها منذ أمس فقط الف عام!



مغازة تركية في حي «كرويتسبارغ»

طفل تركي في حي «كرويتسبارغ»


L

بحثا عن محمد علي الحامي[1] في برلين

حسونة المصباحي

بدايات الخريف الشمالي : الأشجار تتعرّى ببطء . الأوراق الصفراء والسّمراء تغطي الأرض والأرصفة . رياح خفيفة تداعب هامات الغابات المذهبة . نهر «السبري» يتدفق هادئاً ومتعبا . لا شيء على ضفتيه غير عجائز وشيوخ يتمتعون بجمال الخريف، وبدفء شمس تظهر حينا، وتختفي حينا آخر وراء كتل من السّحب المتفرقة . يدخل الباص البرتقالي ذو الطابقين جادّة «الكودام» الشهيرة، ويسير متمهلا بين أشجار الزيزفون . برلين! آه برلين! يرن اسمها في أذني كما نواقيس الأطفال أيام الأعياد، ثم تلج جسدي نغما مفعما بأحاسيس ومشاعر غريبة . طويلا تردّدت قبل ان أقرّر زيارتها، وذلك بالرغم من أني أقيم غير بعيد عنها منذ اكثر من عامين . ثمة شيء كان يحول بيني وبينها . ودائما كنت احس أنه علي ان أستعد استعدادا خاصاً قبل ان ادخلها . بعض الاصدقاء في ميونيخ كانوا يقولون لي : «لا تذهب الى برلين!» وعندما أسألهم عن السبب كانوا يبتسمون ويقولون لي : اذا ذهبت الى برلين فلن تعود منها . انها مدينة فاتنة ومجنونة تستبد بعشاق الليل امثالك!» وكنت أدرك جيّداً معنى ما يقولون . ولذا فاني حين بدأت أهيىء رحلتي اليها، شعرت أني سأذهب الى مدينة تختلف عن كل ما رأيت من المدن الاوربية . مدينة تحمل جراح التاريخ الألماني والاوروبي في آن، «ولاتبرأ من عللها» على حدّ تعبير الكاتب الالماني غونتر غراس . مدينة تتجسد فيها أخطر الصراعات وأعنف التناقضات التي يشهدها هذا العصر . مدينة الجنون والفانتازيا والحب والحقد على حد السّواء! «سدوم القرن العشرين» أو «الفاجرة الكبيرة» كما يسمّيها كلاوس مان ابن الكاتب الشهير توماس مان .

أدخل برلين بحثا عن أوجاع وهموم غربة قديمة . غربة مثقف من قرية بائسة في الجنوب التونسي قادته الدروب الى برلين في نهايات الحرب العالمية الاولى . ولست أدري لماذا اتجه الى هناك في فترة كان فيها أغلب المثقفين المغاربة والعرب يتجهون صوب باريس ولندن وأمريكا . ولن أبحث في هذا الأمر ذلك اني أعلم ان رحلات المغامرين الكبار لا منطق لها ولا تفسير . انها التيه الرائع والشامل . هكذا كانت رحلات اوليس، والسندباد، وابن بطوطة، وماجلان، وكريستوف كولومبس وغيرهم كثيرون . اسمه محمد علي الحامّي . اسم حفظناه ونحن صبيان مع النشيد الوطني ومع اسماء أخرى لرجال افذاذ «ماتوا شهداء من أجل حرية وطننا» . هكذا كان يقول لنا معلمو الابتدائية . اتذكر قريته «الحامّة» هناك قرب قابس . واحات نخيل . عيون ماء ساخنة يأتيها المصابون بالروماتيزم . ذباب . غبار وقلق تكاد تسمع صريره وهو يأكل الوقت . نساء سمراوات في ملاءات سوء يطللن من خلف الابواب بين وقت وآخر . شيوخ جالسون أمام الدكاكين أو في ساحة السوق . احمرة وبغال مشدودة الى أعمدة خشبية . وغير بعيد من هناك تمتد الصحراء موحشة وفارغة . أمضيت ساعات طويلة وأنا أبحث عن أثر له . غير أني لم أعثر سوى على صورة له مغبرة ومتآكلة الاطراف، معلقة في مكتب اتحاد النقابات هناك . سألت شيوخا عنه فقالوا لي أنهم يعرفون بعض أفراد عائلته، أما هو فلا يعلمون عنه شيئاً . الحّ في اسئلتي غير أنهم يزيدون ايغالا في الصمت . أبتعد . الولد الأسمر النحيل انطلق من قريته البائسة والمعزولة قبل ان يدرك سن المراهقة . التحق بأخيه الاكبر الذي كان يعيش في العاصمة ليكسب قوته كما هي عادة أغلب أبناء «الحامّة» . وحال وصوله اشتغل خادماً في بيت القنصل النمساوي . وربّما يكون قد اكتشف هناك وهو يتأمل سيدات ورجالات اوروبا المتمدّنة أنه عليه ان يوغل بعيداً في المغامرة لفهم تلك الفكرة التي استحوذت عليه وهو لا يزال في سن الشباب المبكر : كيف تتحرر الشعوب وكيف تتطوّر الأمم؟ نفس الفكرة التي كانت شغلت المصلح التونسي الكبير الوزير خير الدين باشا التونسي والتي عالجها في كتابه «أقوم المسالك في تحرير الممالك» . غير انه مضى دون ان يتمكن من تحقيق حتى القليل مما كان يدعو اليه . وتقول الاخبار أنه رحل من تونس يائساً، وأنه لمّا ركب الباخرة التي نقلته الى الاستانة، سقط طربوشه فقال كلمته الشهيرة : «هذه البلاد سوف تأكل أعز أبنائها!» . ولم يكن محمد علي في مقام الوزير خير الدين . كما انه لم يكن مطلعا مثله على أساليب التمدّن وعلى أسرار الحكم . بل أنه كان ريفيّاً عديم التجربة، غير انه كان يتمتع بفطنة ساعدته على التنصت الى حركة المجتمع، وعلى السعي الى فهم ما كان يدور حوله من أحداث . وهذا ما دفعه وهو الخادم البسيط في بيت القنصل النمساوي الى الالتحام بالحركات الوطنية وبالمنظمات الاصلاحية التي كانت تنشط في تلك الفترة . كانت تونس خلال بدايات القرن تعيش يقظة على جميع المستويات .

المصلح الكبير محمد عبده يزور تونس ويلقي محاضرات في النوادي الثقافية يكون لها تأثير كبير على النخبة التونسية . طلبة جامع الزيتونة يتظاهرون في ربيع ١٩١٠ مطالبين بتجديد أساليب الدراسة وبادخال العلوم الحديثة الى مناهج التدريس . جماعة «تونس الفتاة» بقيادة زعيمهم المستنير علي باش جانبه يؤسسون النوادي الثقافية في العاصمة ، ويخطبون في التجمعات الطلابية محرضين على الاستنارة وعلى ضرورة الاستفادة من التمدّن الأوروبي . مظاهرات صاخبة عام ١٩١١ هذ التجنيس وضد أساليب التفرقة التي كانت تنتهجها السلطات الاستعمارية الفرنسية بين العمال الأوروبيين والعمال التونسيين وتلك القصيدة الشعبية التي كان يردّدها الناس (٢) :

اخدم وتحزم بشريط حل الصّرة تلقى خيط



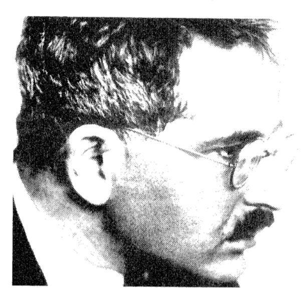
غوتفريد بن

اخدم حتى لين تموت يا باب الله : تنال القوت

ثم يهاجم الطليان ليبيا ، فيتدفّق المتطوّعون التونسيون لمناصرة اخوتهم هناك . وتزغرد نساء الجنوب السمراوات وهن يسمعن طلقات الدغباجي (٣) في جبال عرباطة (٤) الجرداء . ويمضي رجال الى الموت منشدين :

خمسه اللّي لحقوا بالجرّة مِلْك الموت يرّاجي
لحْقوا مُولي العركهْ المرّة المشهور الدغباجي (٥)

ويترك محمد علي بيت القنصل النمساوي ، ويرحل عبر الصحراء الى طرابلس . هل قاتل هناك؟ لا احد يدري . هل كانت مهمته تقتصر على الاتصال ببعض زعماء المقاومة؟ لا أحد يدري أيضاً . انها الخطوات الاولى في طريق المغامرة الطويلة والشاقة . ومن الاكيد ان محمد علي لما خرج من تونس ، كان مدركاً لأشياء كثيرة ، وكان مطلعاً اطلاعاً جيّداً على الاحداث السياسية . بل انه ربّما شعر وهو يشق صحراء الجنوب باتجاه طرابلس انه لابدّ أن يفعل شيئاً ما لذلك الوطن الذي تركه خلفه . ثم شوهد محمد علي عام ١٩١٢ في اسطنبول التي أقام فيها حتى نهايات الحرب العالمية الاولى . كيف عاش هناك؟ الأخبار بشأن هذا الموضوع مضطربة الى حد كبير . البعض يقول انه التحق بالجيش العثماني وعاش متنقلاً بين الثكنات العسكرية . والبعض الاخر يقول أنه كان السائق الخاص لأنور باشا وزير الحربية في الحكومة الثلاثية لحزب الاتحاد والترقي (طلعت ـ أنور ـ جمال) . وآخرون يشيعون أنه ساهم مع رجالات تونس المهاجرين والمنفيين في التعريف بالقضية الوطنية التونسية ، وفي كشف جرائم السلطات الاستعمارية الفرنسية في كل من تونس والجزائر والمغرب . لكن المهم هو ان محمد علي عاش في اسطنبول في فترة كانت تشهد أحداثاً تاريخية لم يسبق لها مثيل : امبراطورية «الرجل المريض»



فالتر بنيامين

تحتضر ، والقوى الامبريالية الكبيرة تتحارب بضراوة لتتقاسم النفوذ في العالم ، والعالم العربي الاسلامي ينهض ببطء ويستعد لدخول مرحلة جديدة في تاريخه . ومن الاكيد ان ذلك الشاب النحيل أدرك بفطنته الريفية ان آخر الامبراطوريات الاسلامية تندفع نحو الهاوية ، وأنه عليه ان يرحل باتجاه اوروبا ليزداد ادراكاً ووعياً بمعنى ماكان يدور حوله . وهكذا دخل برلين ونار الحرب لّما تزل مشتعلة ، بينما في بلاد القياصرة المترامية الاطراف ارتفعت الاعلام الحمراء ، وأعلن البلاشفة عن تكوين اول جمهورية «للعمال والفلاحين» .

برلين! اتصوّره يدخلها في بدايات شتاء بارد ، بعد رحلة طويلة قطع خلالها بلاد البلقان . آثار وروائح الحرب في كل مكان . شوارع يتكدس فيها العاطلون والمشوّهون والارامل والاطفال والمهاجرون والجنود المهزومون العائدون من جبهات القتال . يمشي فيها مرتبكا كعادة كل الريفيين في المدن الكبيرة . وتبدو له برلين في البداية شبيهة ب «ثكنة عسكرية باردة وبشعة» ،

ويبدو له البروسيون بغطرستهم «كما لو ان كل واحد منهم قد ابتلع الهراوة التي أشبع بها ضربا ذات مرّة». وسرعان ما تفوح رائحة الهزيمة في كل مكان. ويتهاوى الحلم البروسي مثلما يتهاوى فجأة الحصان الجامح. وها الفتى النحيل يسير في شوارع برلين ملتفا بمعطف سميك، منتبها الى مايدور حوله، مصغيا الى انات ضحايا الحرب، مدركاً ان مغامرته التي بدأت منذ سنوات أخذت منعرجا جديداً وهو هناك في قلب اوروبا المتمدّنة والقوية. ووسط ذلك الجوّ القاتم، تشن تلك المناضلة الاشتراكية العرجاء التي تسمى روزا لكسمبورغ معركة عنيفة ضد البورجوازيين وضد جنرلات الحرب البروسيين. وتؤسس حركة «السبارتاكوس» وتدعو من خلالها الى ضرورة اقامة «جمهورية العمال». غير ان اعدائها لا يمهلونها. وذات ليلة يداهم الجنود البيت الذي كانت تختفي فيه، . ويأخذونها صحبة رفيقها «كارل ليبنخت» إلى «فندق عدن» الفاخر. وهناك ينكلان بهما على مرأى ومسمع من « النزلاء وهم في بدلات السموكينغ الانيقة». وبعد ذلك يفجرون رأس كارل ليبنخت، ويسحلون روز الكسمبورغ ويسحبونها على الارض وهي نصف ميّتة. وداخل عربة عسكرية يفجرّون رأسها برصاصة ثم يلقون بجثتها في نهر «السبري». هل تعرف محمد علي الحامي على روز الكسمبورغ قبل قتلها؟ البعض يشيع ذلك. غير انه ليس هناك أي دليل مقنع بخصوص هذا الموضوع. ومع ذلك فان الثابت هو ان محمد علي الحامي تابع باهتمام ما حدث لقادة حركة «السبارتاكوس»، وربما يكون قد تأثر بشيء من أفكارهم. وهو ما ستؤكده الاحداث فيما بعد. ومن الثابت أيضاً أنه كان على اتصال بالحركات السياسية والنقابية، وبمناضلين اشتراكيين وديمقراطيين، وبمهاجرين مثله. كما انه كان يتردد باستمرار على «النادي الشرقي» ببرلين الذي كان يرأسه المناضل العربي الكبير شكيب ارسلان. ومع ذلك تبقى المعلومات قليلة بخصوص الستة أعوام التي اقامها محمد على الحامي في برلين. والذين لازموه أثر عودته الى تونس وخاصة صديقه وابن قريته المصلح الطاهر الحداد (٦) لايقولون شيئا كثيراً بخصوص هذه المسألة. غير أنهم يؤكدون أنه حصل هناك على شهادة دكتوراة في الاقتصاد. هل هذا صحيح؟ الغموض يحيط بالفتى الجنوبي حتى النهاية. والواضح أنه انتسب فعلا الى جامعة «هامبولت» الحرة في برلين. ورئيس هذه الجامعة المذكورة يقول في وثيقة نشرت في كتاب عن حياة محمد علي الحامي صدر عام ١٩٨٥ (٧) أنه «لاتوجد شهادة علميّة تحمل اسم الشخص المعني بالأمر. الا أن اوراق الارشيف تؤكد ان محمد على الحامي كان مرسما بكلية الفلسفة (فرع الاقتصاد) وانه وقع فسخ ترسيمه لعدم مثابرته» ومع ذلك فان كل شيء يشير الى أن الفترة التي عاشها محمد على الحامي في برلين كانت من أخصب فترات حياته، اذ أنه تعلّم خلالها أشياء كثيرة. واحتك بالناس، وزداد معرفة بالحياة وبالتاريخ، وأيضاً بأحوال الأمم والشعوب.

الساعة الثالثة ظهراً. أمشي في جادّة «الكودام» مستمتعا بالهواء البرليني العليل، وبخشخشة الأوراق الميتة تحت الاقدام. آه ما أروع الخريف في المدن التي نحبّ! أجلس على مقعد خشبي في احدى الساحات الصغيرة، وأتخيل محمد علي الحامي يأتي الي في معطفه الرمادي الطويل ويحتضنني. ثم يأخذني عبر الشوارع التي سار فيها، والاماكن التي تردد عليها، والمقاهي التي جلس فيها، ويحدثني عن همومه، وعن أفكاره وعن النساء اللائي دفّأن فراشه، فراش المغترب، وعن الرجال الذين تقاسم معهم الآم الغربة ومصاعبها. انتظر. لكن لاشيء غير صورته المغبرة والمتآكلة التي رأيتها معلقة في مكتب اتحاد النقابات هناك في قريته البعيدة. انظر حولي فانتبه الى أني جالس في ساحة تحمل اسم الرسام الشهير «غيورغ غورس» الذي رسم الحياة اليومية لبرلين العشرينات. اعاود السير، ويتيه خيالي في عوالم تلك المرحلة الرائعة من تاريخ برلين.



محمد علي الحامي في شقته في برلين

ابتداء من عام ١٩١٠، بدأت برلين تشهد نشاطا ثقافياً وفنيا لا مثيل له. وكل ذلك كان يدور في الكاباريهات وفي مقاهي عديدة اشهرها مقهى « Café Größenwahn » أي مقهى «هذيان العظمة» نظرا للمشاريع المجنونة وللاحلام الفنية والادبية التي ولدت فيها. وكان يؤمها بوهيميون، وهامشيون ورسّامون، وممثلون، وشعراء. وفيها ولدت الحركة «التعبيرية» الشهيرة. غير ان هذا النشاط الفني والثقافي الرائع سرعان ما توقف خلال سنوات الحرب، أو انه بالاحرى ظل ينمو في العتمة، وفي الشوارع الخلفية لمدينة برلين بعيدا عن دوي المدافع، وعن غطرسة الجنرالات البروسيين القساة. وما ان خمدت نيران الحرب، حتى عاد اولئك البوهيميون والفنانون والشعراء الى ممارسة «هذيانهم» في المقاهي والكاباريهات غير مبالين بشيء. ولان برلين تتمتع بقدرة على التحدّي لا تتمتع بها مدينة اوروبية اخرى، فانها سرعان ما نست فواجع الحرب والامها، وارتمت نهمة وعطشى في بحر اللذات. وفي فترة قصيرة،

حول فنانون وكتاب من امثال «لودفيك كيرخنار» و«برتولد برخت» و«تيخولسكي» و«هاينريش مان» وغيرهم، مدينة برلين الى عاصمة ثقافية لاوروبا بأسرها، يؤمها الفنانون الطليعيون والثوريون من كل مكان.

كانت برلين خلال العشرينات تجوع وتتألم. وكانت بناياتها رمادية، وشوارعها قذرة وبشعة غير انها مع ذلك كانت ترقص وتغني حتى الصباح، وتستمتع بمسرحيات «ستراندبارغ» و«ابسن» و«ماكس راينهارد» وبأشعار «برتولد برخت» الحماسية، وبقصائد وكتابات «غوتفريد بن» الموغلة في اليأس والتشاؤم، وبمقالات «تيخولسكي» العنيفة والساخرة، وبلوحات الرسامين التعبيريين من امثال «ادوارد مونش» و«كوكوشكا» و«شاغال» وغيرهم. وكان ثمّة شاب بنظارة، وبشعر غزير، وبشارب كث يتجول في شوارعها وفي مكتباتها، ويسجل في دفاتره ملاحظات كثيرة تكون في مرحلة لاحقة، الاساس لاعمال فكرية ونقدية وفلسفية متميزة. هذا الشاب كان يدعى «فالتربنيامين».

وفي تلك الفترة أيضاً كانت برلين متعددة. كانت هناك الف «برلين» كما يحلو للبعض أن يقول: برلين الحمراء» أي برلين الفقراء والعمال والبروليتاريا الرثة الذين يسكنون احياء «فيدينغ» و«كرويتسبارغ، و«برلين تيرغارتن» البورجوازية، «وبرلين غرينفالد» الارستقراطية، وبرلين المهاجرين الروس، وبرلين الشعراء الشوريين السوفيات من أمثال «ليسيتسكي» و«ماياكوفسكي» و«ايسنين» و«بابلي». وكانت هناك أيضا برلين الشيوعية وبرلين التي تهيىء نفسها للانتقام من الذين هزموا جيوشها، وحطموا أحلام جنرالاتها.

ولعل أروع رواية صورت تلك الفترة هي رواية «الفريد دوبلن» الشهيرة برلين - ساحة الاسكندر». وهي رواية ضخمة ومليئة بالتفاصيل مثل رواية «عوليس» لجيمس جويس، وابطالها عاطلون وهامشيون، وعاهرات، وعازفو الأرغن والذين كانوا يهيمون في الشوارع، ويتنقلون بين البارات القذرة، وينامون في ملاجىء شارع «فروبيل» الليلية. وكل هذه العوالم الجحيمية والبائسة يصفها لنا «دوبلن» من خلال شخصية سجين قديم اسمه «فرانز بيباركوف» شبيه الى حد بعيد بسعيد مهران بطل رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ.

هل تأثر محمد علي الحامي بعوالم برلين خلال العشرينات؟ هذا مؤكد خاصة وأن جل الوثائق تثبت أنه كان يتقن الالمانية والفرنسية لكن المرجح هو ان محمد علي قد اهتم بالاحداث السياسية والنقابية، وبالاحزاب الاشتراكية وغيرها اكثر مما اهتم بأي شيىء آخر. وواضح جداً ان الفكرة الاساسية التي كانت تشغل ذهنه طول الوقت هي: ماذا يمكنه أن يفعل لذلك الوطن الذي رحل عنه منذ سنوات طويلة؟

أين سكن في برلين؟ يحلولي أن أتخيل دائماً. وأراه يسكن شقة صغيرة في حي «كرويتسبارغ» العمالي حيث المهاجرون والمحرضون السياسيون والنوادي الاشتراكية، والمثقفون التقدميون والثوريون.

في الساعة العاشرة ليلاً أركب الباص رقم ٢٩ وأتوجه الى حي «كرويتسبارغ». انزل في احدى الساحات. لا احد غير بعض السكارى. اتمشى على مهل. الشوارع فارغة اوتكاد. يعترضني رجل ضخم يدب ثقيلاً ويسعل في كل خطوة تقريبا. اسأله عن اهم الاماكن في الحي، فيجيبني دون أن يلتفت الي « اذهب في أي اتجاه وسوف تجدها!» أسير لمدة عشرين دقيقة، وأجد نفسي في شارع به مطاعم ومقاهي كثيرة. أدخل واحدة اسمها مقهى «القاهرة». أجلس هناك اكثر من نصف ساعة، ثم أسأل النادل اللبناني عن سبب فراغ الحي فيقول لي مبتسما «لقد اتيته مبكراً. اذا اردت الاستمتاع باجوائه الجميلة فتعالى اليه عند منتصف الليل أوبعده بقليل» اركب الباص ٢٩ من جديد، وأعود الى الفندق. أحاول ان انام. غيراني لا أستطيع برغم التعب: اقلب صحفاً وأوراقا. اطفىء النور انتظر. لا يأتي النوم. أخرج الى المدينة من جديد. آقف امام قاعة سينما. فيلم «اللامرتشون»، بطولة «روبرت دي نيرو» و«شين كونري». لا أتردد في الدخول. الفيلم جميل وهويروي قصة المافيا الايطالية في شيكاغو خلال الثلاثينات. ويصفق الجمهور اكثر من مرة اعجابا ببعض اللقطات حتى أني تخيلت نفسي في قاعة «ستوديو ٣٨» في جادة الحبيب بورقيبه بالعاصمة التونسية (قاعة تعرض افلام الوسترن والكارتي. والمغامرات البوليسية). بعد ان ينتهي الفيلم، اتمشى في جادة «الكودام» فأجده مزدحماً كما في الخامسة ظهراً!

في ربيع عام ١٩٢٤، يترك محمد علي الحامي برلين تعيش عوالمها الوردية، غير مبالية بما كان يترصدها من فواجع واخطار، ويعود الى الوطن بعد ثلاثة عشر سنة من الغياب. ومن المؤكد أنه شعر بضرورة ذلك خاصة وان التجارب والمحن التي عرفها أثناء سنوات الترحال والاغتراب تخول له ان يشرع في انجاز ما كان وعد به وطنه وهو يجتاز الصحراء باتجاه طرابلس.

ويصل محمد علي الحامي الى تونس فيجدها تعيش اياما عصيبة، وظروفا قاسية: مجاعات، وقمع، وتشتت في صفوف الحركة الوطنية، ويأس تام من تلك الوعود التي لوحت بها السلطات الاستعمارية خلال الحرب وبعدها. وكان المناضل الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي صاحب كتاب «تونس الشهيدة» يجول في بلاد الشرق، ويتصل بالزعماء الوطنيين، وبرجالات الحكم في مصر وفلسطين والحجاز والعراق. وكان هناك مناضلون آخرون في المنافي. ومن تبقى منهم صامت خوفا من القمع. وهناك في قلب المدينة العتيقة، وعلى مسافة قريبة من جامع الزيتونة، فتية هامشيون يجتمعون في مقهى شعبي يسمى مقهى «تحت السور». وكانوا يعربدون ويسخرون من الدنيا والناس، ويكتبون وسط دخان السجائر وضجيج الزبائن قصائد وأغاني، ومقالات ساخرة، وقصصا قصيرة مستوحاة من أجواء «غي دي موبسان» وكان من بين هؤلاء محمد العريبي البودليري المتشائم، وعلي الدوعاجي القصير واللاذع اللسان، وعبد الرزاق كرباكة المتشبع بالثقافة الشعبية وآخرون كان لهم دور كبير في تطوير الثقافة التونسية

الحديثة. وكان الشابي يصرخ ملتاعا ويائساً:

ألا ايها الظالم المستبدّ حبيب الظلام، عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
وسربت تشوه سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه!

وفي المساءات كان يهيم في حدائق البلفدير للتخفيف من الام مرض القلب الذي كان يعاني منه. وكان هناك رجل طريف يدعى علي الجندوبي يجول في المدينة كل يوم حاملا قفة ضخمة بها المقال اليتيم الذي نشرته له احدى الصحف التونسية. وثمة فتى أسمر ونحيل، من نفس منطقة محمد علي الحامي، يدعى الطاهر الحداد كان ينادي بضرورة تحرير المرأة، متحدياً سلطة فقهاء جامع الزيتونة الذين لم يترددوا في تكفيره وفي المطالبة برجمه. وحالما يصل محمد علي الى تونس يتخذه رفيقا له في دعوته الجديدة. ومعه يجول المدن والقرى والمداشر سعيا لتأسيس أوّل اتحاد نقابي للعمّال والحرفيين التونسيين.

اكتسب محمد علي الحامي خلال اقامته في برلين تجربة نضالية مهمة، وقدرة فائقة على التنظيم والتخطيط. ولانه عمل كما تؤكد ذلك بعض الوثائق، في احدى المعامل الكبرى للسيارات، فانه قد يكون اطلع على برامج النقابات والمنظمات العمالية، وتمرّس بتجاربها في النضال، وادرك ان المجتمع اذا لم تتضامن فيه قواه الحيّة لا يمكن ان يتحرّر. وهكذا وحالما حطّ الرحال شرع في تنفيذ فكرته.

كان اسمه «العم حمدة». كان دائما في كسوته الزرقاء. ولاتكاد سيجارة «الارتي» تفارق فمه. كنا نجلس في ذلك المقهى المعتم هناك قرب ميناء بنزرت. وكان يحدثني عن أيام قديمة، وعن ذكريات شبابه، وعن استشهاد احد أبنائه في معركة بنزرت. آه! كم كانت جميلة تلك الأيام! كنت التهم الكتب، واتردد على صيادي الاسماك، والعب الورق مع الجنود، وأعاكس النساء في السوق المركزي، وبنات المعهد في مكتبة المدينة. كنت سعيدا برغم البطالة. وكان العم حمدة يقول لي دائماً «خذ هذه السيجارة وسيفرجها الله في يوم من الأيام!». وذات مرة اخذني الى بيته هناك في «حي الاندلس». أجلسني في الصالة الصغيرة، المتواضعة الاثاث وأتاني بكاس شاي. انتبهت الى أنه يعلق صورة كبيرة لمحمد علي الحامي. ولما رآني احدّق فيها قال لي «اتعلم اني أحب هذا الرجل تماماً مثلما احب ابي أو ابني الذي مات. مازلت اذكر الى حدّ الان يوم جاءنا الى بنزرت. كنت إذ ذاك في الثانية عشر تقريبا، وكنت اصاحب ابي من حين لآخر الى الميناء لانه كان يعمل عتالاً. وذلك اليوم جاءنا رجال وخطب فينا فتى نحيل وهادىء. لم أفهم ما قاله فانا كنت صبيا ساذجا في ذلك الوقت، غير أني ادركت ان أبي وجميع العتالين استحسنوا ما قال وصفقوا أكثر من مرّة. ومن الغد تظاهر العتالون في شوارع بنزرت. وأطلق الجندرمة الرصاص. وسقط خمسة أوستة. لا أذكر. ولمّا كبرت، وأنضويت الى النقابة انتبهت الى ان ذلك الفتى الأسمر والنحيل هو محمد علي الحامي».

ومثلما روى «العم حمدة» فان محمد علي الحامي راح يطوف البلاد من اقصاها الى أدناها مرفوقا بالقليل من انصاره، ناشراً دعوته بصوت واثق وهادىء، وبصبر لا يتمتع به الا من تمرس بالحياة. ونحن نجده مع عتالي بنزرت، ومع العمال الزراعيين في غار الملح وماطر، ومع عمال الرصيف في تونس العاصمة، ومع أهالي زغوان. ولعل أهمّ ما قام به أثناء جولاته تلك هو اتصاله بعمال مناجم الفوسفاط في منطقة المتلوي بالجنوب التونسي، والذين كانوا يعيشون أوضاعاً قاسية تتجاوز الى حد بعيد تلك التي وصفها لنا «أميل زولا» في روايته الشهيرة «جرمينال». ويروي الطاهر الحدّاد أن محمد علي كان يتأثر شديد التأثر بمناظر البؤس والفاقة. وانه كان يتحدث كثيراً في جلساته عن مشاهد الجوع التي رآها في مناطق الجنوب التونسي، وعن قوافل البدو المتجهة الى



فتاة من «البنك» في برلين.

المدن بحثا عن القوت بعد ان اكلت الجوائح المتوالية مزارعهم وأنعامهم. ويروي أيضاً انه كان يطوف معه في العاصمة في ليالي الشتاء الباردة. وأنه كان يحزن شديد الحزن حين يرى أناسا وأطفالا دون سن الرشد ينامون على الارض أو في مداخل البنايات والذين عاشوا تلك الفترة يقولون ان محمد علي كان يتمتع بذكاء حاد، وبقدرة فائقة على التنظيم والاقناع. وكان رصينا، ومسالما، وفالحا في مخاطبة البسطاء من الناس، وفي ارشادهم وتوعيتهم. الى جانب هذا كله يذكر الحدّاد ان محمد علي كان شغوفاً بالموسيقى الكلاسيكية الالمانية الى حد بعيد، وأنه حريص على الاستماع اليها اثناء السهرات. وكان يحرض أصدقاءه على ان يفعلوا مثله لان تلك الموسيقى حسب رأيه تهب الانسان القوة والنشاط، اما الموسيقى العربية فهي توجعات وأنات وآهات تثقل النفس والروح. وهذا ما يؤكد لنا أن محمد علي الحامي قد استفاد

من حياته البرلينية استفادة كبيرة، وأنه لم يعد فقط لينظم العمال ويؤسس نقابات وانما ليغير العقول والمفاهيم، وليساعد على تحرير الناس من التقاليد والأفكار القديمة.

وفي فترة قصيرة تمكن محمد علي الحامي وأنصاره في توعية العمال والحرفيين، واقناعهم بضرورة الاتحاد للدفاع عن مصالحهم وحقوقهم. وهكذا انبعث للوجود أول منظمة نقابية في تاريخ تونس الحديث.

وسرعان ما بدأت السلطات الاستعمارية تعي خطر ذلك الشاب النحيل والغامض. وأرسلت وراءه جواسيس ومخبرين لمتابعة اعماله ومراقبة تحركاته وتسجيل اقواله وتصريحاته. ولم تتردد طويلا في القاء القبض عليه والزج به في السجن صحبة جمع من انصاره. وجميعهم وقفوا في قفص الاتهام يوم ١٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٥، ووجهت اليهم تهمة التآمر على أمن الدولة. وبعد المفاوضات، اصدرت المحكمة حكما يقضي بنفي محمد علي الحامي وانصاره لمدة تتراوح بين ١٠ و٥ سنوات.

بعد ذلك تبدأ رحلة عذاب طويلة ومن جديد يعود الغموض ليلف شخصية محمد علي حتى النهاية.

توضع السلطات الاستعمارية الجماعة المذكورة في باخرة متجهة الى نابولي بايطاليا. وهناك يلقي البوليس القبض عليهم ويمضون اسبوعا كاملا في الايقاف. ثم تأخذهم السلطات الايطالية الى «بوستيميا» (Postumia) على الحدود الايطالية اليوغسلافية. وبعد ذلك اختار كل واحد منهم الطريق الذي يناسبه. وبخصوص محمد علي الحامي تقول الوثائق انه اتجه الى تركيا غير ان شرطة الحدود رفضت دخوله. ونحن لا ندري بعد ذلك الى أين اتجه، غير ان وثائق «الكاي دورساي» تقول أن الشرطة الفرنسية القت القبض عليه في مدينة طنجة يوم ٢٥ فبراير ١٩٢٦ وهو يستعد للالتحاق بالمقاومة الريفية في جبال الأطلس وبعد ذلك اقتادوه الى مرسيليا، ثم اطلقوا سراحه. وقد يكون محمد علي طلب بعض المال من ابن عمه الذي كان يعيش في باريس في ذلك الوقت وركب الباخرة الى الاسكندرية. ويتواصل الغموض بخصوص حياة محمد علي بعد ذلك. غير ان بعض المؤرخين يقولون انه استقر في القاهرة وعمل سائقا عند احد الباشوات المصريين. غير انه رفض ذات ليلة حمل السفير الفرنسي الى مقر اقامته بعد ان حضر حفلا في قصر الباشا المذكور. ومن جديد يهيم على وجهه في ارض الشرق. وتلفظه دروب الضياع في جدة حيث يعمل سائقا ومدرّسا للغة الفرنسية. وفي يوم ١٠ ماي / أيّار ١٩٢٨ اصطدمت سيارته بسيارة اخرى في الطريق بين مكة وجدّة بوادي مصيلة فمات متأثّرا بجرح خطير في دماغه. ودفن هناك. وهكذا مضى ذلك الفتى الجنوبي المغامر تلفه هالة من ذلك الغموض الذي رافقه من البداية الى النهاية.

تقول لي العجوز اللطيفة التي تدير بنسيون «كولومبو» حيث سكنت: ماذا ستكتب عن برلين؟

اقول لها: عن محمد علي الحامي.

تمدّ رأسها مستفسرة. أنطق الاسم من جديد. واروي لها تفاصيل حياته. تفتح فمها مندهشة وتقول لي «كأنها قصّة من الف ليلة وليلة!» تصمت قليلا ثم تضيف: «احيانا لايمكننا ان نتصوّر ماذا يمكن ان يفعل شخص واحد في تاريخ امة من الامم أو شعب من الشعوب».

أجلس في المقهى المواجه للبنسيون. مقهى جميل تضيئه شموع بنفسجية، ويؤمه طلبة وعشاق وفنانون. اكتب بطاقات لاصدقاء بعيدين. وعلى ظهر احداها اكتب لصديقي عبد الجليل بوقرة المقيم في القيروان: «بحثت عن اثر لمحمد علي الحامي، فلم أعثر على شيء. غير اني أخال أنه معي في الشوارع والساحات، ويقاسمني غرفة البنسيون، وأيضا كأس البيرة الذي امامي!».

صديقي عبد الجليل بوقرة هو ايضا يعلق صورة ضخمة لمحمد علي الحامي في شقته. ومرة قال لي: «اساتذة الجامعة عندنا ينقبون في الوثائق ويتجادلون طول الوقت لكي يثبتوا ان محمد علي لم ينل شهادة الدكتوراة. يالهم من أغبياء!. الا يعلمون ان حياة المغامرين الكبار لاتقاس بالشهائد وان اكثرهم جرأة لن يتمكن من أن يعيش يوما واحداً من ايام رحلة محمد علي الطويلة!».

الهوامش:

١) محمد علي الحامي (١٨٩٠-١٩٢٨): مناضل وطني تونسي ومؤسس أول منظمة نقابية تونسية.

٢) معنى هذه القصيدة هو:
اعمل بجدّ لكنك لن تحصل على شيء. اعمل حتى تسقط ميّتاً لكنك بالكاد تنال قوتك.

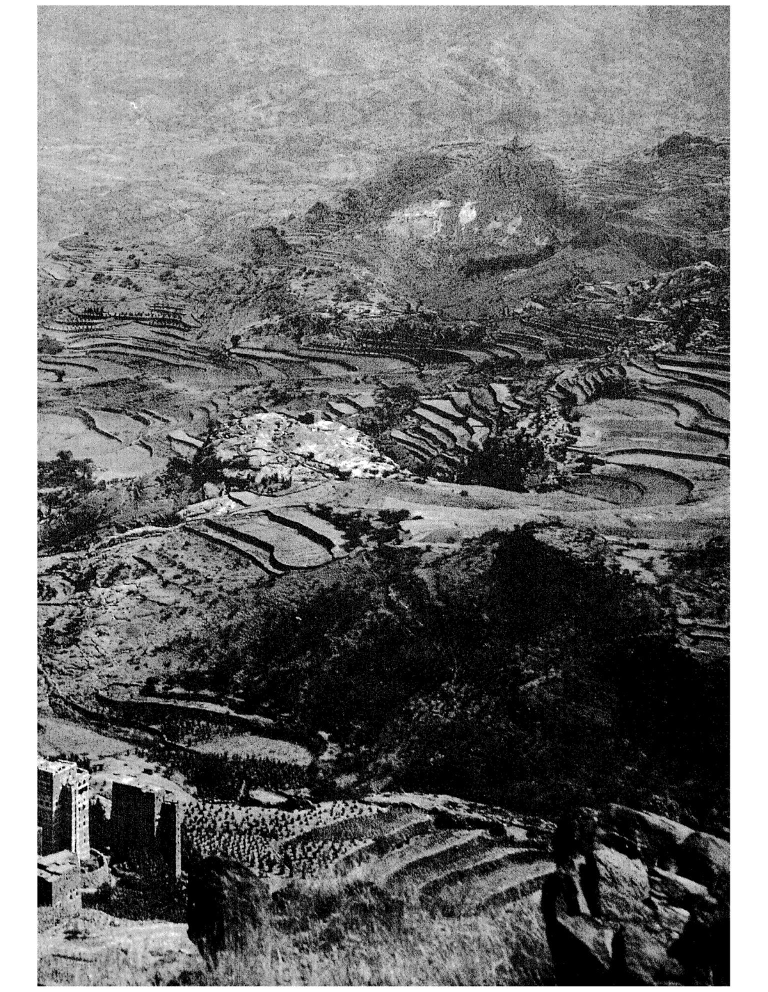
٣) الدغباجي: مناضل من الجنوب التونسي خاض الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي في بداية القرن. وساند مقاومة الليبيين للغزو الايطالي. أعدم عام ١٩٢٢ في ساحة قريته.

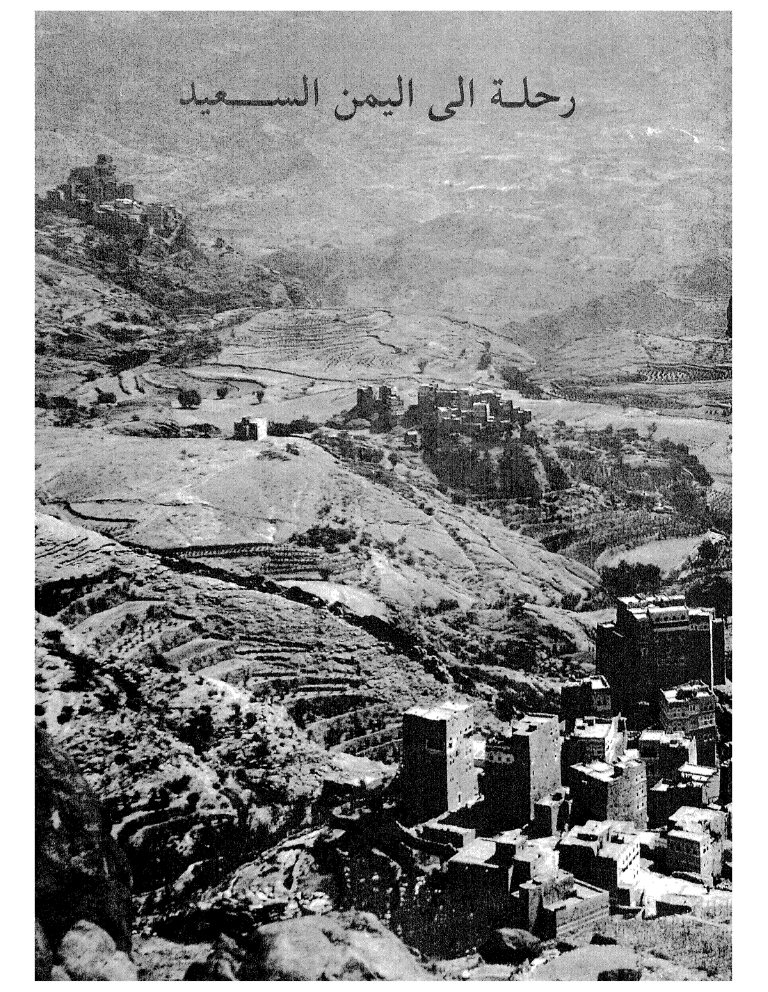
٤) جبال عرباطة: جبال مشهورة في الجنوب التونسي احتمى بها الثائرون التونسيون اكثر من مرة.

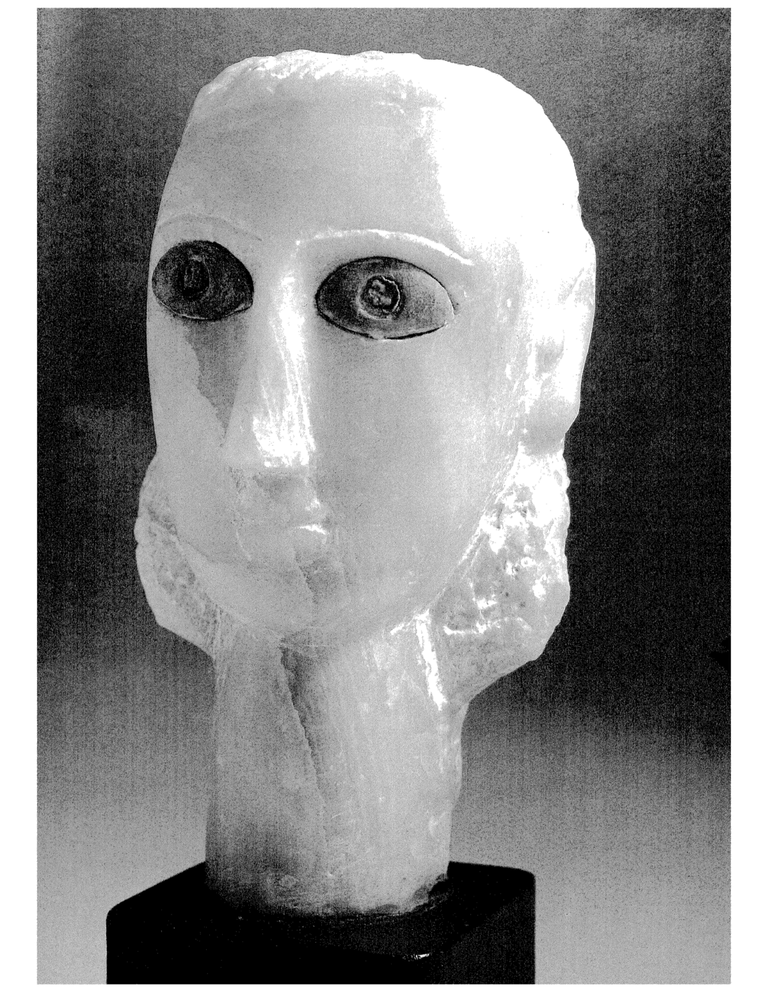
٥) هذه اغنية مشهورة في الجنوب التونسي وهي تعني:
الرجال الخمسة الذين التحقوا به مصيرهم الموت!
لقد التحقوا بصاحب المعركة الصعبة المشهور الدغباجي.

٦) الطاهر الحداد صاحب كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» الذي دعا فيه الى ضرورة تحرير المرأة.

٧) هو كتاب «محمد علي الحامي وحوادث الايام» لمحمد علي بلحولة. مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ١٩٨٥.




رحلـة الى اليمن السـعيد



ملاحظات حول تاريخ اليمن السعيد

سبيتينو موسكاتي

في الألف الأول قبل الميلاد ظهرت دول مختلفة في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، أهمها دول معين وسبأ وحضرموت.

والمملكة المعينية، في شمال اليمن، هي التي دارحولها أكثر الجدل فيما يتعلق بزمانها. ففي الماضي لم يكن يعرف على وجه اليقين أكانت متقدمة على مملكة سبأ أم معاصرة لها. ولكن الحفائر الحديثة وتطبيق العملية الراديوكربونية تشير الى تعاصرهما، ويبدو أنه يمكن تأريخ قيام مملكة معين بحوالي ٤٠٠ ق.م والمعينيون جديرون خاصة بالتنويه لتنميتهم التجارة مع الشمال، وقد أسسوا مستعمرات هامة على طول الطريق الساحلي المحاذي للبحر الأحمر والمؤدي الى فلسطين والبحر المتوسط. وقرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد ذابت مملكة معين في مملكة سبأ التي كانت في الوقت نفسه تمد نفوذها في المنطقة نحو الجنوب.

وتنبئنا النقوش المسمارية التي ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد أن زعماء سبأ وملوكها قدموا الجزية والهدايا لملوك أشور. ولابد أن هؤلاء السبئيين كانوا مستوطنين في شمال الجزيرة العربية، وهذا يدل على ازدهار الدولة في مثل هذا الزمن المتقدم. وتدلنا أقدم النقوش السبئية على أن التقدم الحضاري بلغ في تلك الفترة شأواً بعيداً.

وقد تطورت دولة سبأ من حكومة دينية الى حكومة مدنية. ففي عصر متقدم كان حكامها يتخذون لقب «المكرب» ومعناه «الكاهن الأكبر». وقرب نهاية عصر المكاربة استقرت عاصمة الدول في مأرب، حيث كان يبنى سد عظيم للتحكم في وادي أذنة



جنبيّة يمنيّة تصاحب الرجل اليمني طول الوقت

رأس يعود تاريخه
الى المائة الاولى قبل الميلاد
(متحف ميونيخ الاتنولوجي).

وتحويل مياهه للري. وحوالي القرن الخامس قبل الميلاد تحولت الدولة الى حكومة دنيوية تعتمد على حكم أقلية تتألف من عدد صغير من الأسر العسكرية والأسر المالكة للأرض. وقام على رأس الدولة ملوك، أخذ السبئيون في ظلهم يوسعون نفوذهم شيئا فشيئا. وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد اضاف ملوك سبأ الى لقبهم ملك ريدان، وأقيمت عاصمة جديدة في ظفار. وفي الوقت نفسه بدأت قبيلة حمير تحتل مركز الصدارة في الدولة، فأخذ اسمها (Homeritae) يزداد ورودا في المصادر اليونانية والرومانية الى جانب اسم السبئيين أو مكانه.

وقرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد، كما قلنا، ذابت مملكة معين في مملكة سبأ. وكان هذا ايضا مصير مملكة قتبان التي يقضي نظام التأريخ الجديد بوضع تاريخها بين ٤٠٠ ق.م و٥٠ ق.م على وجه التقريب. ثم ذابت حضرموت بعد ذلك بزمن، وتاريخها حسب نظام التاريخ نفسه يقع بين ٤٥٠ ق.م والقرن الثاني الميلاد. وتذكر نقوش قتبان وحضرموت بعض المكاربة، وهذا يؤدي بنا الى ان نفترض ان نظام الحكم الأصلي فيهما كان مشابها لما عرفه السبئيون. وعندما حل القرن الثالث الميلادي كان السبئيون قد وحدوا جنوب الجزيرة العربية في دولة قوية واحدة، هي أكبر وحدة سياسية أنشأها العرب الجنوبيون.

ولم تلبث هذه المملكة أن تعرضت لهجوم عنيف شنه الاثيوبيون. وفي القرن الرابع احتلها الاثيوبيون زمنا، ثم استعادت حريتها بعد ذلك، ولكن الفرقة الداخلية التي ترجع أولاً الى دخول اليهودية والمسيحية بدأت تدفع البلاد في طريق الاضمحلال. وأخذ العنصر اليهودي يزداد قوة، فحاول ذو نواس، آخر ملوك سبأ، فرض اليهودية على شعبه، وبدأ يضطهد المسيحيين اضطهادا عظيماً. فدفع هذا الاثيوبيين المسيحيين عام ٥٢٥م الى غزو اليمن واحتلالها.

وقد استحكمت الأزمة في ظل الاحتلال الاثيوبي. فبينما كان الحكام المسيحيون يبنون الكنائس ويحاولون الاندفاع نحو الشمال كما فعل أبرهة (الذي يظن العلماء اليوم انه حكم اليمن مستقلا عن اثيوبيا)، كانت البلاد تزداد اضمحلالاً، لخمود النشاط التجاري الذي كان يتوقف عليه بقاؤها الى حد كبير. وفي ذلك الوقت ازداد استعمال الطرق البحرية، فكانت هذه المنافسة كارثة على تجارة القوافل، وأخيراً أدى انهيار سد مأرب عام ٥٤٢م الى خراب أراضي الري اليانعة، وسدد ضربة الموت الى ازدهار البلاد.

وقد انتهت سيادة الحبشة عام ٥٧٥م، وتلتها سيادة الفرس التي انتهت هي أيضا بالفتح الاسلامي في أخريات حياة الرسول.

تشتمل النقوش العربية الجنوبية على طائفة كبيرة من أسماء الآلهة وألقابها، وهذا يوحي بوجود نظام للآلهة بالغ التعقيد. ويزيد من الصعوبات التي يلاقيها الباحث الطابع المحلي لمعظم الآلهة، والاشارة اليها عادة دون ذكر أسمائها أو بذكر ألقابها. ولكن لاريب في وجود افكار عامة معينة يمكن تجميع جمهرة الآلهة حولها.

فقد ساد في جنوب الجزيرة العربية ثالوث من الكواكب، رأيناه من قبل في أرض الرافدين: اله نجمة الصباح، واله القمر، واله الشمس. ومن الغلو أن نحاول، كما فعل نيلسن Nielsen في بحثه المشهور، اخضاع جميع الآلهة لحدود هذا الثالوث، ولكن الحق أنه لعب دوراً هاماً في نظام الآلهة بجنوب الجزيرة العربية، وأن كثيراً من الآلهة المختلفة ليست سوى مظاهر له.

واسم اله نجمة الصباح معروف للمنطقة كلها: عثتر، نظير عشتر لدى البابليين والأشوريين وعشترت لدى الكنعانيين. ولكن من الجدير بالملاحظة أن عثتر العربي الجنوبي اله ذكر، بينما نجد نظائره في جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثة.

ويتخذ الها القمر والشمس أسماء مختلفة. فاله القمر اسمه ود عند المعينيين، والمقه عند السبئيين، وعم في قتبان، وسين في حضرموت (كما في بابل). واله الشمس اسمه في قتبان وحضرموت شمس، الى جانب أسماء أخرى، والاسم شمس قريب من الاسم شمس في أرض الرافدين. فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية في الشعوب السامية كان يتوقف بعضها على بعض.

والى جانب الآلهة المشتركة كانت هناك طائفة كبيرة من الآلهة الخاصة، تحمي بعض الاماكن أو القبائل بل الأسر أيضاً. ويشار اليها غالبا بالاسم بعل الذي رأيناه من قبل لدى الكنعانيين، ومعناه «صاحب» أو «سيد». ولم تأت هذه الآلهة جميعا من التراث القومي؛ فبعضها أخذ عن الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم الى النقل والاستيعاب، وهو استعداد يسر في مراحل متأخرة من تاريخهم دخول العقائد اليهودية والمسيحية.

وبين آلهة العرب الجنوبيين عدة آلهة لا أسماء لها، يبتهل اليها فرادى أو جماعات باسم اله أو الهة مكان أو جماعة أو شعب ما.

ولنذكر خاصة ال، وهو اله سامي مشترك: ال لدى الأكديين (٣)، وال لدى الكنعانيين، والوهيم عند العبريين، والله عند العرب. وقد عرف اليمنيون أيضا هذا الاسم، واستعملوه في الغالب اسماً عاماً بمعنى اله، وهو مدلوله الأصل حقاً. ولكنهم استعملوه أحياناً علماً على اله خاص، ويكثر وروده عنصراً في أعلام الأشخاص.

وأعلام الاشخاص التي تدخل في تركيبها أسماء الآلهة هي المصدر الاساسي لمعلوماتنا عن الصفات التي اعتاد العرب الجنوبيون اطلاقها على الآلهة في ابتهالاتهم. فمن اشهر هذه الصفات: الأب والرب والملك والعزيز والعادل والأمين. ويبرز دين العرب الجنوبيين عبودية الانسان للآلهة، وهذه النظرة الدينية تستدعي دائماً أن يسعى الانسان للظفر بحماية الآلهة.

وقد دخل دين العرب الجنوبيين كل صورة من صور حياتهم. ولما كانوا يرون أنه لابد من حماية الآلهة لتوفيق كل حي ونجاح كل عمل، فقد كان للقبائل والأسر، بل للدول والجماعات الزراعية والتجارية أيضاً، آلهة تحميها. وكانت تقام عند أداء أي عمل له

أهميـة ما احتفـالات لاسـترضـاء الآلهة وتكريس ذلك العمل لها . وكـانت المعـابـد والقنـوات، والقـوانين ومراسيم الدولة، وأنصاب القبور، توضع كلها في رعاية الآلهة، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك تلك الأشياء أو يدنسها.

وفي مثـل هذه البيئـة كانت للمعـابـد أهمية قصوى . فكانت تخصص لها العشـور ومصـادر دخـل أخـرى لتـوفـير أمـوال كافيـة لتعهـدهـا . وكان تعهد المعابد واجب الكهنة، وكانوا كثيرين على نظـام حسن . وربـما كان من وظائفهم أيضاً اصدار النبوءات باسم الآلهـة، ولكن معلومـاتنـا في هذا الصـدد لا تكفي للعلم اليقين . وكـان بين العـاملين في المعبـد أيضـاً بغايا مقدسات، أكثرهن اماء اجنبيات يوهبن للآلهة ويهبن أنفسهن تماما لخدمتها.

وكـانت تقـدم قرابين من حيوانات مختلفة، كالثيران والغنم، في أعـداد كبـيرة غالبـاً . وكـانت هنـاك أيضـاً قرابـين من غيردم، كقرابين الشراب وتقديم البخور.

ومن العـادات التي تدعـو الى الاهتمام البالغ عادة الحج الى الأمـاكن المقـدسة، وكان لها نظير في وسط الجزيرة العربية صار فيها بعـد من فرائض الاسـلام . وليست, هناك أدلة صريحة على عادة الطـواف بالأمـاكن المقـدسـة، ولكن هنـاك دلائـل تشـير الى أنها وجدت في صورة لا تختلف عن الصورة التي سادت بين سائر العرب.

ولابـد أن الصلوات الخـاصـة، أي الصلوات التي لا ترتبـط بوظـائف دينيـة أو بأوقـات محددة، وكـانت منتشرة انتشاراً واسعاً . وكان الغرض منها قبل كل شيء استجداء حماية الآلهة حتى يتحقق الخصب للأرض، والرواج للتجارة، والخلاص من الفقر والمرض . وكـان انتهـاك مبـدأ الطهـارة يستـدعي الاعتراف علنا به، وكانت الطهـارة ركنـا هامـاً من أركـان الطقـوس . ولدينا أمثلة لاعترافات أدلت بها قبائل لآلهة مختلفة، واستغفار على الملأ أداه بعض الملوك.

وقـد وجـدت في قبـور جنـوب الجـزيرة حلى وكؤوس واختام وأشيـاء من كل نوع . وهـذا يشـير الى الايـمان بالحيـاة الأخـرى، ولكننا هنا أيضاً لا نستطيع التحقق من تفاصيل تلك العقيدة.

فالحيـاة الـدينية لجنوب الجزيرة تتميز في جملتها بطابع حضارة مستقـر بالغـة الشأن لها شخصيتهـا البـارزة واستقـلالهـا في نطـاق بيئتهـا . وهي تختلف عن أحـوال العـرب البـدو في الشمال اختلافا كبيرا من عدة وجوه.

وليس من اليســير رسم صورة للحيـاة السيـاسية والاجتماعية لشعوب لم تترك لنا من الوثائق سوى نقوش نذرية وتذكارية . ولكن النقـوش التـذكارية كثيرة الى حد يكفي لاستخراج نتائج معينة في هذا الصدد تتسم بالحيطة والحذر. هذا إلى أن انقسام المنطقة الى دول مختلفـة يعني انـه على الـرغم من التجـانس الكبـير في تلك المنطقـة لا يلزم للنتـائـج التي نكـونهـا عن دولة ما أن تصلح لدول أخرى دون استثناء أو تعديل.

وقـد اتخـذ التنظيم السيـاسي للدول العـربية الجنوبية صورة ملكيـات متحـدة قوية . وكان رأس الدولة هو الملك، وقد تطورت سلطته في أكثر هذه الدول من سلطة دينية الى أخرى دنيوية . وقد تتبع لنا جاك ريكمانز Ryckmans .J مجرى التطور السياسي في مملكة معـين، وكـذلـك في مملكـة سبأ خاصـة . ففي سبأ، تحت حكم المكاربة، كانت القبائل جماعات دينية تظلها حماية آلهتها الخاصة، وكان مجلس من الشعب يساعد الحاكم وفي وظائفه التشريعية . وفي عصر الملوك ظل المجلس قائما في أول الأمر، وكان ينفذ القانون في كل قبيلة موظفـون قضـائيـون يتـوارثـون وظيفتهم ويتخذون لقب «كبـير» . وحـوالي بداية العصر المسيحي أدى اتساع فتوح سبأ الى ازديـاد نفـوذ هؤلاء «الكبـراء» حتى أصبحـوا طبقـة في القبـائل لها امتيـازات خاصـة وممتلكـات من الأراضي واسعة، فاختفى مجلس الشعب، وتضـاءلت سلطـة الملك الى حد كبـير، فقـام نوع من النظـام الاقطـاعي . وفي المسـائل العسكرية، كانت السلطة في يد الحـاكم دائـما على مايبـدو، فالنقـوش التي تسجل الأعمال الحربية تقـرر أن هذه الأعـمال تمت بأمـره، ولايبـدو انـه كان للمجـالس الشعبيـة كلمـة ما في هذا الصـدد . ومن النـاحية الدينية، يبدو أن سبأ، حتى في عصـر المكـاربة، كان لها نظام من الحكم أقرب الى النظـام الـدنيوي مما لدى معين أو قتبان، حيث كان للكهان نشاط أبرز وأظهر.

ويبدو أن عرش الملك كان يرثه عادة الابن عن الأب، فان لم يكن للملك ابن خلفـه أخـوه . ومن النظم الخـاصـة بالعـرب الجنـوبيـين ملك شخصـين أو أكثر معا، وهو نظام أصله معيني أو قتبـاني، ولعـل سبأ أخذت به بعد فتحها لقتبان، وكان يقضي بأن يشرك الملك معه في حكم الدولة ابنه الذي سيخلفه أو، في مرحلة متأخرة، بعض أبنائه ومنهم ولي عهده.

وكانت سلطة الملك والزعماء المحليين تقوم في آخر الأمر على مايملكـونـه من الأرض، ومن هنا أقيمت ادارة الدولة على أساس من عقـار الارض، ووجهت الى حد كبـير نحـو رعـايتـه . وكـان للمعابد أيضاً ضياعها التي كان لها فضل كبير في ازدهارها.

ولـدينـا بعض المعلومـات عن الادارة المالية . فكانت تفرض ضرائب على الصفقـات التجارية وعقار الارض، كما كانت هناك ضرائب خاصـة لسـداد النفقـات العسكـريـة . ويبـدو أن نسبة الضـريبـة لم تكن محددة، وانـما كانت تختلف حسب المحصـول وبعض العوامل الأخرى.

وكـانت الحيـاة الاقتصادية لجنوب الجزيرة تقوم على التجارة الـدوليـة، فضـلاً عن مواردهـا الزراعية العظيمة . وكانت العطور العربية خاصة مشهورة في أنحاء العالم، وكانت تصدر بحرا أو على طريق القـوافـل المـؤدية الى أرض الرافدين وفلسطين . وفي الميدان التجـاري، كان جنوب الجزيرة مركزاً أساسياً لتبادل السلع، وكان مرسى المحيـط الهنـدي للتجـارة مع البحـر المتـوسـط . والقـواعد التجـاريـة التي أقـامهـا السبئيـون على سواحـل الهنـد والصومال أتاحت لهم احتكار تجارة الذهب والبخور والمر وأخشاب الزينة التي تصدرها تلك المناطق الى الشمال.

ولهذا تخللت المصالح والحاجات التجارية سياسة العرب الجنوبيين بأسرها، وقد استطاعوا بلوغ بلاد قصية دون أي فتح سياسي كبير، بفضل استيطانهم وتجارتهم.

ولم ينقب علماء الاثار بعد في جنوب الجزيرة العربية على نطاق واسع كما فعلوا في مناطق اخرى من الشرق القديم. فالمعابد الكبيرة والقصور البديعة التي حفظ الكتاب القدامى ذكرها لايزال جانب منها يرقد خرائب تحت تلال الرمال التي تغطي منذ قرون بقايا تلك الحضارة البائدة.

وجنوب الجزيرة غني بالجرانيت، وهو حجر رائع للبناء نحتت منه كتل مربعة كبيرة وأعمدة قوية. وكان في الزمن القديم غابات واسعة يؤخذ منها الخشب. وقد استعمل الآجر أيضاً، وكانت تصنع منه كثيرا تركيبات على هيئة درج في رؤوس الاعمدة وفي السقوف تذكر بنظائرها في كثير من مباني أرض الرافدين.

ومعلوماتنا عن الفن المعماري في جنوب الجزيرة العربية تسمح لنا، رغم نقصها، بوصف بعض خصائصه. فالكتل الحجرية الكبيرة كانت تسوى وتركب بعضها الى جانب بعض في دقة بالغة يصعب معها رؤية أماكن الوصل. وكانت الاعمدة توطد في نقر في قواعدها وطيلها والجدران ملساء عامة، ولكننا نعرف أنها كانت تبنى أيضاً بسطوح مضلعة. وهذه الطريقة توحي بأنها تأثرت بمباني الآجر، وهي في جملتها تذكر بالفن المعماري البابلي. وكانت تبذل عناية كبيرة في تزيين الجدران والأعمدة بفصوص من الذهب أو غيره من المعادن التي كان جنوب الجزيرة غنيا بها.

وكانت الأعمدة المربعة والأعمدة الأسطوانية تستعمل كثيراً. وكانت تنصب مليثات Monoliths طويلة، كتبت عليها نقوش غالباً. وكانت رؤس الاعمدة مربعة في الغالب، وكان للعمود أحياناً عدة رؤوس يعلو بعضها بعضاً على هيئة درج، وكانت الأعمدة نفسها مربعة أو لها ثمانية ضلوع أو ستة عشر ضلعاً.

وكانت المعابد بيضاوية أو مربعة في تصميمها. فمن الأمثلة الطيبة للنمط الأول معبد مأرب الكبير الذي كشفته البعثة الأمريكية. وقد عثر على سوره، وهو بيضاوي تقريبا، كما نقب تنقيبا دقيقا في مبنى بني في السور فيما بعد. ولهذا المبنى وجه فيه ثمانية أعمدة مربعة، ومدخل من ثلاثة أبواب جنبا الى جنب يؤدي الى رواق، وفي هذا الرواق باب واحد يؤدي الى ساحة المعبد نفسها. ومن الامثلة الطيبة للمعابد المربعة التصميم معبد خور روري في عمان، وقد كشفته البعثة الأمريكية أيضاً. وجدران هذا المعبد بالغة السمك (تبلغ عشرة أقدام أو أكثر)، وفي داخل الجدار الشمالي بنيت ثلاثة جدران اخرى. وليس هناك سوى مدخل واحد، وهو ضيق أقيم في الجدار الشرقي. وفي ساحة المعبد مذبحان وبئر ركب فيها صهريج.

وقد كشفت أيضاً عدا المباني الدينية أبنية اخرى بنيت من كتل الحجارة أو من الآجر: قلاع من عدة طوابق، وأسوار، وأبراج. وكان بناء السدود فرعاً من الفن المعماري الدنيوي له أهميته الخاصة، وكان لأحد هذه السدود، وهو سد مأرب أهمية قصوى لازدهار البلاد السياسي. وقد كشفت الحفائر في منطقة تمنع (عاصمة قتبان: المترجم) عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الري لرقعة واسعة من البلاد.

٣ـ تصميم معبد مأرب

وكانت أبنية القبور موضع اهتمام خاص. وقد كشفت غرف دفن وأضرحة وأنصاب، عليها في الغالب صورة للميت ونقش تذكاري. وكشفت البعثة الأمريكية الأخيرة في تمنع قبورا نحتت في الصخر، وفيها أثاث مما يوضع في القبور وكثير من النقوش.

ولم يبلغ فن النحت مبلغ الفن المعماري. والنمط السائد في فن النحت تماثيل صغيرة لأشخاص توضع في المعابد قرابين نذور. وقد كشفت بعض التماثيل البرونزية الجميلة، كالتمثال الذي كشف أخيراً في مأرب، وهو نحو ثلاثة أقدام ارتفاعاً، ويمثل رجلا يلبس على ظهره جلد أسد، وكتمثال الحصان الذي تضمه الآن مجموعة دمبرتون أوكس Dumberton Oaks Collection في واشنطن، ولكن هذا الفن عامة من نمط غليظ بدائي. وهذا يصدق أيضاً على الصور المحفورة، ففي صور البشر المحفورة نجد عامة أن الجسم في وضع مواجهة، القدمين في وضع جانبي، والوجوه ضعيفة الأداء. ويعبر عن تفاوت المكانة بين الاشخاص المرسومين باختلاف الأحجام، كما في أرض الرافدين. ولم يستطع أولئك الفنانون التغلب على مشاكل الأبعاد، فاكتفوا بوضع صور الأشياء بعضها فوق بعض أو ازاء بعض. ونجد كالعادة أن الصور المحفورة التي تمثل الحيوانات والازهار والأكاليل والرسوم الهندسية أكثر توفيقا، فهناك مثلا في المتحف البريطاني صورة محفورة لجمل بالغة الروعة.

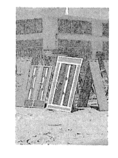
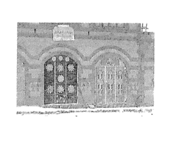
وكان العرب الجنوبيون عظيمي التوفيق في صناعة القطع الفنية الصغيرة. فالكتاب اليونان والرومان ترنموا بأناشيد الثناء على الكئوس والأوعية التي صنعها السبئيون من الذهب والفضة. ولم يصل الينا سوى القليل من هذه الأشياء لسوء الحظ، وإن كان هذا أمراً طبيعياً، ولكن لدينا مثلا مصباحاً برونزيا بديعاً، على سطحه الأعلى رسم في صورة جدي يقفز. وثمة دبابيس وفصوص من البرونز عليها صور معارك بين حيوانات وآلهة تذكر بالأختام البابلية والأشورية.

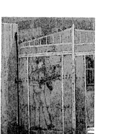
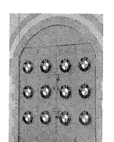
وقد صنعت قطع كثيرة من الحلي بالغة القيمة من الذهب الذي كان وافرا في جنوب الجزيرة. وسكت أيضاً نقود كثيرة، اقتداء بالعالم اليوناني الذي نجد أثره في تلك النقود نفسها.

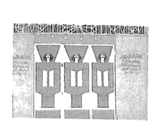
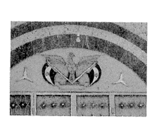
وفي الختام نقول ان فن جنوب الجزيرة، كسائر مظاهر الحضارة التي ينتمي اليها، يدل على مرحلة من الحضارة تروع المرء بتقدمها، قامت مزدهرة راسخة في أحوال مستقرة، وكانت مستقلة عن بقية أنحاء الجزيرة بل مختلفة عنها من عدة وجوه.

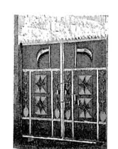
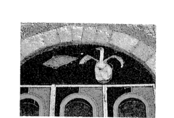
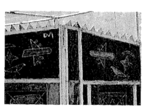
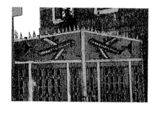
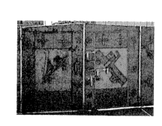
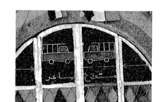
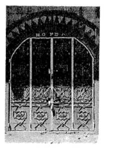
رسوم على أبواب في صنع

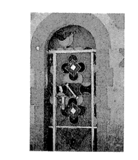
(تصوير غارت بويز)

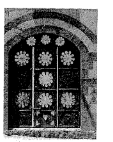
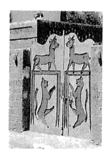




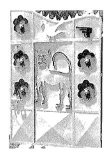







الرحلة الاوروبية الاولى الى اليمن السعيد

رحلة كارستن نيبور الى بلاد العرب (١٧٦١ - ١٧٦٧)

لم تكن المعارف التي اكتسبتها العلوم الاوروبية خلال القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر حول البلاد الغير الاوروبية وحول حضارتها، وشعوبها ذات أهمية كبيرة ذلك انها اعتمدت بالاساس على رحلات أساطيل الدول الكبرى التي كانت تبحث عن طرق تجارية جديدة. تشهد على ذلك كتب الرحلات والاسفار الى تلك القارات المجهولة لمؤلفيها من الانكليز والفرنسيين والهولنديين ولا تصبح المعرفة هدفا مستقلا بذاته تنظم من أجله الرحلات الطويلة الا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن اهم هذه الرحلات تلك التي تعارف الدانمركيون على تسميتها آنذاك بـ «الرحلة العربية». وهم يعنون بها رحلة نظمت الى بلاد اليمن خلال الفترة الفاصلة مابين ١٧٦١ و١٧٦٧ والتي قام بتمويلها البيت المالك.

إن الخلفيّة لهذه الرحلة التاريخية هي فلسفة التنوير واجتهاداتها في جمع وحصر المعارف الانسانية بشكل منهجي منظم. وكانت هذه البعثة هي ثاني محاولة دانماركية بهذا الصدد. اذ أن الاولى كانت الرحلة التي قام الضابط البحري فريديريك لودفيك نوردن (١٧٠٨-١٧٤٣) عام ١٧٣٧ بهدف التخطيط لعلاقات تجارية واسعة النطاق مع امبراطورية الحبشة. وكانت نتيجتها الاساسية العديد من الخرائط والمعلومات عن بلاد مصر.

ولو نحن القينا نظرة على الاوضاع السياسية في ذلك الوقت، لوجدنا ان التفسير الاساسي لهذه العوامل الجديدة هو التطلع الى بناء العلاقات التجارية ذلك ان الحروب ضد الامبراطورية العثمانية كانت قد انتهت بعقد معاهدتي السلام مع القسطنطينية في عام ١٧١٨ و١٧٣٩ التين رافقهما تحييد دول الساحل في شمال افريقيا وذلك ابتداء من عام ١٧٥٠. وهذا ما ساعد على اكتشاف أسواق، وطرق تجارية جديدة، وجعل جمع المعارف عن هذه العوالم المجهولة ضرورة اقتصادية ملحة.

ظهر كتاب «نوردن» حول «الرحلة الى مصر وبلاد اثيوبيا» في عام ١٧٥٥ اي بعد وفاته بسنوات عديدة. وقد تميّز بخرائطه الدقيقة لوادي النيل. وهو ما ساعد على التخطيط للرحلة العربية بشرط ان تكون هذه الرحلة الثانية تكملة لرحلة «نوردن». وبعد ذلك قرّر المخططون ان تكون هذه الرحلة الثانية مستقلة تماما عن الاولى وان يكون هدفها الرئيسي والوحيد البحث العلمي، ويعود الفضل في ذلك الى شخصيتين من ابرز شخصيات ذلك العصر، هما البروفسور «يوهان دافيد ميشائيلس» من جامعة جوتنجن والاخر «يوهان هارتفيغ برنستورف» ممثل المانيا في كوبنهاجن والمسؤول عن سياسة الدانمارك الخارجية.

كان «ميشائيلس» مستشرقا ومن ابرز علماء دراسة الانجيل في عصره. ومن المرجح أنه كان قد قرأ كتاب «نوردن» وانه كان عارفا باهتمام ملك الدانمارك «فريديريك الخامس» ومستشارية بالعلوم والفنون، ولهذا عرض على «برنستورف» فكرة تنظيم رحلة علمية الى اليمن أو «اليمن السعيد» وهي التسمية المتعارف عليها في ادبيات العصر العلمية والمأخوذة عن التراث الروماني. وقد كتب «ميشائيلس» قائلاً: «ان هذا البلد غني بالثروات الطبيعية التي لاتزال مجهولة عندنا، وتصل جذوره التاريخية الى قديم الأزل. كما تختلف لهجته عن اللهجة العربية لسكان المناطق الغربية. اليس من المتوقع اذن ان تساعدنا لهجة بلاد العرب الشرقية على زيادة معرفتنا باهم كتب العالم القديم الا وهو الانجيل؟».

وسرعان ما استجاب «برنستورف» لهذا الاقتراح وظل متمسكا به حتى بعد ان تغير شكله تماما بناء على استشارة العلماء الآخرين. وقد تقرر ان تنطلق البعثة من القاهرة وليس من مركز التبشير الدانماركي في «ترانكيبار» على الساحل الجنوبي للهند، الشيء الذي ربط بينها وبين رحلة «نوردن» ربطا مباشرا. وقد كلف المشتركون فيها بجمع المعلومات لا بهدف دراسة الانجيل فقط وانما التركيز على احتياجات العلوم الطبيعية والجغرافية. وقام «ميشائيلس» بوضع قائمة من الاسئلة العلمية طالبا من اعضاء البعثة توفير الاجابات الوافية عنها. وقد ظهرت هذه الاسئلة في كتيب بعنوان «اسئلة موجهة الى مجموعة من رجال العلم الذاهبين في رحلة الى بلاد العرب بأمر من صاحب الجلالة ملك الدانمارك»،

وشملت القائمة اسئلة مفصلة عن مجالات العلوم المختلفة منها التاريخ والتاريخ الطبيعي وعلوم اللغة. وصدر الأمر الملكي

ايـذانـا ببـدء الـرحلة في ١٥/١٢/١٧٦٠ على قاعـدة اسئلة ميشـائيلس والاقـتراحات المقدمة من طرف العلماء الاخرين. وقد نصت الفقرة العاشرة من القرار الملكي على مايلي: «على اعضاء البعثة ان يكونوا في غاية الادب مع سكان بلاد العرب وعليهم الا ينـاقضـوا تعـاليم دينهم أويقلّلوا من شأنـه حتى في ما بينهم وبـين انفسهم». ولم يكن السبب في اتخاذ هذه الاحتياطات هو المشاكل الـديبلومـاسيـة التي يمكن ان تنتج عن مثل هذا السلوك وانما كان التسامح الذي كان الشعور المهيمن في ذلك الوقت والقاعدة المتبعة في كل المعاملات وخاصة مع الشعوب والامم الاخرى.

ويتحـدث «نيبـور» عن مناقشة دارت بين اعضاء البعثة وبين احـد العـاملين في السفينـة التي نقلتهم من القسطنطينيـة الى الاسكنـدريـة فيقول: «تبين لنا من خلال النقاش انه مسلم مؤمن بدينـه ايـانـا قوياً. وعندما حاول أحد أعضاء بعثتنا اقناعه بصحة الـديـانة المسيحية نهض واقفا وقال: «الذين يؤمنون بغيرالله ليسوا الا ثيرانا وحميرا» ثم خرج. وقد ذكرنا هذا الرجل البسيط بانه علينا الا نخـوض في مثـل تلك النقـاشـات وان نترك كل واحد يعتقد ان دينه هو الافضل».

شارك في «الرحلة العربية» خمسة أشخاص هم:

«فـون هافن» الـدانـماركي (١٧٢٧-١٧٦٣) وهـو من تلاميـذ «ميشائيلس»، والسويدي «بيتروس فورسكال» (١٧٣٢-١٧٦٣) الـذي درس اللغـات الشـرقيـة لدى ميشائيلس أيضاً وذلك خلال الفـترة الفـاصلة بين ١٧٥٣ و١٧٥٦. وفي نفس الوقت كان تلميذ عالم النباتات السويدي الشهيركارل فون لينيه. وقد كان مختصا في العلوم الطبيعيـة، و«كـارستن نيبور» (١٧٣٣-١٨١٥) الذي كان طالبا يدرس الرياضة التطبيقية على يد ابراهام غوتهيلف كيستنر في جوتجن، وقد أهلته دراسته لعلم الفلك على يدي الفلكي المشهور «يـوهـان توبيـاس ماير» (١٧٢٣-١٧٦٢) الى الاضطلاع بمهمة رسم الخـرائط. وعند لقائه الاول ببرنستورف في مدينة كوبنهاغن، كلفـه هذا الاخيربادارة الشؤون المالية للبعثة. وكان اعضاء البعثة الاخـرين هم الطبيب «كـريستيـان كرامـر» (١٧٣٢-١٧٦٣) والـرّسام «باورنفايند» (١٧٢٨-١٧٦٣) وخادم عسكري سويدي اسمه برججرين (؟-١٧٦٣).

بدأت البعثة رحلتها على ظهر الباخرة العسكرية «غرونلند» من ميناء كوبنهاغن. وفي ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٧٦٧، لم يعد سوى كارستن نيبـور، وهـو الوحيد الذي تبقى على قيد الحياة من بين كل اعضاء البعثة.

خط سير الرحلة من القسطنطينية الى القاهرة

استغـرقت الـرحلة من كوبنهـاجن الى القسطنطينيـة حوالي سبعـة اشهر (اي من ١/٧ الى ٣٠/٦/١٧٦٠) وذلك بسبب قوة الـريـاح المضـادة مما اضطر السفينة الى العودة الى ميناء هلسنجور مرة اخـرى. ويقـول نيبور في مذكراته: (عاني بحارتنا من الاحوال الجوية السيئة معاناة شديدة حتى ان بعضهم لاقى حتفه، ومرض منهم حوالي ٣٠ شخصاً.) ولم تبدأ الرحلة فعلا الا في ١٠ مارس، لتسـيـرفي البـدايـة في الاتجـاه الخـاطـىء بسبب الـريـاح. وفي القسطنطينيـة استقـل افـراد البعثـة سفينـة ايطـاليـة طاقمها تركي وصلت الاسكنـدريـة في ٢٦ سبتمـبرعن طريق رودس، وكـانت السفينة تحمل معها جواز مرور وخطاب توصية من السلطان. كان افـرادهـا قد غيروا ثيـابهم الغربية واستبدلوها باللباس الشرقي لأن



الثيـاب الاوروبيـة «كانت ستكون موضع تساؤلات كثيرة، بل من المحتمـل انهـا كانت ستثيرعلينـا تهكمات العامة من الناس»، كما يقول نيبور.

وقـام نيبور في الاسكندرية بالعديد من عمليات المسح لاقي خلالهـا بعضـا من المصاعب وهويقول (لاحظ احد التجار الاتراك انني اوجـه الاسطـرلاب باتجـاه المدينة، فدفعه فضوله الشديد الى النظـر من خلالـه. وقلق جدا عنـدمـا رأى برجـا يقف رأسـا على عقب. وقـد نتـج عن ذلـك ظهـور اشاعات تقول بانني اتيت الى الاسكنـدريـة لاقلبهـا رأسا على عقب. وكان هذا موضع حديث

كارستن نيبور بلباس عربي.

الناس في كل مكان وحتى في بيت الحاكم).

اضطر نيبور الى التوقف عن المسح لهذا السبب معوّضاً برحلات متعددة الى الدلتا. وفي الطريق الى القاهرة قام بمسح لأحد فرعي النيل ورسم له خارطة. كذلك شرع فورسكال في تدوين ملاحظاته العلمية وفي جمع عينات مختلفة من الحيوانات والنباتات وقد اقامت البعثة عامين في القاهرة وذلك بعد وصولها اليها في ١٠ نوفمبر. وكان السبب في هذه الاقامة الطويلة، الصراعات الداخلية بين اعضاء البعثة انفسهم، والتي ادت الى استفحال الخلافات بينهم والى بروز الكثير من المشاكل التي عرقلت اعمالا كثيرة.

ورغم ذلك استمر العمل طبقا لمواد القرار الملكي. وقد واصل نيبور عمليات المسح، ودرس في القاهرة فرع النيل الثاني المؤدي الى رشيد، ووضع خريطة دقيقة للمدينة، وقاس ارتفاع الاهرامات، محصلاً نتائج لا تختلف إلا بنسبة ٥, ٠٪ عن النتائج الحديثة. كما نسخ بعضا من النقوش الهيروغليفية كانت هي اولى من أمكن قراءتها. اما فورسكال فقد اضاف الى مجموعته حوالي ١٢٠ نوعا جديداً، وجمع المئات من الحبوب، واشتري فون هافن ٧٢ مخطوطاً ورسم باورنفايند صوراً معبرة عن الحياة اليومية من خلال الادوات المستخدمة والماكينات والملابس الشعبية والآلات الموسيقية.

من القاهرة الى جدة

رحلت البعثة في ٢٨ اغسطس ١٧٦٢ بصحبة قافلة الحج السنوية من القاهرة الى السويس لتبحر منها الى جدة المرفأ الوحيد المؤدي الى مكة.

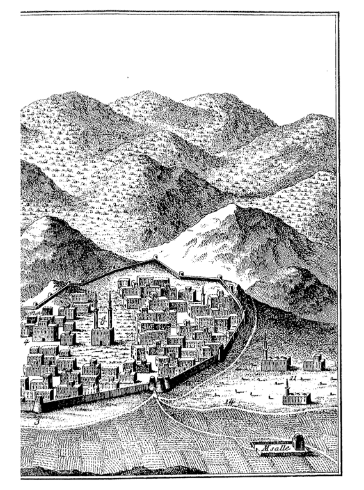
وكان افراد البعثة قد تطبعوا اكثر فاكثر باسلوب الحياة الشرقية خلال اقامتهم في القاهرة. وقبل الاقلاع من السويس حاولت البعثة البحث عما كان يسمى في اوروبا بجبل (المكاتب) والمنصوص عليه في القرار الملكي، وهو جبل كان العلماء يتوقعون العثور فيه على معلومات جديدة بخصوص رحلة بني اسرائيل في صحراء سيناء، غير ان بحثهم باء بالفشل، وتمكن نيبور من نسخ بعض النقوش النبطية من القرن الاول الميلادي.

ابحرت البعثة في ١٠ اكتوبر على ظهر سفينة من سفن الحجاج تاركة السويس الى جدة، وواصل نيبور دراساته الفلكية سرا في الطابق العلوي من السفينة. وشكلت هذه الدراسات مع ما لاحظه حول الشعب المرجانية القاعدة الاساسية لأول خريطة علمية للبحر الاحمر. وقد كان الجزء الشمالي منه مجهولاً لدى الرحالة الاوروبيين، ولذا فانهم لم يكونوا يتجاسرون على السير فيه ابعد من جدة شمالاً. وكانت هذه الخريطة هي الهدية التي قدمها «نيبور» الى قبطان انكليزي في فترة لاحقة. وهي التي اعتمدها البريطانيون في اقامة طريقهم البريدي من اوروبا الى الهند، مجنبا اياهم الابحار ومرورا بافريقيا الجنوبية.

وطيلة الرحلة في البحر الاحمر، كان «فورسكال يصيد الحيوانات المائية ويعطيها لزميله «باورنفايند ليرسمها. كما انه ارسل من جدة مجموعة من النباتات والحبوب واشياء اخرى من بينها أسماك واصداف.

من جدة الى اليمن

أبحرت البعثة من جدّة في مركب صغير الى ميناء لحية في

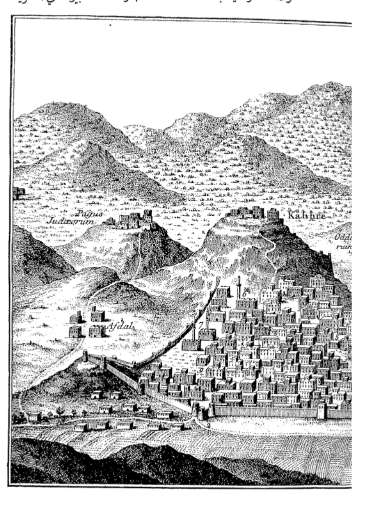


اليمن. ثم سارت في طريق البر الى بلدة بيت الفقيه التي وصلتها يوم ٢٥ فبراير/ شباط ١٧٦٣. وفيها اقامت مايقرب الشهرين. وقد توطدت الصداقة بين «نيبور» و«فورسكال». وهذا ماسهل عليهما القيام برحلات عديدة سويا، رحلات الى سهول تهامة والى الجبال المحيطة بها. وقد كتب نيبور قائلاً: «كنا نستأجر حمارين نركبهما بينما يظل صاحبهما سائرا على الاقدام وراءنا فهو

تخطيط شمال اليمن من اعداد كارستن نيبور (١٧٦٣)

مرشدنا وخادمنا بل وفي كثير من الاحيان مترجم لنا وكنا نحن قد اصبحنا من ذوي اللحي العربية المهيبة ونرتدي ثياباً طويلة بحيث كان شكلنا شرقياً الى حد كبير. وحتى لا يشك احد في اننا اوروبيون، اطلق كل منا اسماً عربياً على نفسه، وجعلت احتياطاتنا هذه صاحب الحمار يوقن بأننا لسنا اوروبيين وانما مسيحيون من الشرق).

وقد واصل نيبور عمليات المسح خلال رحلاته الى مخا وتعز وصنعاء راسيا بذلك القاعدة لانجاز عمله الكبير الثاني: خريطة



اليمن، أساس كل الابحاث الجغرافية عن المنطقة لفترة المئة سنة اللاحقة. كذلك استمر فورسكال في جمع النباتات. من بينها اصناف متعددة تجهلها العلوم الاوروبية جهلا تاما، كما استطاع ان يجد شجيرة البلسم العربي التي يستخرج منها بلسم مكة، الشهير في ارض كنعان وفي الشرق كله. ولم تكن اوروبا تعرف الى اي نوع من النباتات ينتمي حتى ذلك الحين.

ويبدو من خلال مذكرات «نيبور» ان أعضاء البعثة كانوا على مايرام على الاقل في بداية اقامتهم في اليمن السعيد. كما كانوا يتمتعون بحرية الحركة وبالاحساس بالامان. ولم يلاقوا من السكان نفورا مثلما حدث لهم في تركيا أو في مصر. وقد كتب «نيبور» يقول ان على الرحالة ان يعلم بان الرحلة متعبة. غير انها ليست اكثر ارهاقا من تسلق الجبال.

وقد بدأت المتاعب بعد ترك بيت الفقيه. ومنها حادثة «مخا» المضحكة والمبكية في نفس الوقت، والتي وصفها «نيبور» في مذكراته بالتفصيل: بعد وصول البعثة مساء ٢٤ نيسان/ ابريل الى مخا كان من الضروري تفتيش المتاع الذي وصل من لحية مباشرة وبحضور حاكم المدينة. ورغم ان اعضاء البعثة طلبوا البدء في التفتيش بادوات المطبخ وبالاغطية حتى يتمكنوا من ان يناموا بعد ذلك، فان التفتيش بدأ بادوات العمل. وكان من بينها برميل صغير به اسماك من الخليج العربي. وقد رجا السيد «فورسكال» المفتشين بالا يفتحوا البرميل لانه كان ممتلئا بالكحول ولان رائحة الاسماك التي فيه ربما تكون غير محتملة على الاطلاق. غير ان المفتش اصر على فتحه وبعد ذلك اخرج منه الاسماك وقلب فيه بواسطة عصاه الحديدية كما لو انه كان يتصور العثور على اشياء ثمينة بداخله. وبرغم توسلات اعضاء البعثة، فان المفتش قلب البرميل رأسا على عقب. وهكذا امتلا المكان برائحة الكحول والاسماك العفنة. اما القواقع التي كانوا قد لفوها بحرص شديد، فقد نزعت لفائفها، ومزق البعض منها بواسطة العصا الحديديّة المدببة. وربما لم يكن العرب يتصورون ان بامكان انسان عاقل جمع مثل تلك الاشياء ولذا فانهم تصوّروا أن أعضاء البعثة احضروها بهدف السخرية من الموظفين بل ومن الحاكم نفسه. واعتقد اخرون ان هناك أشياء ثمينة مخبأة بينها وان اعضاء البعثة قد سحروهم بحيث انهم لم يعودوا قادرين على رؤيتها. وبدا الحاكم غير مبال تماماً بما يحدث. وفي نهاية التفتيش أحضر صندوق مخصص لنقل القناني كان فورسكال يحتفظ فيه بنماذج من الثعابين المختلفة والتي كان قد قام بتحنيطها. واثار هذا أيضاً استغراب المفتشين ودهشتهم. وعندئذ قال احد عبيد الحاكم اوخدمه ان الفرنج قد جاؤوا الى اليمن لتسميم المسلمين. وحتى تلك اللحظة، لم يصدر عن الحاكم اي غضب او اي سخط. كان يبدو مشفقا الى حدّ ما على اعضاء البعثة، غير انه لمّا سمع ان الناس قد يكونوا في خطر حتى ثارت ثائرته وهاج وماج وقال: «والله لن يبق هؤلاء الناس ليلة واحدة في مدينتنا». ويضيف فورسكال في تقريره الى لينيه: لكنه ـ اي الحاكم ـ غيّر رأيه في النهاية بعد ان اقنعه اصدقاؤنا بواسطة الهدايا الثمينة بحسن نوايانا. وهكذا انجلى عنه الاعصار الذي اجتاح نفسه. ان الجهل هو بالفعل أساس لحماقات كثيرة».

وراحت المصاعب تشتد امام اعضاء البعثة. وسرعان ما واجهتهم الملاريا التي راحت تحصدهم الواحد بعد الآخر.

مصاعب

توفّي اثنـان من اعضـاء البعثـة اثـر عودتهـما في نهاية نيسان / ابريل ١٧٦٣ الى منطقة الساحل. وهما فون هافن (٢٥ مايو/ أيار ١٧٦٣) في مخا وفورسكال (١١ يوليو١٧٦٣) في جريم. وقد ذهبا ضحيـة نوع خاص من المـلاريـا اشتهـر اليمن بشـراسـتـه. وكـان فورسكال في طريقه من جريم الى صنعاء عندما باغته المرض.

ويحـاول نيبور ان يخفي حزنه على صديقه فورسكال بالذات وراء تقـريـره المـوضوعي عن الحادثة: «لقد حزنا حزناً شديداً على فقـدانـه ذلـك انـه كان اكثـرنـا إجـادة للغـة العربية بل وللهجاتها المختلفـة بسبب اختـلاطـه بعـامة الناس اثناء جمعه للنباتات. وفي بعض الاحيـان كان يقـوم بدور المـترجم لنـا. وكـان مهتـمّا شديـد الاهتمام بتسهيل امور الرحلة علينا، الشيء الذي اقنعني بانه كان اكثـرنـا صلاحيـة للسفـر الى بلاد العرب. وقد تعود على اسلوب حيـاة السكـان الاصليـين بسـرعـة مدهشة. وهذا شيء ضروري للغاية بالنسبة لمن يريد قطع بلاد العرب مستفيدا ومستمتعا في آن واحد.

وقـد قرّر اعضـاء البعثة الاخرين بعد زيارة العاصمة صنعاء ان يغـادروهـا الى مخا ليستقلوا بعـد ذلـك المـركب الى بومبـاي، محاولـين تجنب السـاحـل اليمني المـوبـوء بالمـلاريا، قاطعين بذلك رحلتهم التي كان من المتـوقـع ان تمتـد عامـين اوثلاثـة. ويسرد لنا نيبور أسباب قرارهم ذاك قائلاً: «استقبلنا في صنعاء استقبالا طيبا للغـايـة بل ان كثـيرين من اهل البلد الخيرين حاولوا اقناعنا بالبقاء بينهم وذلـك بترك المـراكب الـبريطـانية تقلع بدوننا. وكان بودنا ان نستجيب الى دعـوتهم تلك. غير ان وفـاة زميلينـا جعلتنا عاجزين عن مواصلة دراستنا الطبيعية واللغوية.

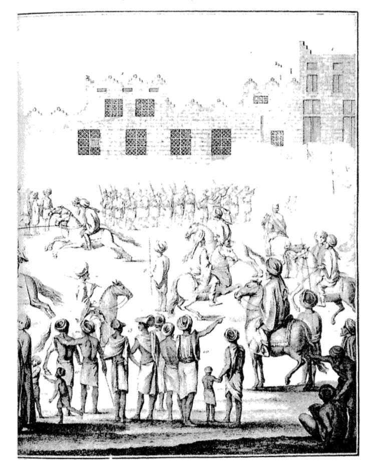
اما انا فقد كنت زرت من قبل العدد الاكبر من مدن المملكة الصغـيرة كما اني وضعت خريطـة اسـاسية لليمن. وخوفا من تكـرّر المصـاعب والعـراقيـل والمضايقات، ومن الامراض التي يمكن ان تصيبنا من جراء تغير الجو والهواء والماء وبسبب الفروق بين السهول والجبال قرّرنا الاقلاع الى الهند بهدف تأمين حياتنا ومذكراتنا واوراقنا.»

اقلعت السفينـة من مخا في ٢١ اغسطس، لكنهـا كانت قد تأخـرت: ففي خلال السفـر اودت المـلاريـا بكـل من باورنفـايند وبرججرين، وتبعهما كرامر في فبراير ١٧٦٤ في بومباي، ولم يبق الا نيبـور، مرهقـا ومـريضـا واستغرق وقتا طويلا للشفاء من المرض، ونراه يفسر ذلك على انه انذار وتحذير الهي فيقول: «أكاد أيأس من رؤيـة اوروبـا مرّة أخـرى. لقـد قرّرت ان التـزم البقـاء على قيـد الحيـاة. وإذا ما أنـا متّ أيضـاً، فمن يوصـل الاوراق والوثائق الى اوروبا. اني إخاف من انها لن تصل على الاطلاق. ومخاوفي هذه هي التي جعلتني أقـرّر السفـر في احـدى السفن المبحرة من بومباي الى لنـدن». ويستغـل نيبـور فرصة وجوده في الهند ليزور في مارس ١٧٦٤ مرفأ صرات التجاري في شمال الهند. ويكتب في مذكراته:

«كنت مريضـا جداً الى درجـة اني لم اتمكن من الشـروع في رحلة العـودة. وهكـذا اضطررت للبقاء في بومباي طيلة موسم الامطار. وقـد قررت ان اعـود عبر الطـريق المرسوم لي والذي يمر من البصرة وذلك حالما أتعافى. لقد ارسلت الان كل العينات وكل الوثائق التي جمعناها خلال رحلتنا. وانا الان اشعر بالاطمئنان».

رحلـة العـودة

غادر نيبـور بومبـاي بعد ان اقام بها أكثر من عام بأكمله وكان

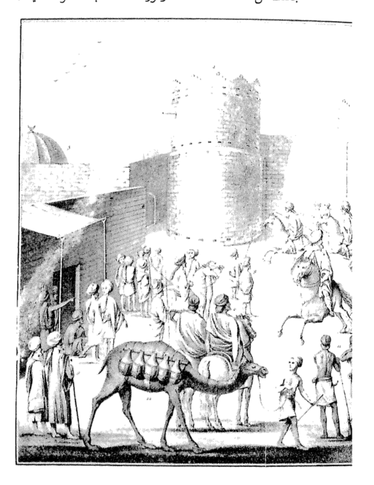


ذلـك في ديسمـبر ١٧٦٤، ورحـل شمالا عن طريق عمان والخليـج العـربي، وفي ميناء بوشهـر الفـارسي شاهد الاستعدادات قائمة على قدم وسـاق لتسيـير قافلة الى شيراز، فانتهـز الفـرصة ليحقق حلما قديـما من احـلامـه وهـويقـول: (بـالـرغم من رغبتي الجامحة بالعودة الى اوروبا الا انني لم أرغب في ان تفوتني فرصة السفر الى شيراز ومشـاهـدة اطـلال برسيـوليس على مسـيرة يومين منها وهكذا قرّرت الـرحيـل مع القافلة في ١٥ فبراير الى داخل البلاد، وبقيت

تمارين حربيّة عربيّة.

مرتديا ثيابي الاوروبية التي كنت قد اتيت بها من الهند في طريقي الى برسيوليس، لكني قاسيت الامرين من السفر مع القافلة بتلك الثياب القصيرة الضيقة).

امضى نيبور ثلاثة أسابيع في أطلال ذلك القصر الملكي، وكان الاسكندر الاكبر قد اشعل فيه النيران انتقاما من غريمته امبراطورية فارس القديمة. وهنا يقوم نيبور بثالث انجازاته العظيمة، فينسخ كل النقوش المكتوبة بالخط المسماري بدقة فائقة جعلت من نسخته قاعدة لفك رموز هذا الخط بعد سنوات قليلة.



غير ان هذا الانجاز كان على حساب صحته ذلك انه لم يراع انعكاس الشمس على المرمر الشيء الذي اتعب عينيه وتسبب في اصابته بالعمى في الشيخوخة. ويقول ابنه بهذا الصدد:

(ان صورة هذه الاطلال انطبعت في ذهنه طيلة العمر، فكانت هي الجوهرة بين كل الحجارة الثمينة التي شاهدها في رحلته).

وصل نيبور في اغسطس ١٧٦٥ الى البصرة وتابع رحلته منها برا عبر العراق حتى بغداد التي وصلها في يناير ١٧٦٦. وانضم هناك الى عدة قوافل نقلته الى الموصل ومنها الى حلب التي غادرها الى قبرص بناءً على تعليمات القنصل برنستورف لكي ينسخ نقوشا كان يعتقد انها فينيقية الاصل. وانتهز فرصة وجوده في المنطقة ليزور الاماكن المقدسة، فقاده طريقه مرة اخرى الى حلب مارا بدمشق في أغسطس ١٧٦٦، وقد اقام فيها حتى نوفمبر ليغادرها بصحبة قافلة الى القسطنطينية، التي وصلها بعد شتاء قارس في فبراير ١٧٦٧، وهناك رسم خارطة للمدينة كان المرض قد منعه من رسمها خلال زيارته الاولى لها قبل اكثر من خمس سنوات. وبعدها ادار ظهره للقارة الاسيوية عائدا الى اوروبا عن طريق البر، عبر بولندا وشمال المانيا، وقد توقف في مدينة جوتنجن وزار بعضا من اسرته في قرية التنبورج وهي القرية المجاورة للقرية التي ولد فيها. ووصل كوبنهاجن في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧، وبادر الى تنقيح ملاحظاته ونتائج تأملاته خلال الرحلة ليعدها للنشر في كتاب.

وتقلد في عام ١٧٧٨ منصب سكرتير الاقليم المسؤول عن جمع الضرائب واستقر في بلدة ميلدورف حيث توفي في عام ١٨١٥.

وعندما عُرض عليه ان يُرفع الى مصاف النبلاء رفض العرض قائلًا: (من يقبل مثل هذا العرض لابد وانه يحس بان اصله ليس بالنبل الكافي).

نتائج الرحلة

بامكاننا تصنيف نتائج الرحلة الى مجموعتين: هناك الاشياء العينية التي جُمعت خلالها وأرسلت الى كوبنهاجن، أصناف مختلفة من الحيوانات والنبات، مع عدد من المخطوطات العبرية والعربية وهناك المشاهدات المدونة كتابةً والرسومات والخرائط، والكتب التي طبعت على اساسها.

نرى ان البعثة قد تمكنت من الاجابة على العديد من الاسئلة المطروحة عليها قبل مغادرتها الدانمارك. تطالعنا الاجابة على الاستفسارات اللغوية في مقدمة كتاب نيبور (وصف بلاد العرب) بينما نجد الاجابات على الاسئلة في المجالات العلمية المختلفة متناثرة في نفس الكتاب. وظهر فيما بعد ان بعض نتائج الرحلة له ابعاد تاريخية، مثال الخرائط التي رسمها نيبور ونسخه للخط المسماري، وايضا انجازات فورسكال في علمي النبات والحيوان. اما المخطوطات المقتناة من فون هافن فوضعت الاساس لمجموعة المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية، حيث ان هذه المجموعة لم تكن تحتوي سوى على عدد بسيط من المخطوطات قُدمت كهدايا للمكتبة ومازال جزء كبير من مخطوطات فون هافن موجودا بها ويستخدم لاغراض البحث العلمي.

فقرات من القرار
الملكي والتعليمات الموجهة فيه الى أعضاء البعثة

١) يجب أن تدوم إقامتكم في اليمن السعيد من عامين الى ثلاثة اعوام وعليكم ان تركزوا أولا وقبل كل شيء على إجادة اللغة العربية والتحدث بها، فبدون هذا لن تتمكنوا من تحقيق الأهداف المحددة من قبلنا.

وعليكم القيام بالتمرينات الخاصة باللغة العربية خلال رحلة البحر ليسهل عليكم اكتسابها وبذلك يخف عنكم ملل رحلات البحر.

٢) على كل مسافر أن يضع لنفسه كرّاسات خاصة به يدون فيها يومياته وإلّا يرتكز على ذاكرته فقط وعليه ان يكتب ملاحظاته في نهاية كل يوم واذا ما صعب عليه فعليه ان يدونها عند نهاية كل أسبوع.

٣) من واجب كل أعضاء البعثة ان يتحلوا بأقصى درجات الأدب تجاه سكان بلاد العرب، وعليهم ألا يجادلوهم في دينهم أو يسخرون منه حتى في ما بينهم وبين انفسهم.

كما عليهم أن يتركوا جانبا كل ما قد يضايقهم، وعليهم الحذر كل الحذر من القيام بأي شيء قد يوحي للمسلمين غير المتعلمين بأن هدفهم هو التنقيب عن الكنوز أو ممارسة السحر أو جمع المعلومات التي فيها اساءة الى البلد. كما أن عليهم الا يستثيروا غيرة العرب المتأججة ابدا والّا يتصرفوا بما قد اعتادوا عليه من تحرر أوروبي تجاه النساء وبالرغم من أن هدف هذه التعليمات لايمكن ان يكون التنبيه الى المبادىء الاخلاقية العامة فإننا نحرم عليهم تحريما باتا اقامة أية علاقة حب غير شرعية مع النساء سواء كن متزوجات أو غير متزوجات، مما قد يؤجج نيران الثأر في صدر الشرقي.

كما عليهم ان يتجنبوا الشتائم حتى ولو استفزوا والّا يدافعوا عن أنفسهم بالضرب في حالة وجودهم تحت حماية السلطة المدنية ذلك اننا نعلم خطورة مثل هذا التصرف في البلاد التي يسود فيها دين الاسلام. حيث يعاقب على شتم المسلم بالاعدام.

وبما أن مثل هذا التصرف سيضر بأعضاء البعثة الآخرين فإننا لا نحذر منه فقط وإنما نمنع مثل هذا التسرع الأرعن منعا باتاً. ومن يتصرف ضد هذه الأوامر ويصاب بالضرر من جراء ذلك، فسنتركه يواجه مصيره وحيداً ولن نلزم أعضاء البعثة الآخرين بالاهتمام بأمره لما في ذلك من خطر عليهم.

أمثلة من الأسئلة المصاغة من ميشائليس وإجابات نيبور عليها في كتاب (وصف بلاد العرب)

السؤال رقم ٣٢:

بما ان بلاد العرب هي موطن الجراد فمن المؤكد أن البروفيسور فورسكال سوف يزودنا بوصف دقيق للجراد العربي حتى ولو لم نطلب منه ذلك صراحة.

لكن رجائي هو مراقبة الظواهر التالي ذكرها بالتحديد: هل يؤكل الجراد؟ وإن نعم فأية أنواع منه هي الصالحة للأكل؟ وما هي طريقة إعداده؟ أي الأجزاء التي تؤكل؟

نيبور: ان الجراد موجود بكثرة في بلاد المشرق، وان كان ليس بالكثرة التي نتخيلها في اوروبا. (سؤال ميشائليس رقم ٣٢)، ويأكل العرب الجراد الرحال، وكان السيد فورسكال قد ذكر ان لهذا النوع وجود في ألمانيا كذلك. واذا ما بعض الاوربيين يستغربون أكل العرب للجراد، فان هناك من العرب من يستغرب حُبّ الاوروبيين للمحار والجمبري وسرطان البحر.

نشاهد الجراد يعلق على فُتل ويباع في الأسواق في جميع المدن العربية من باب المندب وحتى البصرة. وطرق إعداده مختلفة، رأينا غربيا من مصر قذف بالجرادة على الفحم المشتعل عندما طلبنا منه أن يأكلها على مشهد منا فلما نضجت أمسك بكل جرادة من رأسها وساقيها الأماميتين وأكلها في مرة واحدة. واذا ما كان الجراد كثيرا، فان العرب يحمّرونه أو يجففونه أو يطبخونه وياكلونه بالملح.

السؤال رقم ٣٩:

يتردد ذكر الذهب العربي في الكتاب المقدس ولدى المؤرخين الاغريق، ولذا نرجو التأكد من:

١) هل هناك كميات كبيرة من الذهب حتى الآن في بلاد العرب؟ أم أن هذه البلاد تفتقر الى الذهب كما يظن البعض من أصدقائي بحيث أن ثرواتها المشهورة في الماضي كانت قد أتتها من الهند أو افريقيا ولم يكن مصدرها محلياً؟



تمثال معادي كارب ـ تمثال برونزي لأمير سبأ (السادس قبل الميلاد). ويعدّ هذا التمثال احد اهم التماثيل المجسّدة للحضارة اليمنية القديمة بالنسبة للالمان. وقد اعادوا تصميمه في «المتحف المركزي بماينس».

نيبور: قد يكون الاغريق وجدوا الكثير من الذهب في بلاد العرب سابقـا أما حاليـا هي خاليـة تماما منه وكان إمام اليمن قد أمر منذ سنوات قليلة بصك عملة صغيرة من الذهب. لكن الذهب المحلي لم يكن ليفي بهذا الغرض فصهرت عملات أجنبية لتنفيذ الأمر الملكي....

ويطالعنا الذهب في المدن التي تزدهر فيها التجارة وموطنه ليس فقط الحبشة وإنما هناك كميات تأتي من البندقية عبر سوريا وبالذات عبر مصر وبها تؤدي أثمان البن والأقمشة والتوابل القادمة من الهند، حتى أن العرب كثيرا ما سألوني ان كان سكان البندقية هم الوحيدين الذين يمتلكون مناجم الذهب في اوروبا. بل أن من بينهم من يعتقد ان هناك سرا ما لانتاجه.

السؤال رقم ٨٦:

لو لاحظ الملازم نيبور بأن الرجل العادي في داخل بلاد العرب يعطي النجوم أسماء غير مذكورة في معاجمنا فاننا نرجو منه تدوينها والتمعن في تصورات العرب وخرافاتهم الدائرة حول النجم المعني بالأمر.

نيبور: إن الضرورة المحضة وافتقاده للساعة علما الشرقي العادي مثله في ذلك مثل الفلاح الأوروبي ان يُراقب مدار الكواكب خصوصا وأنه ينام في العراء. وهو مثل الاوروبي العادي يمنح النجوم اسماء مختلفة عن اسمائها العلمية. وليس في لغة العرب أسماء للأبراج السماوية والنجوم تشابه تسمياتها العبرية مثلما نعرفها من سفر أيوب.

رحلة ادوارد جلازر الى اليمن السعيد: رحّالة في ثياب قاض

ولد ادوارد جلازر عام ١٨٥٥ في النمسا. وكان والده يرغب في ان يعمل في مكتب للتجارة حينما بلغ السادسة عشر من عمره، غير ان جلازر فضل الذهاب الى براغ لمواصلة دراسته فيها على ان يكسب قوته اليومي باعطاء الدروس الخاصة. وفي تلك الفترة شرع في تعلم اللغات الاجنبية المختلفة. وفي يوم من الأيام شاهد مجلة في احدى المقاهي بها وصف لرحلة ليفنجستون، فقرّر ان يصبح بدوره عالماً ورحالة وان يتعلم اللغة العربية وان يدرس علم الفلك والعلوم الطبيعية والرياضات وعلم مسح الارض (التوبوغرافيا). وفي عام ١٨٨٢، رحل الى تونس ليصقل لغته العربية، وغادرها في نفس العام متوجها الى اليمن عبر مصر وجده.

كان جلازر رحالة وصحفياً في نفس الوقت. وقد قام بدراسات أثرية ولغوية واتنولوجية مهد بها الطريق لكل الذين رحلوا الى اليمن في ما بعد. ومازالت المعلومات الجغرافية في اعماله مهمة الى حد اليوم. وننشر هنا مقتطفات من وصفه لرحلته الى صنعاء ومأرب.

السبت ١٧ آذار/ مارس ١٨٨٨: قررنا ان نبدأ رحلة العودة اليوم وكان يصحبني الى جانب الأمير، أخوه الشريف محمد والشيخ، وخادمي صالح الجوفي وعلي السعودي. وكنت متنكراً في زي فقيه أو قاض مسلم. وهو دور كنت قد استعددت له استعدادا جيدا من قبل. فلقد كان هناك مواطن خير ومؤمن من مواطني صنعاء يتسلل كل ليلة الى منزلنا في الخفاء، ودون ان يلاحظه الخدم، ويعطيني دروساً في الصلاة والوضوء وإمامة الصلاة، والقاء خطبة الجمعة. كما كان يعلمني الحيل والاعذار المختلفة المسموح بها للمسلم لكي يرفض الامامة أو القاء خطبة الجمعة.

وأحضر لي شيئاً فشيئا قطع الثياب المختلفة اللازمة ودون ان يثير انتباه احد. وكانت ملابس شيخ في غاية من التواضع اختارها من خزانة ملابسه. لكن حذاري! فلا يظن احد ان تقمص دور مثل هذا ممكن دون موافقة البعض من المواطنين من الخاصة. اقول هذا لكي لا يعتقد من يري نفسه في اوروبا عالما أو متبحراً في اللغة العربية انه باستطاعته لعب دور المسلم البسيط. فكل كلمة وكل فكرة وكل حركة وكل تعبير يشي بحقيقة الأوروبي.

الخميس ٢٢ مارس ١٨٨٨

تجولنا بعد الظهر لأول مرة في القرية بهدف نسخ بعض النقوش. وكنا قد اتفقنا على ان يطلب مني الأمير أو السيد نسخ النقوش كلها طالعهم واحد منهم. وعندما قلت أنني لا أفقه هذا الشيء ولا معنى ما هو منقوش أمامي، دفعني السيد قسرا الى الحجر المنشود قائلا: «انسخ يافقيه، فما لغرض آخر أحضرناك معنا الى مأرب، أما معنى هذا النقش فسوف أشرحه لك ان استحسنت ذلك». وكانت هذه الاحتياطات ضرورية فعلاً في الأيام الاولى، لأن سكان القرية كلهم والبدو من المناطق المحيطة بها أتوا افواجا ليشاهدوا ما يَصْنعه السيد الفقيه. ورفع الآباء الأبناء على اكتافهم ليرضوا فضولهم، وحتى النساء تجمعن في البيوت المحيطة ليشاهدن من الشرف والنوافذ هذا المنظر العجيب.

ومن البديهي أن تجمعا غفيرا من البشر كان ملتفا حولي يزاحمني أمام الأحجار. فلم تكن مأرب قد عرفت مثل ذلك من قبل. ولقد تأسفت شديد الاسف لاني تعلمت في شبابي التاريخ الطبيعي مضطرا، ذلك اني لم استمد من دراسته اية معلومات تفيدني في الحياة اليومية. وكم كنت معجبا بالطبيعة التي تعطي دورسها عن طيب خاطر لكل فتى من فتيان البدو. وكنت اراقبهم بأحاسيس هي خليط من الخجل والتحسر، فحتى أصغرهم كان يعرف اسم كل شجرة وكل شجيرة وكل عشب وكل عصفور يطير فوق رأسه، بل كان يعلم اسم كل نهر يعبره وكل حجر يتعثر فيه. وكثيرا ما فكرت في ما بيني وبين نفسي:

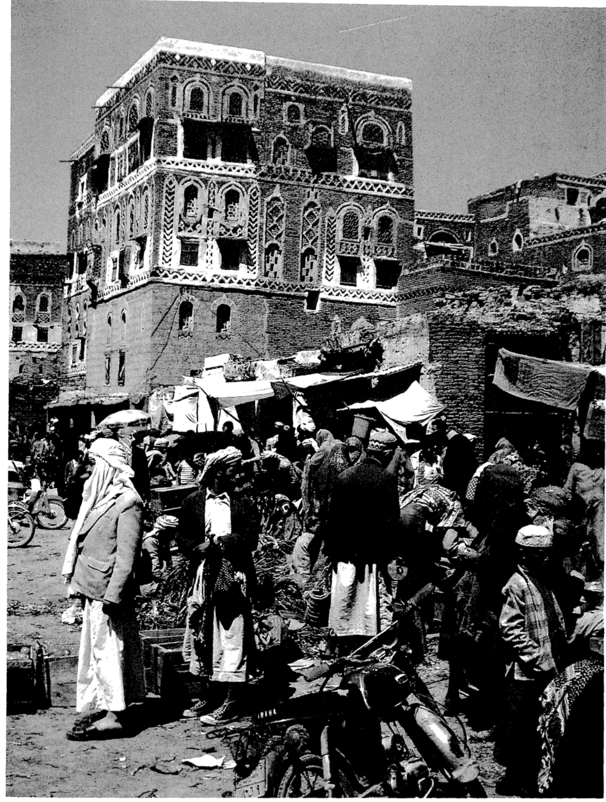
«أيا الهي، أما كنت تمن علي بأن أمضي أنا أيضا حقبة شبابي الذهبي في أحضان الطبيعة الحرة الجميلة حتى أظل محتفظا باسم كل عصفور وكل زهرة.



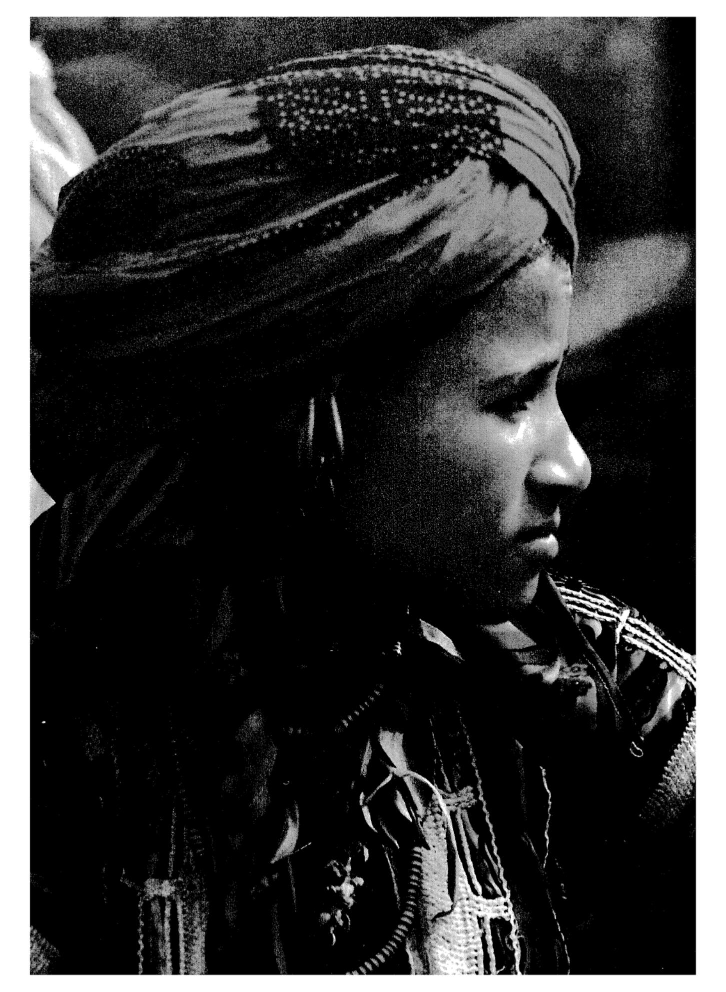
ادوارد جلازر (١٨٥٥-١٩٠٨).



هارمن بورخارت الذي كان أوّل من اعد صورا عن بلاد اليمن صحبة معلمه العربي احمد بن محمد الشرّادي. (صنعاء ١٩٠٧)
وقد قتل صحبة جمع من رفاقه خلال رحلته الثالثة الى اليمن.



سوق في احدى شوارع صنعاء القديمة

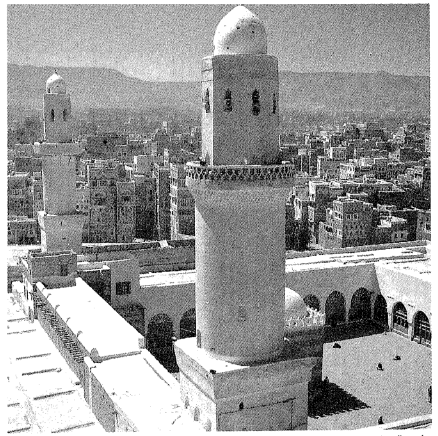


انقاذ مخطوطات قرآنية نادرة

علماء الاثار الالمان يشرفون على العملية

اليمن السعيد غني بالمخطوطات العلمية النادرة. ويتأكد هذا من خلال عملية العثور على اربعين الف مخطوط قرآني. يروي تفاصيل هذه العملية، القاضي اسماعيل الاكوع، رئيس الهيئة العامة للاثار ودور الكتب قائلاً:

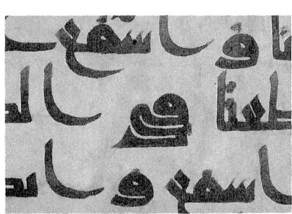
«فلما تولى القاضي حسين بن احمد السياغي وزارة الأوقاف في العهد الجمهوري سنة ١٣٨٥ هجرية (١٩٦٥)م نزلت أمطار غزيرة فخر سقف الجامع من المكان الذي تقع فيه الخزانة فأمر بافتقاد السقف، ومعرفة ما يحتاج الى إصلاح فيه ففتح عمال البناء تلك الخزانة فوجدوها مكتظة بأوراق الرق والجلود المكتوبة بالخط الكوفي، وقد تسربت اليها بعض مياه الأمطار من الكوة المفتوحة والتي تدخل منها الحمام فتعشعش فيها، ووجدت هناك ثعابين كثيرة كانت تعيش في تلك الخزانة وتصطاد الحمام والعصافير فقتل العمال منها ماظفروا به منها وفر منها مافر. وقد أصلح الخلل الذي كانت المياه تتسرب منه الى الجامع، وأعيد وضع الخزانة الى ما كان عليه بعد أن اخذ القاضي حسين بن احمد السياغي مجموعة من تلك الأوراق القرآنية ما ملأ خمسة أكياس أو أكثر من ذلك وأبقاها في



الجامع الكبير في صنعاء

خزانة الأوقاف، ولكن أمينها السابق غير الأمين تصرف بها بالبيع لهواة جمع نوادر المخطوطات والتحف، وخرجت من مواطنها فتفرقت في بلدان العالم، وقد رأيت بعضها في احدى المكتبات في دول الغرب (٢٦) ثم مرت سنون وحصل في الجدار الغربي للجامع خلل فيه إذ تزحزحت احجاره عن مواضعها قليلا الى الخارج، ويقال لمثل هذه الحال في صنعاء: كَرَّش الجدار، فلما خشي عليه من السقوط بعد أن كاد ينقض عزمت وزارة الأوقاف في عهد وزيرها القاضي علي بن عبد الله العمري سنة ١٣٩٢هـ





مخطوطات قرآنية نادرة

(١٩٧٢)م على نقض هذا الجدار تحت اشراف الهيئة العامة للاثار ودور الكتب التي سارعت قبل نقضه بتصويره وترقيم أحجاره حجرة حجرة لمعرفة مكان كل حجر عند إعادتها وقت البناء الى موضعها. وكان لا بد من إزالة تلك الخزانة التي تقع في مقدم سطح الجناح الغربي قبل البدء بنقض الجدار، وحينما رُفع سقفها وجدت أكوام كثيرة من صفحات القرآن الكريم فكلفت المهندس احمد حسين السياغي مدير المتحف آنذاك بجمعها وحفظها في أكياس كبيرة فملئت قرابة عشرين كيسا، وأمرت بنقلها الى المتحف الوطني لحفظها حتى نبتّ في أمرها، ولما عرفت ان كمياتها تتناقص شيئاً فشيئا على يد من أؤتمن عليها أمرت بإعادتها الى الخزانة الغربية في الجامع الكبير.

ولما زرت تونس في نيسان سنة ١٩٧٩ رتب لي المعهد القومي للاثار زيارة مدينة القيروان لمشاهدة جامعها الشهير: جامع عقبة بن نافع رضي الله عنه، وشاهدت فيه مجموعة منتقاة مما في حوزته من المخطوطات القرآنية الكوفية قد نُضدت ووضعت في أمكنة بارزة فقلت في نفسي: ولماذا لا نهتم بما تملك اليمن من هذه الثروة العظيمة!»·.

شرع علماء الآثار الالمان في المساهمة في عملية إنقاذ المخطوطات الوارد ذكرها عام ١٩٧٦ وذلك بعد اطلاع الاستاذ «البرخت نوط (Albrecht Noth) عليها خلال زيارة له الى صنعاء.

وتمّ ذلك بموافقة قسم العلاقات الثقافية في وزارة خارجية المانيا الاتحادية اعتماداً على اتفاقية بين الحكومة الالمانيةوالجمهورية العربية اليمنية بخصوص ترميم وتبويب المخطوطات العربية. وقد امضيت الاتفاقية بين الحكومتين المذكورتين يوم ٢٧ مارس/ آذار ١٩٨٠.

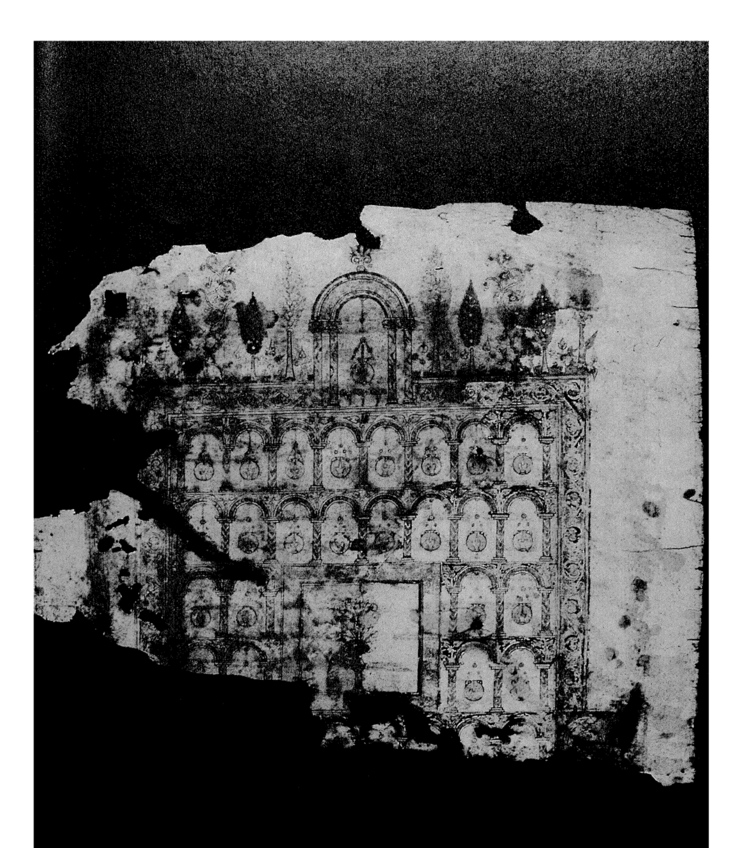
تحتوي المخطوطات على ٧٥٠ مصحفاً مكتوبة على الرق وعلى ٣٥٠ مكتوبة على الورق. ويؤكد علماء الآثار انها تعود كلها الى الخمسة القرون الاولى من الاسلام. بل ان البعض منها ربما يكون من اولى المصاحف التي ظهرت. وجلّها مزوّقة ومزخرفة بالذهب وبمواد نادرة.

والان وبعد ستة أعوام من العمل، بدأ علماء الاثار المكلفون بعملية الترميم والانقاذ يقتربون من نهاية الاشغال التي استعملوا خلالها أحدث اساليب التقنية الحديثة. ومن الاكيد ان عملية الترميم هذه وكما يؤكد ذلك علماء اثار مرموقون، سوف تضيف معلومات جديدة حول المخطوطات العربية الاسلامية، كما انها سوف تعمق معرفتنا بأشياء لاتزال مجهولة في مراحل من التاريخ العربي الاسلامي.

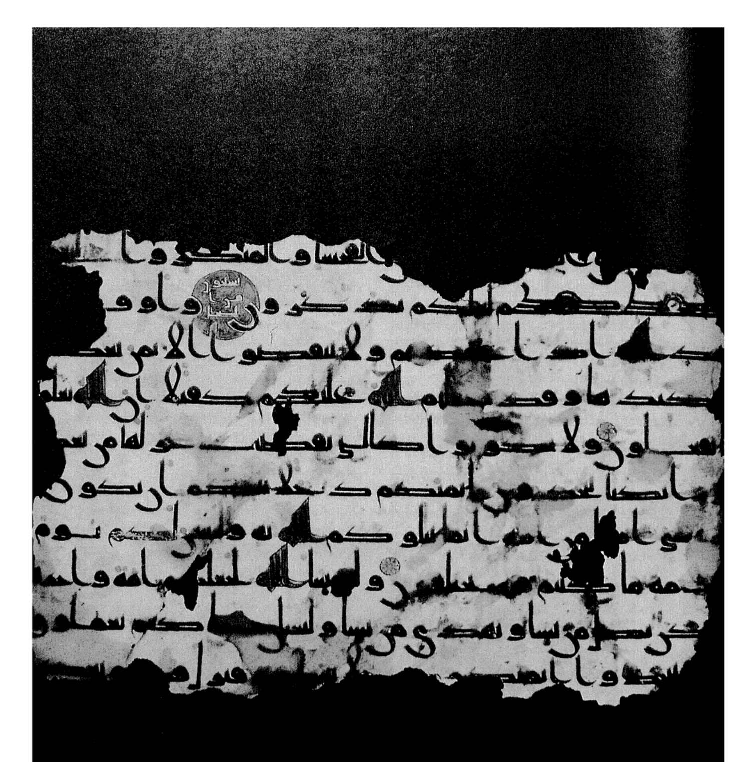
ومعلومٌ ان علماء الاثار الألمان لهم تقاليد تاريخية عميقة بخصوص المخطوطات العربية الاسلامية وخاصة المصاحف القرآنية. ويعود الفضل في ذلك الى الترجمة الممتازة التي قام بها «رودي بارات» (Rudi Paret) للقرآن.

وسوف يحاول العلماء المشرفون على عملية الترميم العثور على مصادر المخطوطات المذكورة خاصة وأنها مكتوبة بخطوط مختلفة.

أول من أشرف على عملية انقاذ المخطوطات المذكورة كان د. جارت بوين (Gerd Puin) من جامعة «ساربريكن» (Saarbrücken) الذي عمل بمساعدة عدد من الاساتذة اليمنيين. وبعده كلف السيد «هانس غاسبار غراف فون بوتمار (Hans-Caspar von Bothmer) الذي ظل مشرفا على العمل الى حدود ١٩٨٦. والآن تشرف على مواصلة أعمال الترميم والتوثيق السيدة أورسلا درايبهولتس (Ursula Dreibholz) التي تعمل في جامعة «ساربريكن» (Saarbrücken).



تمثل الصّورة مسجدا. ويمكننا ان نشاهد الباب والمحراب وبعض الاشجار والزهور. وتعود هذه الصورة النادرة الى العصر الاموي.



نسخة من القرآن مكتوبة
بالخط الكوفي
(متحف الوثائق ـ صنعاء).

في العلاقة بين الشّفوي والمكتوب

هاينز شلافر

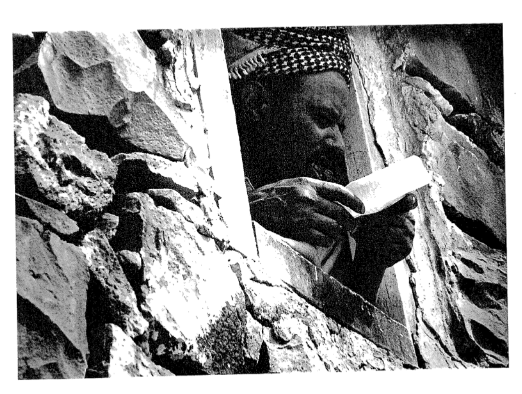
تساعد التغييرات على نقل الأفكار. ومنذ ان تراكمت الدلائل والتكهنات التي تشير إلى أن الكتابة ستفقد مكانتها البارزة بوصفها تقنية الاتصال، اتجهت الأنظار بشكل لافت للنظر الى نشأة الكتابة ونتائجها ذات الأثر الثقافي.

إن من يراقب اليوم عن كثب ما ينفق على التكنولوجيا لأحلال الاشارات الرقمية والرموز الصورية محل الحروف الكتابية، ومن يراقب أيضاً النتائج الحتمية الثقافية لاستبدال الكتابة والقراءة بالرؤية والسماع المنقولين بطريقة اصطناعية يهتدي، بصورة أسهل من العصر الذي كانت فيه الثقافة الحرفية أمراً بديهيّاً، الى تحليل تلك المرحلة التاريخية التي يبرز من خلالها الانتقال من الحالة الشفوية البدائية الى الكتابة التحريرية. كان استخدام الكتابة في العصر الكلاسيكي في اليونان مايزال فتياً للغاية، ولهذا لم تكن الكتابة أمراً مسلماً به على قدر كبير، كأن تكون الى جانب الكسب الماثل للعيان خسائر اقترنت بالتقنية الحديثة فباتت ملموسة ومحددة أيضاً.

لقد أتى أفلاطون، الذي حفظ في كتاب محاورات استاذه سقراط التي تلقاها منه شفوياً، بأول نقد لهذا الوسط «الكتابة» فقدم بذلك أول نظرية عن «نتائج الكتابة ذات الاثر الثقافي». ويسرد أفلاطون في مؤلفه فيدروس «Phaidros» إعتراضات سقراط الأربعة على الكتابة:

١ـ انها تضعف الذاكرة نظراً لاعتماد الذاكرة على دعامة خارجية بوساطة دلائل غريبة.

٢ـ تقدم نصاً صامتاً لاغير (لنفترض ان بوسعك الاعتقاد انها، أي الكتابات، تستطيع الكلام كما لو انها تفهم شيئاً، بيد أنك تستنطق هذه الكتابات، وانت شغوف بالتعلم عما تفصح عنه، وبذا تتضمن الكتابات الشيء ذاته دائماً). وهكذا تسلب القارىء



القدرة التي حصل عليها بوصفه مستمعاً لما يقال والمتمثل في توضيح ما هو مكتوب.

٣- تختلف عن الكلام الشفوي، في انها لا تنحصر ضمن نطاق دائرة مختارة بعناية ودقة من المتملقين، وانما تطوف في اذهان اولئك الذين يدركونها واولئك الذين لا يخصهم أمرها.

٤- يكون كثير مما هو مهم في الكلام المكتوب عن أي شيء مجرد لعبة لأن مؤلف الكتابات لا يكون حاضراً، ولذا لا يستطيع بجدية شخصيته الكاملة أن يكون مسؤولاً عن الموعظة التي يقدمها.

افلاطون ونتائج الحرفية

ويستدل من المنهج الافتراض السلبي السابق لنقد أفلاطون على انجازات جوهرية للكتابة:

١- انها تخفف العبء عن ذاكرة الفرد وذلك من خلال التهام مضامين الذاكرة في أرشيف متنامٍ للمعرفة الموضوعية بحيث تكون هذه المضامين قابلة للاستدعاء عند الحاجة.

٢- انها تستطيع بفضل قوامها المادي الاستمراري ومع ذلك القوام المتحرك فك ارتباط علامات تتواصل طويلاً فوق أرضية متنقلة من موضع نشأتها وتصبح ماثلة في أماكن قصية وفي سنوات لاحقة، بيد أنها بحاجة الى الترجمة والتعليق والتفسير لتجاوز الفترات الزمانية والمكانية.

٣- انها بصفة خاصة تكون في صيغة صوتية - أبجدية سهلة التعلم بالنسبة الى كل فرد بحيث تصبح المعرفة المنتشرة من طريق الكتابة سهلة المنال بوجه عام، وتصير بذلك عنصراً من عناصر المجتمع الديمقراطي.

٤- انها نتاج كاتب وضع مسودتها بمفرده، إذ تفتح أمامه فرصة متابعة الأفكار الجديدة بدون أي أزعاج، ويتعرض في الوقت ذاته الى مغامرة الأشراقة الفكرية اللامسؤولة والى الخيال الساحر.

لم تلق النتائج الحتمية للحرفية التي توصل اليها افلاطون اهتماماً واسعاً في الألفي سنة التالية، نظراً لصيرورة الكتابة وسيلة اعتيادية سهلة للاتصال الثقافي، إلا أن استخدامها الفاعل اقتصر على فئة اجتماعية منتخبة حتى بدت مضامينها أمراً بدهياً لا تشكل أدنى خطر. غير أن اكتشاف الطباعة أخل بتوازن «الحرفية المحددة».

وبالنظر الى الانتشار السريع لما هو مكتوب بفضل التقنية الحديثة انتقلت الحجج من محاورة افلاطون عن منفعة الكتابة ومضارها الى المؤسسة الاجتماعية. وازاء امكانات سوق الكتاب التوسعية والحصة المدرسية العامة والمطالعة الفردية استخدمت ادوات الرقابة الصارمة والقرائن. ولم تظهر الافكار الفلسفية الثقافية إلا في القرن الثامن عشر الى جانب جبهات السلطة السياسية ولا تصبح شروط الثقافة الخاصة واعية ومثيرة للارتياب إلا حينما تتعرف على البدائل. لقد حدث ذلك من خلال رحلات الاستكشاف التي قام بها العلماء المراقبون في القرن الثامن عشر واختتمت تلك الرحلات بتقارير الانثروبولوجيا الثقافية. وعلى مايدوكان من ضمن فوارق الحضرات البارزة أستخدام أو عدم استخدام الكتابة، وبصورة أخصّ، الاخبار المستفيضة الواردة في الصين التي اوضحت استخدام نظم كتابية مختلفة. ومن المقارنة الممكنة التي اصبحت بحق مقارنة ملحة للثقافات العصرية مع الحضارات التقليدية تبين جلياً انعكاس الوسط «Medium» الكتابي، كما تفيد اليوم الابحاث الخاصة بالشفوية «Oralität» والحرفية «Literalität» من مثل هذه المقارنات وسرعان ما أصبح تقويم هذين النمطين من الثقافة مثاراً للجدل. وفي الوقت الذي استندت فيه الثقة الى توضيح متواصل لا متناهي، وقبل كل شيء استترت الى ايصال المعرفة من خلال الكتابة والكتاب، قام روسو «Rousseau» بالأجابة عن المسألة الخاصة بجائزة اكاديمية ديجونا بالنفي الذي اتسم بالتحدي عن السؤال فيما اذا كان احياء العلوم والفنون قد أسهم في تطهير الاعراف والتقاليد.

ومنذ مقالة «Discours» ١٧٥٠ اكتشف روسو أوجه الاختلاف بين اهداف الكتابة التي اسهمت في تجريد المجتمع الحديث ومداراته وبين اللغة البدائية (للحالة الطبيعية الحسنة) «Guten Wilden» التي خدمت التعبير الصادق عن الشهوات.

تبدو الكتابة كأنها تغريب للوضع الطبيعي الذي لم تكن موجودة فيه سوى اللغة الشفوية فالكتابة التي يتعين عليها في الظاهر تسجيل اللغة، هي تماماً ذلك الشيء الذي تغيره: انها لا تغير الكلمات، بل الروح، انها تستبدل التعبير بالدقة. حينما يتحدث المرء يعبر عن مشاعره وحينما يكتب يعبّر عن أفكاره. صحيح اننا نتكلم، إلا اننا لم نعد نعيش في ثقافة شفوية - فكل شيء يتسم بالجدية نسجله تحريرياً كالديانة والحقوق والمعرفة، بتعبير أدق، انها تواجهنا دائماً بصيغة مدونة.

هل يفترض ان يكون الكلام المنطوق ذا شأن، على سبيل المثال، في الخطب السياسية أو عند اولاء الشهادات في المحكمة؟.

وعلى هذا النحو فإن الكتابة تسبق الكلام المنطوق بوصفها مُسوَدة أو تتبعه بصيغة محضر. وهكذا يتخلص البلاغ الشفوي كما عهدناه في المسؤولية الاجتماعية الى حد كبير، ويكتسب شكله الناجز في محادثة «Causerie» طريقة غير ملزمة. لا يتعين على المرء في اقصى تقدير استحضار أو انتقاض التعابير الخرافية المنقرضة تدريجياً، إذ تواصل الذكرى التي أصابها الوهن العيش في زمن يكون فيه اختيار المفردة الصحيحة أو المفردة الخطأ بمثابة شيء يقرر المصير. ولا يمكن لمجتمع ما قبل الأدب ان يواصل ديمومته الا عندما يتم نقل قوانين علم الانسان لذلك المجتمع وأدعيته وإقواله المأثورة في السحر بصيغة أمينة من جيل لآخر. ولجعل مثل هذه الاقوال مستديمة وبالتالي متوارثة، قامت الثقافات الشفوية بتغذية جداول الوسائل الحافلة وتنميتها: الوضع المهني للمعنين، إذ تمتلك ذاكرتهم المدربة تقنيات رائعة لفن تقْوية الذّاكرة. تثبيت انسيابية الكلمة بواسطة ايقاعات الجسم المنتظمة (النبض، والتنفس، والخطوة) بحيث يرافق الوزن والغناء والرقص الكلام، ويرسخ في الذاكرة سياقه على نحو أيسر: توحيد انماط التعابير بصيغ تتسم

بالتكرار: التقسيم الثابت لأساليب الكلام حسب الطول والوزن واللحن والطبقة الصوتية والمناسبة الأمر الذي يؤدي الى تكوين عدد محدود من الاجناس التي تنسجم مع انواع التنظيمات في مجالات الحياة: الالقاء العلني لهذه الخطب الثابتة في ايام المناسبات والاعياد حتى يلمَّ به الجيل الصاعد منذ مرحلة الشباب.

لقد تم اكتشاف عناصر اللغة التي نتعرف عليها اليوم بصورتها الشعرية بوصفها وسائل مساعدة لتقليد يستند الى الذاكرة. وفي هذا المعنى الذي هومعنى تقني يصبح تخمين الرومانسيين، بالاحرى صائباً، ذلك أنّ اللغة البدائية للبشرية كانت لغة شعرية، حقيقة تاريخية، غيرأنه في واقع الحال، كانت الغاية الحقيقية للثقافة الشفوية تأمين المعرفة الاجتماعية وليس إفراز الشعر.

وفي عصر لاحق سادت فيه التقنيات المريحة لحفظ المعرفة تبدو التقنيات القديمة التي اصبحت وسيلة لا ضرورة لها للتعليم اسرافاً غريباً يثير الدهشة وتصعيداً للامكانات اللغوية التي تكتسب اعتباراً جديداً بوصفها شعراً في ظل السحر الذي لا موجب له. ومما لاريب فيه يحتل الكلام المهم المزود بوسائل شعرية مكانة خاصة في الثقافة الشفوية من حيث انه يبين الانحراف عن اللغة اليومية العادية بوصفه اشارة للألهام المتأتية من قوى جبارة. انه كلام عن أومع الآلهة أو العفاريت (اعتقاد يساعد بطبيعة الحال على عدم نسيان النص وجعله ثابتاً.)

وان هذا المظهر لأصالة الكلام الشعري يبث نبض الحياة منذ الآن فصاعداً في اجلال الشعر والشاعر بوصفه «نابغاً» حتى في العصر الذي تسود فيه الصيغة الكتابية. ويرجع أصل مفاهيم الأدب الأوروبي وصيغة ومواده الى اليونان حيث تم هناك تدوين أولى الملاحظات «المذكرات» الكتابية التي كانت حتى ذلك الوقت شعراً شفوياً موروثاً. وفيما عدا ذلك لم يحدث في أي مكان آخر نقل ثقافة الذاكرة لمجتمع تسود فيه الشفوية في أرشيف للكتابة بمثل هذه الصفة الشمولية. وبالنسبة الى هذا الانقاذ المحفوظ كان الظرف هو المسؤول في ان اليونانيين بخلاف الحضارات الراقية الشرقية القديمة لم يعرفوا أية كتابة حتى القرن الثامن قبل الميلاد، ولكن فيما بعد استعاروا أفضل نظام للكتابة آنذاك، أي كتابة المقاطع الفينيقية، ثم قاموا باستكمالها الى أبجدية صوتية أجازت نقل اللغة بحروف أخرى على نحو دقيق لما هومتوافر من احتياطي ثقافة الذاكرة، ذلك الاحتياطي الذي لم يزل كاملاً غير منقوص.

فك ارتباط الشعر والحقيقة.

ظلت الثقافة الشفهية في اليونان، على الرغم من اكتشاف الابجدية، ماثلة على نحو مزدوج: من خلال نفوذها الوحيد الى قرابة العصر الكلاسي ومن خلال توثيقها الشامل والدقيق بفضل اداة الكتابة الصوتية بالذات. ولكن مع ادخالها في القرن الثامن قبل الميلاد الذي فسح المجال من حيث الأساس للتدوين بصيغة نثرية، فقد استغرق ذلك حتى القرن السادس الى ان استبدلت الثيوغونيا «Theogonie» الشعرية لـ«هسيود» (Hesiod) بالنثر الذي اتسم بالعلوم الطبيعية لـ «اناكسيمندرز» (Anaximander) وحتى القرن الخامس الى ان استبدلت الملحمة التاريخية العروضية لـ «هوميروس» (Homer) بالروائع النثرية التاريخية لـ «هيرودوتس» (Herodot) و«ثيوكيدس» (Thukydides).

إن كل ذلك جعل النقاش عن هذين الشكلين للاتصال المعرفي أمراً حتمياً. وعلى اثر حملات الفلاسفة على الشعراء انفك الارتبط المستحكم بين الشعر والحقيقة. لقد وجدت حيثيات ذلك في التدوين التحريري للأساطير الشعرية التي بات محرماً عليها تكييف اقوالها بصمت بالنسبة الى متطلبات ذلك الزمن الحاضر والبقاء «صادقة»: أوبالاحرى كانت نصوص الاساطير معرضة لتقادم الزمن والنقد. ومع ان هذا الاعتراض للتصور الفلسفي ازاء العالم المتعدد الألوان للقصص استند الى التناقض القائم بين الصيغة الكتابية والصيغة الشفوية، إلا انه كان مع ذلك ساري المفعول ولايشكل معياراً سائداً في الثقافة العلنية الشاملة للعصور القديمة. وعلى الرغم من ان افلاطون كان قد كتب محاوراته، إلاّ أن المهة الملقاة على هذه المحاورات كانت في اعادة تقديمها بصيغة محادثات واثارة الاهتمام والحث على تلك المحادثات.

وثمة تناقض مشابه في المسأة الأغريقية. لقد كان ادراكها للدولة المدينية اليونانية (Polis) يكمن في انها عرضت مرة واحدة فقط، بيد ان المأساة ظهرت في كتاب وواصلت ديمومتها في الكتاب حتى وان كانت الحياة الأدبية بالنسبة لتاريخ الادب الأوروبي ذات شأن؛ كما هي الحال بالنسبة للمكان والزمان اللذين لم يكونا على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لتحقيق نشأتها الأصلية.

أرتاب اليونانيون والرومان بامكانات الكتابة الاكثر منطقية وبالاتصال القائم بين المؤلف الوحيد والقارىء الوحيد. والقارىء الوحيد.

لقد تمسكوا بالمثل العليا للعلانية السياسية، التي يستطيع جميع المواطنين الأسهام بها في وقت واحد على الرغم من انهم اكتشفوا مع الكتابة الوسائل التقنية القادرة على مجابهة هذه العلانية. وبالتأكيد، فقد ترتب على هذه التبعية نتائج وخيمة بالنسبة للدولة المدينية اليونانية (Polis) بحيث استطاع الفرد من خلال المطالعة الشخصية وبفضل حيازته على الكتاب، استدعاء ما كان مثبتاً سابقاً في مخيلته ثانية حتى أصبح الوجود الشخصي الذي لايكترث بالاحداث السياسية صيغة الوجود التي تبعث على الرضا.

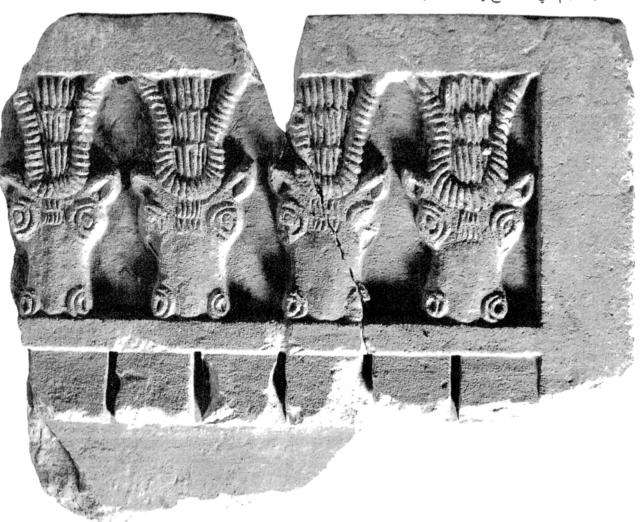
ولاتتحدد العلاقة بين هؤلاء الناس الأفراد المثقفين الا بالتسامح بين القراء الذين يقرأون كتباً شتى وليس بمشاركة المستمعين الذين يستمعون الى الشيء ذاته.

لقد بدا الأمر محيراً بالنسبة الى اليونانيين حينما آثرت الكتابة نشأة شيء ثالث بين الحقيقة والكذب، أي، الوهم. فالشيء المكتوب يعد أمراً ثابتاً، وعلى الرغم من ذلك، فهو غير جدير

بالثقة .

إن من يقول «أنا» يقصد بها في الحقيقة هذه الـ «أنا». ولكن من كتب «أنا» لا تعد الـ «أنا» بالنسبة للقارىء الذي يمسك الكتابة بيديه أمراً ملموساً. الكلام والسماع يحدثان في آن واحد، وبين الكتابة والقراءة ثمة زمن ماضي دائماً. فالكلمة «أنا» المكتوبة هي غائبة، وعليه يصبح حاضرها وهماً. لقد كانت الاسماء المعنية الأحداث والمناسبات في اغاني سافو* «Sappho» أو الكايوس (Alkaios) بالنسبة للمستمعين آنذاك واضحة، أما بالنسبة الى القراء فيما بعد، فقد باتت الاغاني نفسها غير واضحة ويكتنفها الغموض وهكذا تتعرض القصائد كافة الى الشك في أمرها، فهي أما كذب أو تضليل. كما احتاج الأمر الى اجراء نقاش طويل حتى تمكن أرسطو من الاعتراف بالوهم الشعري بعنوان «Mimesis» المحاكاة او ذلك باعطائه مكانة خاصة تقع خارج إطار أما للحقيقة أو الكذب.

لقد كانت تأثيرات الكتابة في اليونان الكلاسية ذات شأن أكبر من الغرض المرسوم للكتابة عند تطبيقها. وبمجرد ان تلقت الكتابة المهام التي كانت تقع في السابق على عاتق الذاكرة، فقد استطاعت الطاقات المثقفة بعد تحررها أن تتجه الى ذلك الفكر التصويري الذي آنبثقت عنه الفلسفة والعلوم اليونانية. ولا يمكن ان يقوم الفكر الشكلي المنطقي بدون الكتابة، إنه كامن في عملية الكتابة، بيد انه يتطلب اختيار الكلمات وتركيبها بشكل مدروس. وفيما اذا كان الكلام الشفوي قد أفلح فان ذلك يتقرر في الاحداث «actu» فهو يتعذر الغاؤه: «وازاء ذلك أصبح بالامكان تخطيط النصوص التحريرية على المدى البعيد. فالمسودات تساعد على التخطيط واسترداد قراءة ما استحضر في الذهن مما سبق كتابته. ومما هو جدير بالذكر، ان التشطيب والمسح يلغيان ما هو مكتوب. ولم يكن باستطاعة المرء تحقيق فكرة ما يمكن القيام به، تلك الفكرة التي فطن اليها المثقفون اليونانيون والسياسيون والمهندسون في القرن الخامس قبل الميلاد بدون الخبرة المتراكمة من جراء الكتابة بالحروف الابجدية، لان هذه الفكرة تسمح بصياغة تصورات جديدة بمعزل عن صلات الحياة المحددة وتدوينها بصرامة «Stringenz» منطقية، وعندما لا يتفهمها المعاصرون فانهم يتركون أمر قرار الحكم الى الأجيال المقبلة. ففي الوقت الذي لا يكتب للموروث الشفوي الاستمرارية الا عندما يتم نقله بشكل متواصل



وبلا ثغرات، فان النص المثبت تحريرياً يمتلك، بمجرد أرشفته وإن كان غير مقروء، فرصة ان يؤدي مفعوله في المستقبل حتى بعد فترة طويلة من خزنة. وفي هذا الجانب نراه يتمتع باستقلالية ذاتية وطبقاً لذلك يتغير الطابع الاجتماعي للمعرفة عند الانتقال من الحالة الشفوية إلى الحالة التحريرية: ففي الثقافات الشفوية يقوم كبار السن بتمثيل هذه المعرفة، إذ تنبع حكمتهم من خبرتهم الطويلة بالتقاليد.

وبخلاف ذلك، أي في الثقافة الحرفية المتطورة، نرى افكار الشباب الطارئة تحدث ثورة في موجودات المعرفة الموروثة. ولا مناص من شروط خاصة للاطار كي تتطور النتائج الحتمية للحرفية من المعاني الضمنية للكتابة «Implikationen».

وما دامت الكتابة مرتبطة بالنصب الصخرية والمهام ذات العلاقة بالعبادة كما هي الحال في مصر، وتقتصر على صفوة اجتماعية معينة، كما في الصين، أوتكون حُكْراً على ميادين دينية خاصة كما في الهند أوفي أوروبا القرون الوسيطة، فانها لا تطور مثقفيها الملازمين لها ولا الطاقات الاجتماعية. ومن الجدير بالذكر أن الكتابة الدنيوية لم يكن بوسعها النجاح في مسعاها بهذه السرعة في بلاد اليونان بدون الظروف الجليلة الشأن الظاهرة للعيان، وبدون الظروف التي قد تبدو ثانوية، وغياب رجال الدين «الكليروس» وأستيراد البردي. وبهدف تحريك سلسلة من السببية التاريخية تحتاج النوعيات الى كميات معينة. وثمة شيء مماثل نلاحظه في العصر الحديث، إذ لا تتضح التأثيرات المحتملة لطباعة الكتاب فور تصنيعه. لقد أدخل نظام مكتبي كفوء منذ القرن الثامن عشر بعد ان اجري تخفيض على تصنيع الكتب، كما تم بلوغ القدرة القرائية بشكل عام. ولم تصبح الكتب إلا في الوقت الحاضر - بقدر مماثل أوبقدر أعلى في القريب العاجل، ممكنة وسهلة المنال، كما كانت حال الكتب في العصور القديمة. كان يتعين على الناس في العصور الوسيطة ان يقصدوا الكتب، وهكذا استطاعت المعرفة الانتشار ببطء. أما في العصور القديمة كما في العصور الحديثة فالكتب هي التي تقصد الناس بحيث تتراكم المعرفة بسرعة مذهلة.

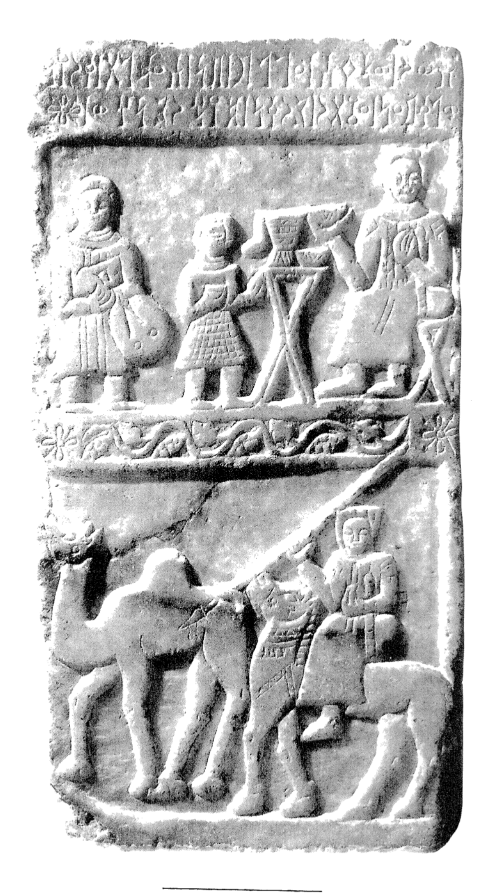
تنقسم الشفوية والكتابية في دول أوربا العصور الوسيطة وبداية العصر الحديث الى لغتين. ولقد كانت أغلبية الشعب، بما في ذلك طبقته الارستقراطية تعيش في اطار من ثقافة لم تحظ بلغة كتابية خاصة إلا بتردد في جميع اللهجات المحلية. غير أن فئة صغيرة حُددت لمهن تعليمية، تعلمت اللغة اللاتينية في المدرسة على انها لغة محلية ثانية فاللغة التي يتم توارثها بالصيغة الكتابية لايمكن أن تكون لغة الأم، فضلاً عن انها لم تكن مفهومة خارج المؤسسات الاكاديمية، ولذا أصابها الجمود في السكولائية التجريدية «Scholastik» وفي البلاغة «Rhetorik» أيضاً ولم يُرفع هذا الانقسام إلا في القرن الثامن عشر بحيث اصبحت اللغات القومية منذ ذلك الحين مختصة بجميع المهام الملقاة على الكتابة. ومع ذلك تدوم في هذه اللغات الجديدة، بخلاف اللغة اللاتينية التي تمت دراستها، ذكرى عصرها اللاّحرفي واستخدامها من قبل الأميين بحيث يمكن سماع اعتراض الصيغة الشفوية ضد الصيغة الكتابية اللامحدودة.

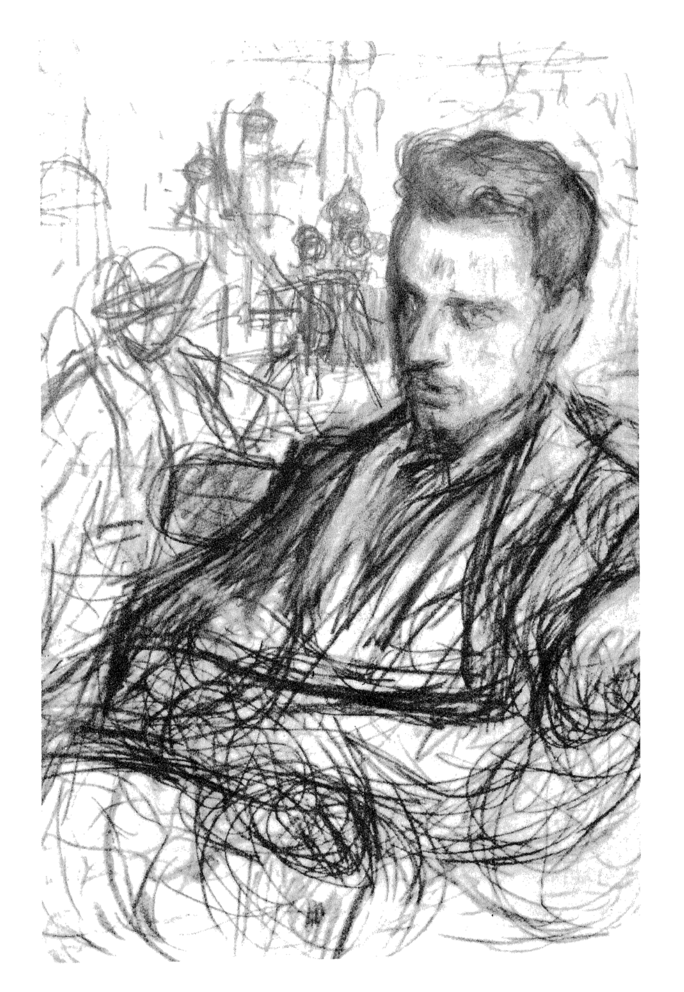
رغبة الشاعر في ان يكون قاصاً

كان الشعر في بلاد اليونان من بقايا «Relikt» الثقافة الشفوية، أما في العصر الحاضر فقد أصبح الشعر محامياً لها. وهكذا أراد كتاب الملاحم البطولية منذ العصور الوسيطة اثارة الاهتمام الى الظاهر الذي يبدون فيه كما لو كانوا مغنين وقراؤهم مستمعين. وقد اختلق (رابليه) «Rabelais» في مقدمته لمؤلف «Gargantua» في انه لم يكتب هذا الأثر في المكتب وانما في احدى الولائم بين وجبات الطعام والشراب ومما يذكر ان الكتاب تظاهروا حتى القرن التاسع عشر والعشرين بانهم قصاصون كما قلدوا نبرة السرد الشفوي، إذ تبدو القصائد المكتوبة تحريرياً كأنها «اغانٍ» تواصل ديمومتها في الواقع في ظل الغناء وتعد اغاني شعبية مجهولة. وحتى الرواية، حيث ان حجمها هو دليل على تطورها التحريري، تأخذ بنظر الاعتبار منذ زمن طويل تقاليد البلاغ الشفوي، إذ تبني قصتها بصورة مستقيمة وتسردها على نحو برجماتي، كما تقدم تلك القصة بكلمات واضحة جلية. وهكذا، فان القارىء، كما لو كان مستمعاً، يتأكد من كل موضع من مواضع القصة من الفهم الصحيح دون الحاجة الى تذكر النص بأكمله. إن علاقة التذكر والنسيان هذه المستعارة من الشفوية لا تتغير إلاّ في بعض الروايات مثل رواية «الانساب المختارة» (Wahlverwandtschaften) لـ «غوته» أورواية التربية العاطفيّة «Education Sentimentale» لـ «فلوبير» أو «يوليسيس» لجويس. فالنص هنا موضوع بشكل حيث ان فيض المعاني التي يجنح اليه النص في كل تفصيل من تفاصيل الاثر يفيد منها ذلك القارىء فقط الذي يقيم صلات مع فقرات اخرى (للأثر أومع باقي الأدب). وينتفع بالتالي من مزايا التدوين التحريري للنصوص. ومع اجناس العروض على اختلافها، والتقليد البلاغي، والطوبولوجيا انتهى في القرن الثامن عشر ارث الماضي الشفوي في الأدب الأوربي. فهذه الأعراف مهما بلغت درجة من الوهم والافتقار الى هدف جاد، فهي لم تزل تعيش في ذكراها بوظيفتها السابقة التي يُعين عليها تأديتها في الواقع المعيش للثقافة التي كانت تسودها الذاكرة. وترسخت تدريجاً الظروف التحريرية للأنتاج والتلقي في الأدب الجديد للعقدين الأخيرين: كتاب ومكتبة وطاولة كتابة وأخيراً آلة الطابعة. وفي ظل هذه الظروف لم تعد تنشأ الأشعار بل «النصوص»: مؤلفات كتابية متواصلة واقعية تتسم بتراكيب خارجة عن الطرق المألوفة، منسقة بأسلوب فني. لقد مضت الفا سنة ونصف حتى أصبحت نتائج الحرفية منطقية.

ترجمة: اقبال ايوب

* سافو: اواخر القرن السابع، أوائل القرن السادس قبل الميلاد، شاعرة غنائية يونانية، لم يبق من آثارها غير شذرات قليلة.





اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه

راينار ماريا ريلكه

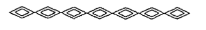
المقدمة :

ان العمل الشعري اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه Die Weise von Liebe und Tod des Cornets Christoph Rilke (وهو مكتوب بأسلوب قصيدة النثر) يمزج بين بعض المعطيات البيوغرافية (معطيات السيرة الذاتية) وعمل الخيال. موضوعة القصيدة - الحكاية شديدة البساطة : شاب يتطوع في الجيش النمساوي، ويُعَينّ من قبل الجنرال المهيب الجانب «سبورك» حاملاً للعلم، ويشارك في صد الأتراك، بعد ان يعيش ليلة غرام شائقة مع «الكونتيسة». ويقع في المعركة، مميَّزاً من بعيد، هو ولواؤه المحترق.

خضع هذا العمل لتعديلات عديدة من لدن الشاعر. فهو قد كتب صيغته الاولى في ١٨٩٩. ثم أعاد كتابته في ١٩٠٤ ونشره في مجلة شهرية في براغ (مجلة «العمل الالماني (Deutsche Arbeit) ثم أعاد كتابته مرة اخرى ونشره في صيغة جديدة نهائية ببرلين في اواخر ١٩٠٦. غير ان الانتشار الواسع للعمل لم يتحقق الا في ١٩١٢، عندما ظهرت القصيدة في منشورات «أنسل» Insel التي ستتعهد منذ ذلك الحين بنشر أعمال الشاعر. وحقق العمل الصغير انتشاراً وشهرة لم يعرفها عمل أدبي قبله، منذ «آلام فيرتر» لغوته. وساهمت في انتشاره بالطبع عوامل عديدة. منها حيوية الناشر، وكون العمل خضع لتصحيحات متتالية من قبل الشاعر. ولكن بخاصة لأن ظروف الحرب العالمية الاولى جعلت الكثير من المجندين والشبان يجدون مثالاً لهم في هذا الشاب ذي السيرة الفروسية الفذة، المُطَعَّمة بفصول غرامية ساحرة. وقد بلغ انتشار العمل، والاستخدام «السياسي» الذي تعرض له في التعبئة للحرب الاولى، أن لُحِّنَ مراراً عديدة، وأصبحت أمسيات كاملة تُعْقَد لقراءته. وكان أن رُشِّحَ الشاعر لنيل وسام «فرانسوا جوزيف» من يدي الامبراطور شارل، ومع ان الترشيح تُوِّجَ بالنجاح، فإن الشاعر، الذي أبداً لم يعتبر نفسه «نمساوياً جيداً»، اعتذر عن قبوله، متعلّلاً برغبته بالمحافظة على «حياة غُفْل» أي بعيدة عن الاضواء.

إلاّ أنّ قارىء ريلكه، في ماوراء هذه الاعتبارات الظرفية، انما يجد في هذا العمل أنموذجاً على سعة خياله الشاعري وبساطته العميقة، وكذلك مثالاً على عبقريته اللغوية التي تتجلى هنا عبر لوحات وجُمل طويلة تارةً، وبالغة الوجازة تارةً أخرى. ثم انه يجد وراء حكاية الشاب ريلكه، التي تتموقع في القرن السابع عشر، والتي يقول الشاعر انه عثر على عناصرها ومعطياتها في بعض الارشيفات والوثائق العائلية، نقول يجد وراءها تحقيقا عبر الفن لحلم قديم لريلكه، الذي دخل في صباه الكلية العسكرية واضطر لمغادرتها لهزالة الجسماني. ان اكثر من رسالة لأمة، وفيما بعد لابنته، تكشف عن أنه لم يتجاوز تماماً تلك الخيبة، وأن نوعاً من الفروسية بقي يشكل مثله الأعلى لزمن طويل. ولاشك ان هذا العمل الموجز، والفريد، قد لعب هنا دور «مُطَهِّر» إذ مكَّن هذا الحلم من أن يجد سبيله الى التحقيق.... عبر الكلمات.

المترجم



راينار ماريا ريلكه :
رسم ليونيد باسترناك والد الشاعر الكبير بوريس باسترناك

اغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه

راينار ماريا ريلكه :

(٠٠٠ في ٢٤ تشـرين الثـاني/ نوفمـبر١٦٦٣، تسلم أوتـوفون ريلكه، في «لانغنو» و«غراينتس» و«تسيغرا»، في مقاطعة «ليندا»، حصـة الارض التي تركهـا شقيقه كريستوف الذي لقي مصرعه في هنغـاريـا. الا انـه كان عليـه أن يمضي على رسـالة تنازلية يكون التسلم بمـوجبهـا لاغيـاً في حالـة رجـوع شقيقـه كريستوف الذي نصّت شهـادة وفـاته على انه كان، ساعة وقوعه، حاملاً للعلم في فرقـة البـارون «بـيروفـانـو» التـابعة الى فوج فرسان الامبراطورية النمساوية الذي كان يقوده «هيستر»).

خَبَبٌ، خَبَبٌ، خَبَبٌ، خَبَبٌ في النهـار، خَبَبٌ في الليـل. والقلب مُنْهَـك والحنـينُ كبـيرٌجدا. لا جبـال ـ بالكاد شجرة. لاشيء يجرؤعلى الظّهور. أكواخ عجيبة، مقعية قرب آبار ظمأى، يملؤها الوحل. ما من برج في الافق ـ دائماً المنظر نفسه. للمرء عينان زائدتان. في الليل، نحسب أحيانا أننا نعرف الطريق. ولكننا ربما قطعنا في الظلام، ثانيةً، المرحلة التي اجتزناها بعناءٍ تحت شمس غريبة. ذلك جائز. ثقيلة هي الشمس، كما عندنا في عز الصيف. ولكننا في الصيف وَدَّعنا الأهل.

طويلاً، بقيت فساتين النسوة تلمع في المروج. وها نحن أولاء فوق خيولنا منذ زمن. انه الخريف بلاشك. هناك، على الأقل، حيث تعرفنا نساء حزينات.



يسوي «الا نغني»* جلسته على صهوة جواده ويقول: «سيّدي المركيز». . .

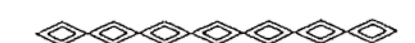
بقي جاره الفرنسي الظريف يتكلم ويضحك ثلاثة ايام. وها هُوالآن متعب. كصغيريستبد به النعاس، تجمعَ الغبارحول ياقته البيضاء الدنتيلية المرهفة. لا يلاحظ ذلك. يتكوم رويدا رويدا على صهوة جواده المخملية.

يبتسم «اللانغني» مع ذلك ويقول: «ان لك عينين غريبتين، سيدّي المركيز. يقيناً أنك تشبه والدتك».

يتورد خدّا الفتى الفرنسيّ. ينفض عن ياقته الغبار: كأنها جديدة!



أحـدهم يتحـدث عن أمـه. هوبلا شك ألمـاني. يُحْكِمُ كلماتـه بصـوت عال، متريث. كفتاة تشد باقة من الزهر وتجرّب، بانتباه، الازهـار واحـدة تلو الاخـرى، لا تعـرف ما سيظهر من الكل: هكذا كان يدوزن كلماته. من أجل الفرح؟ من أجل الحزن؟ الجميع يرهف سمعه. حتى البصّاقون هاهم أخيراً يصغون. ذلك أنه ليس هنا غيرسادة شديدي اللياقة، وحتى اولئك الذين لا يفقهون الألمانية، ها هم يفهمونها على حين غرة، ويحسّون ببعض الكلمات: «في المساء . . . أيام كنت صغيراً . . .»



هاهم يتحلقون أخيراً، السادة الذين أتوا من فرنسا ومن برغونيا، من البلاد الواطئة ومن وادي كارنثة، من قصور بوهيميا ومن لدن الامبراطور ليو بولد. ذلك ان ما يرويه أحدهم، كأن الجميع عاشه، وعلى هذه الشاكلة نفسها بالذات. كما لو لم تكن ثمة غيرأم وحيدة.

* نسبة الى «لانغنو» القرية التي منها جاء (المترجم).

هكذا ندخل، على ظهور جيادنا في المساء. مساء كسائر المساءات. من جديدٍ نصمت، ولكننا نحمل معنا كلماتٍ مضيئة. يرفع المركيز خوذته. شعره البني بالغ الرقة، وعندما يحني رأسه، يتداعى الشعر فوق علبائه بحركة شبه أنوثية. هاهو «اللانغني» يلمحه بدوره: في البعيد شيء ما يتلع برأسه، لا تدري أي شيء هو، معتم وأهْيَف. عامود متوحِّد يتفتت. بعد هذا، بعده بزمن طويل، يتذكر أنه كان تمثالاً لمريم.

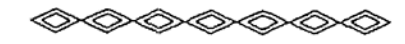
في العراء نُخيِّم. نشعل ناراً. نتحلق حولها وننتظر. ننتظر من يبدأ بالغناء. غير ان الجميع قد استبدّ به التعب. وثقيل هو الوهج الاحمر، يستلقي فوق الاحذية المتربة، يزحف حتى الركب، ويندس بين اكفنا المضمومة. لم تعد لديه أجنحة. ومعتمة هي الوجوه. غير ان عيني الفرنسي الشاب تسطعان برهة، بضوء نادر. قبل وردة قصيرة: حرّة هي الآن في أن تذبل على صدره. أبصره «اللانغني»: كان غير قادر على النوم. يفكر: «ليس لدى من وردة! ليس لدى من وردة! «ثم يشرع بالغناء. اغنية قديمة وحزينة تغنّيها فتيات بلاده في الحقول، خريفاً، عندما يقارب موسم الحصاد نهاياته.



يقول له المركيز: «انك فتى يا صاح».
فيجيب «اللانغني»، نصف حزين نصف غاضب: «ثماني عشرة».
ويصمتان.
فيما بعد يسأل الفرنسي: ألديك هناك أيضاً خطيبة، سيدي اليونكر»؟
«وأنت؟»، يجيبه «اللانغني».
«هي شقراء مثلك».
ويصمتان من جديد، الى أن يصرخ الألمان: «فما تفعل بالله هنا فوق جوادك، عبر هذه البلاد المسمومة، ساعياً الى ملاقاة هؤلاء الملاعين الاتراك».
يبتسم المركيز: من اجل العودة».
«اللانغني» يبدو مغتمّاً. يفكر بفتاة شقراء كان يلعب معها ألعاباً وحشية. يريد أن يعود، ولو للحظة، للزمن الكافي لأن ينطق أمامها بهذه الكلمات: «العفو يا ماجدلينا، لأنني كنت هكذا دائماً. كيف؟ يفكر الشاب. ولكن ها قد أصبحنا بعيدين.



ذاتُ صباحٍ، كانوا هنا، فارساً، ثم آخر، ثم أربعة، عشر. . . كلهم حديد: عمالقة! ثم ألف فارسٍ، ومن وارئهمُ: الجيش.
ساعة الانفصال هِيَ هذه.
«عَوْداً ميموناً، سيدي المركيز.
«حرستْكَ العذراء، سيدي اليونكر».
ولم يكن بوسعهما ان ينفصلا. كانا صديقين وها هما الان شقيقان. محتاجان الى مسارات جديدة، ذلك ان كلّاً منهما يعرف عن الآخر أشياء كثيرة. يتمهلان. ومن حولهما استعجال وضجيج جَزْمات. اذ ذاك ينزع المركيز قفّازيده اليمني، الواسع. يخرج الوردة الصغيرة، ينزع عنها وريقة كما يُقسِّم رغيف القربان: «سوف تحفظك هذه. «وداعاً». مندهشاً، يتبع «اللانغني» الفتى الفرنسيَّ بنظراته طويلاً، ثم يدس الوردة العجيبة تحت قميصه، قميص المحارب. هي ذي تعلو وتهبط فوق مُويجات قلبه. البوق. يركض بجواده في اتجاه الجيش، هو اليونكر. يبتسم بكآبة: امرأة غريبة تحرسه.



نهار كامل في قافلة المؤونة. سباب. ألوان وضحك. بلاد باهرة بهذا كله. يصل فتيان مُبَرْقَشون: شجار وضحك. تأتي فتيات بقبعات ارجوانية فوق شعرهنَّ العائم. نداءات. يأتي خدَمٌ سود من الأسلحة التي يحملون، كليلٍ تائه. يقبضون على الفتيات بمثل هذه الحمية بحيث تتمزق الفساتين. يعصرونهن على حافات الطبول الضخمة. وتوقظ المقاومة الأكثر بأساً للأيدي التائقة جميع الطبول، وكما في الحلم هاهي ذي تدوي، تدوي. في المساء تُقدَّم له فوانيس. فوانيس عجيبة. نبيذ يتلألأ في خُوَذٍ حديدية. نبيذ؟ أم دم؟ من يقدر أن يميز؟

أمـام «سبـورك» اخـيرا . إلى جواده الأبيض يقف «الكـونت» . لشعـره المسترسل لمعان الحديد . لم يكن «اللانغني» بحاجة الى ان يسأل . ميز الجنرال على الفور، فقفز من على حصانه وانحنى وسط غمامة من الغبار. يحمل رسالة تقدمه للكونت . غير أن الأخير يأمره : «فلتقرأنّ علي هذه القصاصة» . لم يحرك الكونت شفتيه . هما للقسم تصلحان . والبقية يتكفل بها ساعده . كفى ! وبدا مكتفياً . كان الشاب قد أكمل قراءته منذ زمن غير قليل . ولا يكاد يعرف أين هو الآن . أمام «سبورك» ، تظلم جميع الاشياء . صفحة السماء نفسها تلاشت . إذ ذاك يقول «سبورك» ، الجنرال الفخم :

«ستكون حاملاً للعلم» .

وهذا كثير!

كانت الفرقة مخيمة وراء «الراب» . يتبعها «اللانغني» وحيداً فوق جواده . في المساء ، يلمع قربوس صهوته عبر الغُبرة : هوذا القمر يرتفع . يبصره عند مستوى كفيه . يحلم .

غير أن شيئاً ما يصرخ في اتجاهه .

يصرخ ، يصرخ .

يمزق حلمه .

ليست هذه ببومة . ياسماء ، انها الشجرة الوحيدة في المكان تصرخ نحوه!

- ياهذا!

يحدِّق : شيء يتلوي . جسم إنسانٍ يتلوي على طول الشجرة . امرأة ، فتية ، عارية ، ومدمّاة .

تنقض عليه : انقذني!

ويقفز من على جواده في الريف المظلم .

ويحل حبالاً كانت سابحةً في الدم .

ويرى الى عينيها تتلألأن

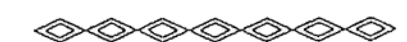
والى اسنانها وهي تعض .

أكانت تضحك؟

يُقشْعرُ بدنه .

وها هو من جديدٍ فوق حصانه .

يخب في الظلام ، عاصراً بين كفيه حبالاً دامية .



يكتب «اللانغني» رسالة . إنه منهمك . ببطء ، يرسم احرفه كبيرة ، مستقيمة وجادة .

والدتي الطيبة ،

كوني فخورة : انني أحمل العلم .

لا تقلقي : انني أحمل العلم

أحبيني : انني أحمل العلم . . . »

ثم يعصـر الـرسـالـة في قميصـه ، يضعهـا في الركن الاكثر سرية ، قرب وريقة الوردة . ، يفكر: , عما قريب ستكون الرسالة مضمّخةً بأريج الوردة . ويفكر: ربما وجدها أحدٌ ، ذات يوم . ويفكر: . . . ذلك ان العدو قريب! .



تمرّ خيولهم بفلاحٍ مذبوح . عيناه مفتوحتان على سعتهما . شيء ما فيهما ينعكس : لم تكن ثمّة من سماء . فيما بعد ، كلاب تنبح . وهـا هي أخيراً قريـة . وراء الاكـواخ ، تنهض قلعـة بُنِيَت بكاملها من الحجر . يمتد نحوهم الجسر الواسع . وتتوسّع البوابة . عالياً ، تصدح الابواق مرحِّبة .

أصْغِ : صخب ، قعقعة سلاحٍ ، ونباح . صهيل في الحوش . وقع حوافر، ونداءات .

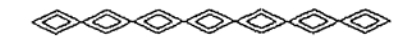
استراحة: أن تكون اخيراً ضيف احدٍ ما. ان لا تُشبع دائماً رغباتك بنفسك، بزادٍ فقير. ألا تمسك دائماً بالأشياء بكف عدوة. أن تدع غيرك، مرة واحدة على الاقل، يقوم بكل شيء وأن تعرف: كل ما يحدث حسنٌ، الان. الشجاعة نفسها يجب ان تتمدد، وتتكور على نفسها في أغطية حريرية. ألا تكون محارباً على الدوام: أن تحمل مرة واحدة درعك مفتوحة، وياقتك العريضة مشرعة، وأن تستريح على أرائك وتحس بنفسك، حتى اطراف اصابعك، كما انت بعد الاستحمام. أن تبدأ تتعلم من جديد كيف هنَّ النساء. كيف هنّ البيض وكيف هنّ زرقاوات السحنة. أية أيدٍ لهن، وأي غناء هو ضحكهن حينما يحمل الصبيان الشقر كؤوساً جميلة مترعة بثمارٍ شهية.



كانت استراحة في البداية. ثم تحولت الى عيد، لاندري كيف! كانت المشاعل العالية تتراقص والاصوات ترتعش، وأغانٍ مبهمة تتردد في الاقداح والضّوء وأخيراً، من الايقاعات التي نضجت رويداً رويداً، انبثق الرقص. اجتذبهم جميعاً. كانت تلك امواجاً متلاحمة في الصالة، يلتقي الناس ويختار بعضهم البعض، يودعه، ثم يعود ليلتقيه مرة اخرى، كانوا يمثلون بالضوء، ينبهرون، ويتأرجحون في رياح الصيف التي هي فساتين النسوة اللّاهبات.

يا للنبيذ الغامق! ألف وردة تتسايل، الساعة، مخشخشة في حلم الليل.

كان احدهم يتأمل هذه العجيبة مندهشاً. وهو على هذه الحال بحيث يتساءل اذا كان سيستيقظ فجأة. اذ ليس الا في النوم يُرى بذخٌ كهذا وأعيادٌ للنسوة كهذه: أدنى حركة منهن هي ثنية تسقط في جارور. يشيدن الساعات بأحاديث مفضضة، ويرفعن أحياناً أيديهن فيكون ذلك كما لو كن يقطفن، في مكانٍ لا تقدر أنت ان تبلغه، ثماراً شهيةً لا تبصرها. وها انت ذا تحلم: أن تكون مزيناً بسحرهن، مُشبع الرغبات، وان تستحق لجبهتك العارية تاجاً.



أحدهم، كان متشحاً بالبياض، يشعر بأن في امكانه ان يستيقظ، ذلك أنه في الواقع يقظٌ وضائع. يلوذ من خوفه بأذيال الحلم، ثم ها هو في الحديقة، متوحداً، في الجنينة المظلمة، والعيدُ بعيد. تكذب الأضواء. والظلام، قربه، ندي ومنعش. يسأل امرأةً منحنيةً فوقه:

«أأنت الليل؟»

تبتسم.

وها أنه يشعر بالخزي من ردائه الأبيض، ويود لو كان بعيداً، ووحيداً، ومدججاً بكامله بالسلاح.



«أنسيتَ انك لهذا اليوم غلامي؟ أتفكر بمغادرتي؟ أين ستذهب؟ رداؤك الابيض يمنحني حقاً فيك...».

«أنادِمٌ أنت على بزتك العسكرية المضحكة؟»

....

«ترتجف!؟ ضَجِرٌ أنتَ من بلادك؟»

تبتسم الكونتيسة.

كلا. ولكن لأن الطفولة سقطت من على كتفيه. ذلك الرداء الجميل الغامق، من أخذه؟

«أنتِ؟»، يسأل بصوت لم يسمعه هو نفسه أبداً من قبل:

«أنتِ؟».

والآن ما عاد يستره أي شيء:

عار هو كقديس. مؤتلق ونحيف.

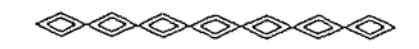
واحداً بعد الآخر تنطفيء قناديل القلعة. الجميع مثقل: بالتعب، بالحب أو بالسُّكر. بعد كل هذه الليالي الطويلة، الفارغة، المقضاة في أسِرّة الميدان، ها هي الفُرش. أسرة واسعة من خشب السنديان أنت لاتصلي فيها كما في أخاديد الحقل البائسة، التي تتحول، ساعة النوم، الى ما يشبه قبوراً فاغرة. «رباه، كما تشاء!». صلاة الانسان موجزة في السرير؛
ولكنها أكثرُ ورعاً.



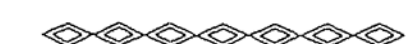
حُجْرة الحصن. مظلمة. ولكنها يضيء أحدهما وجه الاخر بالبسمات. يتهمسان أمامهما كأعميين، يعثر أحدهما على الآخر كمن يعثر على باب. كمثل طفلين خائفين من الظلام، يعصر أحدهما الاخر، مع هذا فليسا خائفين. لاشيء يداهمهما، ما من أمس ولا غد. لقد انهار الزمن ببساطة. خارج انقاضه، يُزهران. لا يسأل: «زوجك؟». لا تسأل: «اسمك؟». لقد التقيا ليصنع أحدهما للآخر سلالةً بشرية جديدة. سيمنحان نفسيهما مئات الاسماء، وينتزعها أحدهما من الآخر برقة، كما يُنتزع قرط من الأذن.



في الـرواق، قميص «الـلانغي» على كرسي، هو وجميلتـه ومعطفـه. قفّازه على الارضيـة. والعَلَم يقف بصـلابـة، متكئـاً على النافذة. نحيف وأسود. في الخارج تخترق السماء عاصفةٌ تقسم الليل الى قطع سوداء وبيضاء. يمرّ ضياء القمر كومضة طويلة، والعَلَم الثابت يرسم من حوله ظلالاً قلقة. يحلم.



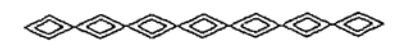
أهو الصبح؟ أي شمس تشرق؟
ما أكبرَ هذه الشمس! أهذه طيور؟ ان اصواتها في كل مكان!
كل شيء مضاء، ولكن ليس هذا هو النهار. كل شيء صاخب، لكن ليس هذا شدْوَ عصافير.
انها العـوارض تلمـع. النـوافـذ تصـرخ. تصـرخ، حمراء، في اتجاه العدوّ المنتشر في الخارج عبرا لريف المشتعل. تصرخ: «الى النارا». والكل يتزاحم، حاملاً نعاسه الممزق في الوجه. يتدافع نصف مسلّحٍ نصف عارٍ، من صالة الى أخرى، بحثاً عن الدرج.
والأبواق بأنفاسها المختنقة تتلعثم في الباحة.
النفير! النفير!
وخيول مرتجفة.



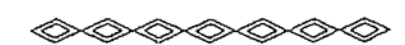
نافـذة. هل هي مفتـوحـة؟ العاصفة. هل هي في المنزل؟ ما للأبواب تصطفق ومَنْ الذي يجتاز الصالات؟ أياً كان، فسوف لن يهتدي الى حجرة الحصن. هذه كما لو كان وراء مئة بابٍ هُوَ هذا النوع الباذخ الذي يجمع كيانين: كأمٍّ أو كموت.



ولكنَّ العَلَم ليس هنا.
نداءات: «حامل العلم!»
خيول هائجة، ابتهالات، صرخات.
شتائم: «حامل العلم!»
حديد ضدّ حديد، أوامر، صفارات.
صمت: «حامل العلم!»
ومرة أخرى: «حامل العلم!»
وأماماً، الخيّالة مزبدة.
. . . .
ولكنّ العلم ليس هنا.



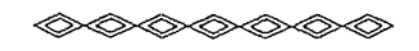
يركض متعثراً في أروقة تلتهب. يخترق أبواباً تعصره، أبواباً حارقة، ويمرّ بأدراج مشتعلة. يهرب من المبنى الهائج. يحمل بين ذراعيه العَلَم كامرأة شاحبة أغمي عليها. يجد حصاناً. وها هو منطلق كالصرخة: يجتاز الحشد كلَّه، حتى أصحابه. هاذا العلم يعود اليه أيضاً، وأبداً لم يكن ملكيا كما هو الآن، وها أن الجميع يرونه في هذه اللحظة، بعيداً، في الامام، ويميزون الرجل الواضح، بلا خوذةٍ، ويميزون العلم كذلك. . . ولكن ها هو يبدأ بالتأجج، يندفع، يزداد أرجوانيةً، يكبر.
. . . .
ها هو العَلَمُ مشتعلٌ وسط الأعداء، وهؤلاء يَسْعون خلْفَه.



«اللانغني» في قلب الاعداء. ولكن وحيد. صنَعَ العلم حوله حلقة فارغة، وها هو يقاوم في المركز، تحت علمه الآخذ بالاحتراق رويداً رويدا.

ببطء، في شبه انشداده، يحدق حوله. اشياء غريبة كثيرة، ومُبَرْقَشة. «حدائق»: يفكر ويبتسم. لكن ها هو يشعر فجأة بأعين تحاصره، ويُميِّزه الرجال، ويعرف انهم القوم الكفرة: فيقذف بحصانه في قلب الحلقة.

ولكن حينما انغلق كل شيء وراءه، كان ما يزال مع ذلك يرى الحدائق. والشَّجَراتُ الستُّ عشرة المنحنية التي كانت تسقط فوقه دفعةً دفعة إنما هي عيد.
شلاّلٌ ضاحك.



في القلعة، التهمتَ النيران قميصَهُ والرسالةَ ووريقةَ وردةِ المرأةِ الغريبة.



في الربيع التالي (جاء حزيناً وبارداً) دخَلَ ساعي بريد البارون «بيروفانو» قرية «لانغنو» بمشيةٍ بطيئة. وهناك، وجد عجوزاً تبكي.



ترجمة:
كاظم جهاد
مراجعة د. علال ناصر

ثمة انجذاب اليه يتحدّى الموت والزمن

مقدمة

حين نعيد قراءة «كـرّاسات مالطة لوريد زبريجه»، نعثر على ريلكـه وراء كل سطـر. ريلكـه الـذي وصفـه «رودولف كاسنـر» (R. KASSNER) قائـلاً: حاجبـان مقـوّسـات بشكل دقيق، عينان عميقتـا الـزرقة - عينا طفل أو راء - أنف سلافي متصيّد. الشاربان أشقران» ويضيف «كاسنر»: «كان ريلكه شاعرا حتى عندما يغسل يديـه» وتحـدث «ستيفـان زفـايـغ» (STEFAN ZWEIG) عن طريقة ريلكـه في «كتم صوتـه وصـوت خطواته». نحن نرغب دائما في أن يكـون عمـل الشـاعر متوافقا تمام التوافق مع نفسه، ومع علامات وجهـه، ومـع طريقتـه في السّير. عندئذ ينشأ انجذاب اليه يتحدى الموت والزمن. ثمة شعراء لم يكونوا هم حينما ابدعوا أشهر اعمالهم. غير ان ريلكه كان ريلكه.

انـه يجذبنـا الى حلم طفـولة امضيت داخل قصر على حافة بحر البلطيق. وهويرينا الكتب النادرة، والازهار، وصورة صديقته الامـيـرة «TURN und TAXIS» ونحن نمضي في رحلتنـا هذه حتى ننتبـه الى ان هنـاك وجعـاً كبيراً يسكن هذا العـالم الصـامت وان «كـراسـات مالطـة لوريـدز بريجـه» هي كتـاب الألم، وفيهـا تلعب باريس دوراً كبيراً، ذلك ان اكتشاف هذه المدينة سمح لريلكه بان يعانق فيضا من الاحلام والذكريات القديمة.

(١) في شوارع باريس

هل حقـا يأتي النـاس الى هنـا لكي يعيشـوا؟ أنـا أتصـور بالاحـرى انهـم يأتـون لكـي يمـوتـوا. خرجت. شاهـدت مستشفيـات. رأيت رجـلاً يترنح ثم يتهالك على الأرض. تجمع الناس حوله وهكذا جنّبوني رؤية ما تبقى من المشهد. رايت امرأة حاملاً كانت تجرّ قدميها بثقل على طول حائط عال وساخن، ومن حين لآخر كانت تمد يديهـا متلمسّة كما لو أنها تريد ان تقنع نفسها بأنه - اي الحائط - لا يزال في مكانه. وكان بالفعل لا يزال في مكانه. وماذا وراءه؟ نظرت الى خارطتي: دار ولادة. حسناً. سيساعدونها حقـاً لاشيء يمنـع من ذلـك. بعيـداً من هناك، وفي شارع «سان جاك»، ثمّـة بنـايـة ضخمـة بقبّـة. الخـريطـة تقـول انه «فال دي غراس»: مستشفى عسكـري. لم اكن بحـاجـة الى مثـل هذه المعـلومـة. لكن لا يهم. وبـدأ الشـارع يطلق روائـح من كل النـواحي. تمكنت من ان أميّـز بينهـا روائـح الشحم، والبطـاطـا المقليـة، واليـود وفـورهم، والخوف. كل المدن تطلق مثـل هذه الروائح في الصيف. ثم رأيت منزلاً اعمى بطريقة عجيبة. لم اعثر عليه في خارطتي غير اني شاهدت فوق الباب مكتوباً: ملجأ ليلي. وقرب الباب كتبت الاثمان. قرأتها. لم تكن غالية.

ومـاذ بعـد ذلـك؟ شاهـدت طفلاً بعربة صغيرة واقفة: كان سميناً ولونه يميل الى الخضرة وعلى جبينه تبثر كان في طريقه الى التـلاشي ولـذا فانـه لم يكن يؤلمـه. كان الطفـل ينام مفتوح الفم، ويتنفس روائـح البطـاطـا المقلية واليود وفورم والخوف. هكذا كان وهذا كل ما كان. المهم هو ان نعيش. وهذا هو الأهمّ.

(٢) ضرورة الشعر

أعتقـد انـه علي ان أشرع في العمل قليلاً، الآن وقد تعلمت أن أرى. عمري الآن ثمانية وعشرون عاماً. والى حد هذا الوقت لم يحدث شيء ذو أهميـة. لقـد كتـبـت دراسـة رديئـة حول (CARPACCIO) ومسرحية عنوانها «العرس» كنت أرغب من خلالها في فك نظـريـة خاطئـة بواسطـة وسـائل ملتبسة وبأبيات شعرية. ولكن هذه الابيات الشعرية لاتعني شيئاً مهماً اذا ما نحن كتبناها في سن مبكرة! علينا ان ننتظر وإن نذّخر أشياء وأحاسيس كثيرة طوال حياة باكملها. ثم بعدئذ، وربما في وقت متأخر، بامكاننا أن نكتب العشـرة أسطـر التي يمكن ان تكـون جيـدة. ذلـك ان الابيـات الشعـريـة ليست كما يتصـور البعض، عواطف (نحن لنا عواطف منـذ سن مبكـرة)، وانما هي تجارب. لكي نكتب بيتا واحداً، لابد ان نكون قد شاهدنا كثيراً من المدن ومن البشر ومن الأشياء. وعلينا ان نعـرف الحيـوانـات. وعلينـا ان نحس كيف تطير العصافير وان نعـرف ماهي الحـركة التي تقوم بها الازهار حين تتفتح في الصباح. ولا بدّ ان نتمكن من التفكـير من جديـد في منـاطق مجهـولـة، وفي لقاءات غير منتظرة، وفي رحيل كنا نترقب قدومه منذ وقت طويل، وفي ايـام طفـولـة لم تتوضحّ الغازها بعد، وفي أباء كان لابد من ان نجرح مشاعرهم حين يقدموا لنا فرحاً لا نفهم معناه ولا نقدر قيمته (فرح مأهول لآخر)، وفي أمراض طفولة كانت تبدأ بدايات غريبة بتحـولات عميقـة وخطـيرة في آن واحد، وفي أيام قضيّت في غُرف

صامته، وفي صباحات على شاطىء البحر، وفي البحر نفسه، وفي بحار، وفي ليالي سفر ترتعش هناك في الاعالي وتطير مع كل النجوم - ولايكفي ان نعرف كيف نفكر في هذا كله. ولابدّ ان تكون لنا ذكريات كثيرة حول ليالي حبّ لا تشبه الواحدة الاخرى، واصوات نساء يضعن، واخريات وضعن ونمن خفيفات وبيضاوات. ولابدّ أيضاً ان نكون قد وقفنا الى جانب أناس يحتضرون، وجلسنا قرب اموات في نفس الغرفة، والنافذة مفتوحة ومنها تأتي الأصوات باستمرار. ولايكفي ان تكون لنا ذكريات. علينا ان نعرف كيف ننساها عندما تكون كثيرة وان نصبر صبراً كبيراً في انتظار عودتها. ذلك ان الذكريات نفسها ليست هذا كله. ان البيت الشعري لا ينبثق الا حين تصبح - اي الذكريات - في دمنا، اسماً وفينا تذوب الى درجة انها تتحوّل الى جزء من مكوّناتنا.

(٣) أيّام طفولتي

في ذلك الوقت كان عمري اثنا عشر أو ثلاثة عشر سنة على أقصى تقدير. أخذني أبي الى «ايرناكلوستر» (URNEKLOSTER). ولم اكن أعرف السّبب الذي ألزمه بزيارة جدّي. منذ سنوات طويلة، وبالتحديد منذ وفاة أمي، لم يلتق الرجلان. وابي نفسه لم يكن أبداً في القصر القديم الذي لم يعتكف فيه الكونت «براها» (BRAHE) الا متأخرا. وانا لم أشاهد مطلقا بعد ذلك هذا القصر الغريب الذي أصبح ملك أناس غرباء عقب وفاة والدي. وكما أنا اراه من خلال ذاكراتي الطفولية، فانه لم يكن بناء. يخيل الي انه ذاب تماماً وانتشر في. هنا غرفة أو هناك غرفة اخرى. وهنا جزء من رواق لايربط بين هذين الغرفتين غير انه محتفظ بذاته كما لو أنه قطعة مستقلة. على هذا الشكل كان كل شيء منتشرا في. الغرف، والمدارج التي تنزل ببطء احتفالي، ومدارج اخرى كما لو انها اقفاص ضيقة تصعد حلزونية الشكل وفي عتمتها تتقدم كما يتقدم الدّم في العروق. وهناك غرف المخابىء، والشرفات العالية، وسراديب غير متوقعة يلقيك فيها باب صغير. كل هذا لايزال في. وسيظل دائماً، وكما لو ان صورة هذا البيت نزلت في من الأعالي اللامتناهية وتهشمت فوق قلبي.

اعتقد أني لم أحتفظ في قلبي الا بالقاعة حيث تعوّدنا ان نجتمع لكي نتناول العشاء كل مساء عند الساعة السابعة. لم اشاهد هذه القاعة خلال النهار أبداً. ولا أتذكر ان لها نوافذ ولا الى أين تفضي. وفي كل مرة، تدخل العائلة، كانت الشموع تضيء في شمعدانات ضخمة. وبعد لحظات قليلة ننسى النهار وكل ما كنّا قد شاهدناه قبل ذلك خارج البيت. وهذه القاعة العالية والمقوّسة حسب ما أعتقد، كانت الاكثر صلابة. كان سقفها المعتم وأركانها التي ظلت محتفظة بألغازها يمتصان منك شيئاً فشيئاً كل الصور، دون ان يعوّضاها بأي شيء واضح وشبيه بها. كنا نجلس هناك دون أية ارادة، ودون وعي، ودون لذة، ودون دفاع. كنا كما لو اننا مكان فارغ. واتذكر ان هذا الفناء التام نغّصني في البداية وسبب لي ضيقا شديداً، ضيق شبيه بالدّوار لم اكن اتمكن من التخلص منه الا عندما امد ساقي الى ان الامس بها ركبة والدي الجالس أمامي [...] وكانت هذه اللمسة الخفيفة هي التي تمنحني القوّة لتحمّل تلك العشاءات الطويلة [...].

جدّي كان يسميهم «العائلة». وسمعت الآخرين يستعملون أيضاً هذه التسمية التعسّفيّة. ذلك انه، وبالرغم من ان اولئك الاشخاص الاربعة كانت تربطهم علاقة قرابة بعيدة، فانهم لم يكونوا يكوّنون سوى مجموعة متباينة. العم، الجالس بجانبي، كان رجلاً عجوزا بوجه قاس ومحروق عليه اثار سوداء علمت في ما بعد انها اثار انفجار بارود. وكان ذو طبع عبوس وحاد. وقد أحيل على المعاش وهو برتبة آمر. والان هو يقوم في احدى زوايا القصر التي لا اعرفها، بتجارب في مجال الخيمياء. وقد سمعت الخدم يقولون انه على علاقة بسجن من السجون يرسل له مرّة أو مرتين في السنة جثثا ينزوي معها ليلاً نهاراً، ويقسّمها ويعدّها بحيث أنها



راينار ماريا ريلكه صحبة والده: (براغ ١٨٨٤)

تستطيع ان تقاوم التعفن والانحلال. في المقعد المُواجه له تجلس الآنسة «ماتيلد براها». وهي امرأة لايمكن معرفة سنها. وهي ابنة عم لأمي. ونحن لا نعرف عنها شيئاً كثيراً سوى انها تراسل بانتظام عالما روحانيّا نمساويّا يدعى البارون «نولد» واليه ترضخ تمام الرّضوخ. وهي لا تفعل شيئاً الا عندما تتأكد من أنه راض عن ذلك. وكانت امرأة قوية بطريقة نادرة وعجيبة. ولها امتلاء كسول ورخو يبدو انه وضع دونما عناية داخل ثياب فضفاضة وفاتحة اللون. وكانت حركاتها متعبة وغامضة وعيناها مبللتين طول الوقت. غير انها كانت تمتلك شيئاً مايذكرني بأمي التي كانت جدّ نحيلة. وكلما تأملتها، عثرت في وجهها على الملامح الدقيقة التي لم يعد بامكاني أن اتذكرها بوضوح منذ وفاة أمي. الآن فقط ومنذ ان أصبحت أرى يومياً «ماتيلد براها»، أصبح بامكاني ان أتخيل كيف كان وجه الميتة. وربما انا اتعرف عليه لأول مرّة. والان فقط، تتكون من مئة ومئة تفاصيل صورة الميتة، هذه الصورة التي ترافقني

في كل الامكنـة. وفي مابعـد، تبين لي بوضـوح ان وجـه الأنسـة «مـاتيلد» يحتـوي على كل التفاصيل التي تحدد وجه أمي. ولكن ـ وكما لو ان وجها غريباً انحسر بينها ـ فانهما كان يبدوان منفصلين عن بعضهما بعضاً ولا شيء يربط بينهما.

إلى جانب هذه الانسة كان يجلس ابن أحد بنات العم. وهو طفـل كان في مثـل سني تقـريبـاً لكنه كان أقل حجماً وأشد هشاشة مني. كانت رقبته النحيلة والشاحبة تبرز من ياقة صغيرة مغضنة ثم تختفي تحت ذقن مستطيـل. كانت شفتـاه رقيقتـين وملتصقـين ببعضهما بعضاً.

أمـا منخـراه فكـانـا دائمي الارتعـاش. وواحـدة من عينيـه الجميلتـين والسـوداوين تبـدو ساكـنة. وهـذه العـين تنظـر أحيـانا باتجـاهي بهدوء وحـزن. اما الأخرى فتظل مثبتة على نفس النقطة كما لو انها بيعت ولم تعد في الحسبان.

في اعلى الطاولة كان هناك المقعد الضخم الذي يقدمه خادم (يبدو ان هذا هو شغله الأساسي) لكي يجلس عليه جدي. غير ان هذا الاخيـر لم يكن يجلس الا على جزء منـه وكـان هناك اشخاص يسمـون هـذا العجـوز الأصمّ والمستبـد: «صـاحب السعـادة» أو «سيادة الماريشال» وآخرون يلقبونه بالجنرال. وربما كان يملك كل هذه الـرتب. غير انـه منذ زمن طويل وهو هامد لايقوم باي عمل. ولذا فان هذه الالقاب كانت تبدو بالكاد جلية ومقنعة. وكان يبدو لي ان اي اسم واضح لايمكن ان ينطبق على هذا الشخص الذي يكـون أحيـانـا واضحـا غير أنه مع ذلك دائم الغموض. وانا لم اقر البتة ان أسميه جدّي بالرغم من انه ابدى في كثيرمن الاحيان شيئا من الـلطف تجاهي وفي احيـان اخـرى ناداني باسمي بشيء من الرقة. وكانت العائلة كلها تسلك تجاه الكونت سلوكا هو مزيج من الاحترام والخوف [. . .] كنت أقضي كامل اليوم تقريبا في الحديقة وفي غابـات الـزان او في الاراضي البـائرة. ومن حسن الحظ، كان هنـاك في «ايرنـا كلوستر» كلاب ترافقني. وكانت تنتشر هنا وهناك مزارع كان بامكـاني ان اجـد فيهـا حليبا وخبزاً وثماراً. وكنت اتمتع بكامل حرّيتي ودون ان افكر في لقاءات المساء حول طاولة العشاء. لم اكن اتحدث الى احد إلا مع الكلاب احيانا. كنت أتفاهم معها بشكـل رائـع. الكـآبـة كانت احدى خصائص العائلة. وانا كنت اعرفها عند والدي ولم اكن اندهش حين لا يتكلم احد اثناء العشاء.

خلال الايـام الأولى التي أعقبت وصـولنـا، كانت «مـاتيلد براهـا» ثرثارة الى حد كبير. كانت تسأل والدي عن علاقات قديمة وعن انـاس عرفـاهما في مدن اجنبيـة. وكـانت تتـذكـر أحـاسيس ومشـاعـر بعيـدة، وتتأثـر الى حد البكاء عندما تتذكر صديقات لها فارقن الحيـاة وشـابا توحي لنا انه احبها، وانها ارادت ان تستجيب لحبه لكن دونها أمل.

وكـان ابي يستمـع اليهـا في أدب ويـؤيـدهـا من حين لآخـر بحـركـة من رأســه، غير انـه لم يكـن يجيـب إلاّ على الاسئـلة الضـروريـة. وكـان الكـونت في مقعـده الكبير يبتسم طول الوقت ابتسـامـة مستعليـة ومستخفّـة، بينـما يبـدو وجهه اكثر ضخامة من العـادة كما لو انـه وضـع عليـه قنـاعـاً. ولقد تحدث مرات عديدة. وبـالـرغم من انـه لم يكن يخاطب أحـداً بالـذات، فان صوته كان منخفضاً. ومع ذلك فان القاعة باسرها كانت تسمعه. وكان ـ اي صوته ـ شبيها بالسير المنتظم واللامبالي للساعة [. . .].

وكـان يحدث ان أضحـك. نعم أن أضحك عاليا وبقوة الى درجة انه لايمكنني بعد ذلك ان أهدأ. وذات مساء كانت «ماتيلد براهـا» غائبـة. وعنـدمـا وصـل الخـادم العجوز الذي كان بالكاد يبصـر، الى مقعـدهـا مدّ الصحن وظـل كذلـك عدة لحظـات ثم انصـرف راضيـا ومعتـزّاً كما لو ان كل شيء على أحسن مايـرام. تأملت هذا المشهـد. وفي نفس اللحظـة التي كنت اراقبـه فيهـا شعرت انه ليس طريفا تماماً.



لو اندرياس سالومي

ولكن بعـد قليـل وبينـما كنت أتأهب لابتـلاع لقمـة، صعد الضحـك بسـرعـة الى رأسي الى درجـة اني ابتلعتها بشكل سيء محدثـا صخبـا كبـيراً! ورغم ان الـوضـع لم يكن محتمـلا بالنسبة لي شخصيـاً، ورغم اني حاولت بكـل الطـرق ان أستعيد جدّيتي فان الضحك ظل يندفع بقوة الى ان سيطر علي تماماً. وقال أبي محاولا تحويـل الانتبـاه المسلّط علي بصوته العريض والمخنوق «هل ماتيلد مريضة»؟ وابتسم الجد ابتسامته المعتادة وأجاب بعد ذلك بجملة لم انتبـه اليهـا تمامـا بسبب ذلـك الوضع الذي كنت فيه. واعتقد انها كانت تعني «ان ماتيلد ليست مريضـة وانـما هي تتحـاشى لقـاء كريستـين» ولم اكن اتصـور تأثـير مثـل هذه الجملة الا عندما نهض جاري الآمـر وغـادر القـاعـة بعـد ان حيّـا الكونت وتلفظ باعتذار غامض. وانـدهشت حين رأيتـه يلتفت مرّة اخرى حين وصل وراء الجـدّ وراح يشـير برأسـه الى «ايـريك» الصغير، والى ايضا كما انه يستحثنا على ان نتبعه. وانقطع ضحكي بسبب اندهاشي غير اني لم اهتم بحـركـات الامـر ذلـك انـه كان شخصاً مقيتا بالنسبة لي. ولاحظت ان «ايـريـك» لم يهتم به هو أيضـاً وتـواصل العشاء بطيئا

كالعـادة. وعنـدمـا وصلنـا الى نهايته لفتت نظراتي حركة في عتمة أعماق القـاعـة. حركة حدثت في باب كنت اتصور أنه مغلق دائماً وأنه حسب ما قيل لي يفتح على الدور المسروق. وراح ذلك الباب ينفتح شيئاً فشيئاً. وفي حين كنت انظر الى ذلك بشعور جديد هو مزيـج من الفضـول والانفعـال، انبثقت من عتمـة البـاب سيـدة مشيقة القوام، تلبس ثيابا فاتحة الالوان وراحت تقترب منا. ولست أدري اذا ما أنـا قمت بحـركـة أو اطلقت صرخـة. وحوّل ضجيج كرسي سقط نظراتي عن ذلك الظهور الغريب، وشاهدت والدي الـذي وثب شاحباً كما ميّت، ويـداه متدليتان، وقبضتاه مغلوقتان وراح يسير باتجاه المرأة التي راحت تتقدم منا خطوة بعد خطوة، لا مبالية بأي شيء. وعندما وصلت قرب مقعد الكونت انتفض هذا الاخير، وأمسك بيد والدي، ودفع به باتجاه الطاولة بينما ظلت المرأة الغـريبـة ببـطء وبمبـالاة تجتاز خطوة بعد خطوة الفضاء الذي فتح لها، بصـمـت لم تكن تتخلله سوى رعشـة بعض الكـؤوس، ثم اختفت في باب احـدى الجـدران المقـابلة للباب الذي برزت منه. وفي تلك اللحظـة، شاهـدت «ايـريـك» الصغير وهو يغلق الباب وراء المراة الغريبة بنوع من الاجلال والاكبار.

ظللت وحـدي جالسـاً أمام الطاولة. وكنت ثقيلاً الى درجة أني شعـرت اني لن اتمكن من النهـوض الا بمسـاعـدة أحـد ما. وللحظـة ظللت أنظـر في الفـراغ. ثم فكـرت في ابي ولاحظت ان العجوز لايـزال يمسكـه من يده. وكـان وجهـه غـاضبـاً، ومـترعاً بالـدم، غير ان العجـوز الـذي كانت له اصـابـع شبيهة بمخالب بيضاء كان متشبثا بيده وعلى وجهه تلك الابتسامة المقيتة، ابتسامة القناع. ثم سمعت انه يقول شيئاً، حَرْفاً بعد حرف دون ان أتمكن من فهـم معـنـى الكلمات التي كان ينطق بها. ومـع ذلـك كانت تضرب سمعي بعنف ذلك اني وبعد عامين، عثرت عليها في اعماق ذاكرتي. ومنذ ذلك الوقت وانا اعرف ما قاله خلال تلك اللحظات الرهيبة:

ـ انت عنيف يا «شامبلان». وغير مؤدب أيضاً. لماذ الاتتْرُك الناس وشأنهم؟

ـ من؟ صرخ أبي.

ـ لها الحق في ان تكون هنا: كريستين براها.

ومن جديـد عاد ذلـك الصمت الحـادّ بشكـل غريب. ومن جديـد ارتعش الكأس. وفجأة تخلص ابي من مخالب الجـدّ بحركة عنيفة ثم اندفع الى الخارج.

طوال الليـل سمعتـه يروح ويجيء في الغـرفـة، ذلك أني انا أيضـاً لم اتمكن من النـوم. وعنـد الصبـاح، استيقظت فجأة من نعـاس خفيف، وبفـزع شل أعضـائي وقلبي، رأيت شيئـاً ابيض جالسـاً على الفـراش. ومنحنى اليأس شيئاً من القوة مكنتني من اخفـاء رأسي في الأغطيـة. ومن شدة الهلع انفجـرت, باكيـاً. واحسست بلطف وبصفـاء فوق عيني البـاكيتين غير اني اغمضتهما لكي لا ارى شيئـاً. لكن الصـوت القـريب الذي كلمني، لامس وجهي بدفء لذيـذ. وعنـدئـذ عرفتـه: لقـد كان صوت الانسـة «ماتيلد». وسرعان ما هدأت، ومع ذلك ظللت مستسلما للمواساة بالـرغم من اني أحسست بزوال الخطـر. واكيـد اني احسست ان تلك الـرقـة كانت جد ناعمـة غير اني كنت سعيـداً بها حتى اني تصـورت أني أستحقهـا. «عمتي» قلت اخيرا محاولا ان اجمـع في وجهها المنتشر أمامي ملامح أمي البعيدة والمشتتة.

ـ عمتي من كانت تلك المرأة؟

ـ مع الأسف، قالت وهي تتنهـد بطـريقـة بدت لي مضحكة، انها شقيـة ياولـدي، نعم انهـا شقيـة» في صبيحـة نفس اليوم رأيت في الغـرفـة بعض الخـدم منشغلين بجمـع الحقـائب. وفكرت في اننا سوف نرحل. وبدا لي ذلك طبيعيًا جدا. وربما يرغب ابي في ذلك أيضاً. وابدا لم إعرف السّبب الذي أبقاه مزيدا من الوقت في «ايرنا كلوستر» بعد تلك الليلة. وهكذا بقينا ثمانية اوتسعة اسابيع اخرى في ذلك البيت متحملين ثقل تلك الغرائب. وشاهدنا ثلاث مرات «كريستين براها».

لم اكن اعـرف عنـدئـذ شيئـا عن قصتهـا. ولم اكن اعلم انها توفيت منذ وقت طويل، بعد مخاضها الثاني الذي انجبت فيه طفلا عاش حياة تعيسة ومرعبة ـ لم أكن اعلم انها ميّتة. غير ان ابي كان يعلم ذلـك. هل اراد وهـو الـذي يمتلك مزاجاً متقداً وفكراً صافياً ومنطقيا في نفس الوقت، ان يفرض على نفسه تحمل تلك المغامرة وان يتملك زمـام نفسـه دون ان يتسـاءل؟ رأيتـه ـ ودون ان ادرك السبب يصارع نفسه واخيراً رايته وقد سيطر عليها تماماً.

وكان اخر مساء شاهدنا فيه «كريستين براها» لآخر مرة. وفي تلك المرّة كانت الانسة «ماتيلد» جالسة هي أيضاً معنا. غير انها لم تكن كعادتها. ومثل تلك الأيام التي اعقبت وصولنا، كانت تتكلم دون انقطـاع مرتبكـة من حين لآخر. ودائما كان لها ذلك الانشغال بتسـويـة شعـرهـا وبتفقد ثيابها. ثم نهضت فجأة واختفت بعد ان اطلقت صرخة حادة شبيهة بالنواح.

وفي اللحظـة ذاتهـا استـدارت نظراتي غصباً عنّي باتجاه باب ما: ودخلت «كـريستـين براهـا». الآمـر الذي يجلس بجانبي قام بحـركـة عنيفـة وسـريعة تواصلت في جسدي غير انه لم يتمكن من النهوض. وراح وجهه العجوز والاسمر الموسوم بآثار انفجار البارود ينتقـل من واحـد الى آخـر بينما كان فمه مفتوحاً ولسانه يتلوّى وراء أسنـانـه المتعفّنـة. ثم فجأة، اختفى هذا الـوجـه، وتدحرج رأسه الرمادي فوق الطاولة، وغطته يداه كما لو انه اجزاء متناثرة، وتحته، في مكان ما، بدت يداه رخوة ومبقعة. وكانت ترتعش.

وعندئذ اجتازت «كريستين براها» القاعة خطوة خطوة، ببطء تمامـا مثـل مريض، وفي صمت لم يكن يرن فيـه غير صوت شبيـه بأنين كلب عجوز. على يسار التم الفضي المملوء بالنرجس، كان يتزحلق القناع الكبير للكونت العجوز وهو يكشر بابتسامة رمادية. رفع كأسه باتجاه أبي. وعندئذ رأيت والدي، في نفس اللحظة التي كانت تمر خلالهـا «كـريستين براها» وراء مقعده، يرفع كأسه بدوره بشيء من الجهد كما لو انه شيء ثقيل.

وفي نفس تلك الليلة غادرنا «ايرنا كلوستر».

ست قطئد

راينار ماريا ريلكه

١) وحدة

الوحدة مطر: انها تنبثق من البحار
وتصعد باتجاه المساءات.
تنبثق من السهول البعيدة والمنزوية
وتصعد باتجاه السماء التي تمتلكها دائماً
ومن السماء تسقط فوق المدينة.

هي تسّاقط مطراً في الساعات المريبة
عندما تنفتح على الصباح كل الشوارع
وعندما لاتجد الاجساد شيئاً،
وكئيبة وخائبة تتباعد عن بعضها بعضاً،
وعندما في نفس الفراش يضطر
كائنان يتباغضان أن يناما

عندئذ تمضي الوحدة مسايرة الأنهار...

٢) رودان

لاطفولة له ولا عمر.
طفولته كانت شباب الأحجار
وسنه ليس له.
الذي يبتكر الأشكال
وحيد بين اشكاله
في يديْه تضطجع التربة
أشياؤه كما نجوم تدور من حوله
محيطة اياه بلآلئها.
لقد بنى جواره
ثم ابتكر أفقاً.

٣) بوذا

كما لوانه يصغي. صمت: من مكان بعيد...
نحبس أنفاسنا ولا نسمعه.
انه نجمة. تحيط به كواكب كبيرة
نحن لا نراها.

٤) الشاعر

أيتها الساعة، ها انت تهجرينني وتبتعدين عني،
صخب جناحيك يمزّقني.
وحدي: ماذا ترى افعل بصوتي
وبليلي؟ وبنهاري؟
لا حبيبة لي ولا بيت
ولا مكان ألجأ اليه أو أعيش فيه
كل الاشياء التي أهبها نفسي
تَغْتني ثم تهملني.

٥) السجين

يدي لم تعد تعرف غير حركة ،
أن تطرد دونها جدوى
الرطوبة التي تنزّ من الصخور.

انا لا أسمع غير هذا الماءَ الذي يضرب كما المطارق
ومع القطرات التي تتساقط
يتوحد قلبي ومعها يضيع .
ترى هل تسقط باكثر سرعة ،
فاليعد الوحش على أية حال .
في مكان ما تنزل العتمة
غير اننا لا نعرف شيئا عنها .

تصور أن ما هو سماء وريح : الآن ،
وان ماهو هواء لفمك ، وصفاء لعينك ،
يتحول فجأة الى صخرة تحاصرك وتضغط عليك
في الفضاء الضيق هناك حيث قلْبك ويداك ،

وان مايسمى الان غد بالنسبة لك
ثم : في مابعد السنة القادمة ،
وهكذا لن يكون الا جرحاً متقيحاً فيك ،
جرح يتقيح طول الوقت ولايبرأ أبداً .

وان ما كان سيكون كاذباً ومزيفاً
وفي كل جزء فيك ينتصب ،
مالئاً بزبد الضحكات .
الفم المحبوب الذي لم يضحك أبداً
وان ما كان الله لن يكون غير حارسك ،
وبخبث ، وبعين ماكرة يسدّ آخر فتحة .
غير انك ستعيش على أيّة حال .

٦) حقل الزيتون

كان يصعد تحت الاغصان الداكنة
رماديًا وذائباً تماماً في حقل الزيتون
موارياً جبهته المعفرة بالغبار
في الغبار الآخر لليدين الساخنتين

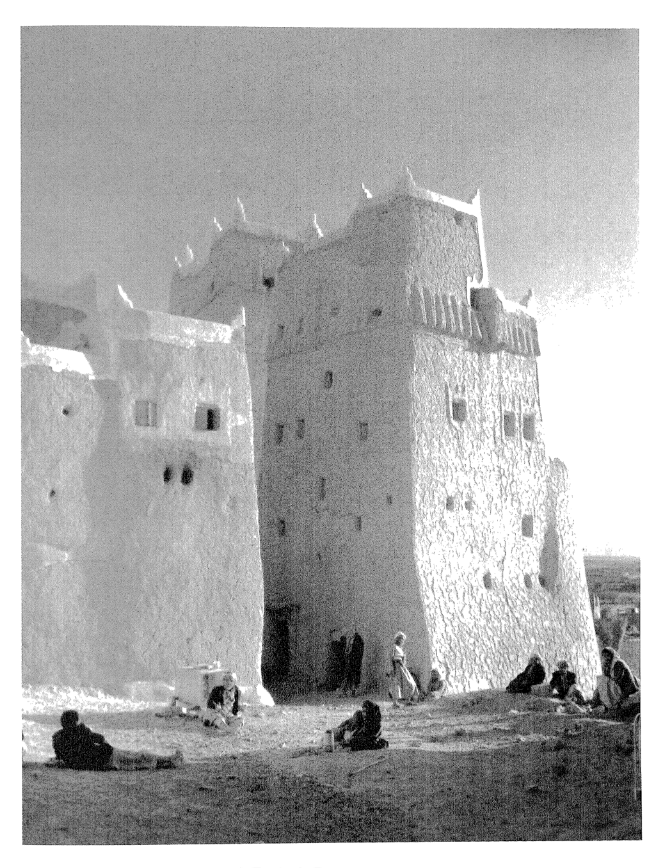
مرّة أخرى هذا الشيء . ثم النهاية .
والان ، اعمى ، عليّ ان أسير
ولماذا تريد ان اقول لك من انت
في حين أنني لم اعد أجد نفسي .

أنا لا أجدك . ليس فيّ .
ليس في الآخرين . ليس في هذه الصخرة .
انا لا اجدك . انا وحيد .

أنا وحيد مع شرور كل البشر
التي حاولت من خلالك أن أخفف منها ،
انت الذي لاتوجد . آه ياللخجل الذي لا اسم له . . .

في مابعد ، يأتي ملاك ، هكذا قيل .
لماذا ملاك؟ آه ولكن الليل هو الذي أتى
ولا مبالياً راح يدمدم بين الاغصان .
المريدون راحوا يتململون في أحلامهم .
لماذا ملاك؟ آه لم يكن غير الليل .
الليل الذي اتى كان شبيهاً بالليالي الأخرى التي تعبر بالمئات .
وفيها تنام الكلاب والأحجار .
ليل حزين . ليل عادي
ينتظر قدوم الصباح .

ذلك أن الملائكة لا تأتي بجانب متبهلين كهؤلاء ،
والليالي لا تتحمس لها أبداً .
الذين يتيهون يفقدون كل شيء ،
وآباؤهم يهبونهم هدايا
وعن أحضان امهاتهم يبعدون .



ندوة حول جون بول ســـارتر في مدينة فـــرانكفورت

مثقفون ألمان مرتابون أمام ســارتر

بين ٩ و١٢ يوليــو من السنــة الحــاليـة، عقـدت في مدينـة فرانكفـورت ندوة هامة حول سارتر فيلسوفاً ومفكراً، حضرها ألف ومئاتي شخص أغلبهم شبان أتوا من جميع أنحاء المانيا، وقد كانت هذه الندوة حدثاً ثقافياً متميزاً أكدّت ان سارتر، خلاف ما يعتقده البعض وخاصة في فرنسا لايزال حاضراً، وانه لايزال يحظى بنفس الأهميـة التي حظي بها بعـد الحـرب العالمية الثانية أي في فترة ظهور الـوجـوديـة، وخلال الستينات والسبعينات حينما وقف مدافعاً عن حركـة الشبيبـة اليسارية وبخاصة عن انتفاضة الطلبة في مايو/ ايار ١٩٦٨. بعض المثقفـين الالمـان الذين اشرفوا على الندوة فاجأهم العـدد الهـائـل للحاضرين، بل ان البعض منهم أصيبوا بالدهشة واخرون اغتاظوا قليلا ذلك ان الندوة التي سبقت ندوة سارتر والتي نظمت في نفس المـدينـة حول فكـر «ادورنو (ADORNO) الذي يعد من أهم ممثـلي مدرسـة فرانكفــورت لم تجلب اليهــا سوى ٥٠٠ شخص فقـط! ومن الجدير بالملاحظة ان الندوة دارت دون حضور أي مفكر أو فيلسوف فرنسي.

الفكـرة التي انطلقت منهـا الندوة هي تمكين الفلاسفة الالمان الحـاليـين من قراءة سارتـر ومن ابـداء آرائهم حول فكره وفلسفته. ولقـد خصص الفيلسـوف «يـورغن هابـرهـاس (J. HABERMAS) دروسـا خلال السنـة الـدراسية المنصرمة حول كتاب سارتر الشهير «نقـد العقـل الجـدلي». غير انـه خلال النّـدوة اعتـذر عن تقـديم مسـاهمة ذلـك انـه لا يزال حسب رأيه بطبيعة الحال غير متآلف مع الفكـر السـارتـري. ومـع ذلـك، فان حضور «هابرهاس» كرئيس للندوة المذكورة اسْتَحثّ الافكار وحرّض على الجدل والنقاش.

أمـا الفيلسـوف «مـانفـريـد فرانك» (MANFRED FRANK) الـذي يعـد اليـوم واحد من أهم وأعمق الفلاسفة الألمان، فقد قرأ سارتـر بعمق. ولـذا فانـه قدم محاضـرة هامـة حول فكـره وأسلوبه الفلسفي. وبـين ممثـل «مـدرسة فرانكفورت»، هاربرت شنادلباخ (HERBERT SCHNÄDELBACH) بدقة ونزاهة متناهيتين، كيف ان كلا من «هــوركـايـمــر» (HORCKHEIMER) و«ادورنــو» (ADORNO) تجاهـلا سارتـر بالـرغم من أن هذا الأخـير كان خلال السنـوات الخمسـين والستـين قد قام ببحـوث جعلتـه قريبـاً من «النظـريـة النقدية». وبالمقابل تجاهل سارتر «مدرسة فرانكفورت» واظهر نحوها لامبالاة كاملة.

أمـا «بطـريـرك» الفلسفـة الالمـانية الحالية، «هانس غيورغ غادامـار» (HANS-GEORG GADAMAR)، مريـد هيدغير، والبالغ من العمـر ٨٧ عامـاً والـذي نزل من مرتفعـات هايدلبارغ لحضور النـدوة المـذكـورة، فقد أمْتعَ الحاضرين حين روى اليهم كيف قرأ لاوّل مرّة، وكـان ذلـك عام ١٩٤٦ كتـاب «الـوجـود والعدم» وقد اعـترف غادامـار باهمية هذا الكتـاب الذي كتبه صاحبه تحت تأثير الفلاسفة الالمان الثلاثة: هيغل وهوسرل وهيدغير، بالرغم من انه يبدو غريبا عنهم تماماً.

يبقى ان نتســاءل عن معنى هذه العـودة الجـديـدة لسـارتـر ولفكـره. والتفسـير الاقـرب الى الصحـة هو ان الجيل الجديد من الخضر تعب من النظريات التي تأثر بها في البداية وهو الان يبحث عن نظـريـة تتجسـد فيهـا الحـرية الحقيقيّة ثم ان الفلاسفة الالمان الجـدد لم يجدوا في نظـريات هابرماس وغيره ما يجيب بشكل واضح وَكـافٍ عن الاسئلة الجـديدة. والبعض منهم أصبح يجد في فلسفة سارتر ما يرضيه وما يُقنعه أيضاً.



حوار تحت شجرة كستناء

(حول اللقاء بين الشاعر الفرنسي رني شار والفيلسوف الوجودي مارتن هيدغير)

جون بوفري

مقدمة :

أحتلفت باريس وعـدة عواصم أوروبيّـة ـ من بينها مدينة ميونيخ ـ بمرور ثمانين عاماً على ميلاد الشاعر الفرنسي الكبير رني شار الـذي قرّر منذ سنوات طويلة الابتعاد عن الأضواء ، مفضلا العـزلـة التـامـة في بيت جدّه في قريـة «ليـل سـيرسـورغ» (LILLE-SUR-SORGUE) الفرنسية . وبهذه المناسبة تقدّم «فكر وفن» لقرائها الاعزاء نصا يتحدث فيه الفيلسوف الفرنسي «جون بوفـري» عن اللقاء الـذي تم بين الشاعـر رني شار والفيلسوف الـوجودي مارتن هيـدغير، والـذي دار خلالـه حوار طويل حول العلاقة بين الشعر والفلسفة .

تحت أغـصـان شجـرة كستنـاء في «مـينيلمـونتـون» (MENILMONTANT) ، تحدث فيلسـوف وشـاعـر عن نفسيهما وعمّا يعرفانه . ، مارتن هيدغير ورني شار يتعلمان لغة حوارهما . باريس تعيش راحة العطلة . نحن في عام ١٩٥٥ . «خـلال زيـارتي الى فرنسا ـ كتب هيـدغـير ـ ساكـون سعيـدا اذا ما انا التقيت جورج براك ورني شار» .

لاشيء اكثـر مخاطـرة من مفـترق الطـرق . ولكن ، والليـل الصيّفي ينزل :

«هناك على الطاولة

حيث يتـوهـجّ النـور الصّافي ، الخبز والخمر» وبرغم آختلاف الحياتين واللغتين ، ثمة تفاهم حصل بين الفيلسوف والشاعر . انه حوار الشعر والفكر .

الفكر ، في عمق أعماقه حوار . انه يسعى من خلال الحوار ان يحدّد موضعـه مع البـاحثـين عن موقـع والـذين هم المفكـرون منذ البدايـة . ارسطـو هومن البـداية الى النهاية حواره مع افلاطون . والحـوار الهيغـلي هو محاولـة للانفتـاح على كليّـة الكلمـة . غير ان الكلمـة ليست فقـط كلمـة الفكـر . الاكثر قدما من كلمة المفكر ، الكلمــة الشعـريـة . كلمـة هومـيروس التقطت الجـوهـري قبـل هيرقليطس . انهـا تأسيس لعـالم جديـد الـذي هو العالم الاغريقي والـذي شهـد مولـد الفلسفة . وقبل الفلسفة بفترة طويلة ، فتحت الكلمـة الشعـريـة الفضـاء الذي فيه ، كما يقول هيزيود ، واجهت الآلهـة البشـر . ولكن لماذا الكلمـة هي اكثـر اقـتراباً من الفكر منها للشعر؟ ومن أين لها هذه الازدواجية؟ كل ما هو بروز يلتذ بالتقلص والانكماش هكذا يقول لنا هيرقليطس . والسؤال يظل دونما جواب وعلى الاكثـر ، نحن نحـاول ان نتـوافق مع ازدواجية الكلمة . ان نتـوافق يعني اننـا نلج ابعـاد الحوار . الحوار لايحاول البتّة ان ينقص من قيمـة الآخـر ، كما تفعـل احيـانا الفلسفة بالنسبة للشعر وذلك باستعـماله مادة لتفسير افكارها ومدلولاتها . ان الحوار الذي نقصده هو ذلـك الـذي يحرص ان يُبقي الاخـر كما هو . يقـول شار عن هيـدغـير « لاوّل مرّة لم يحاول رجـل كهـذا ان يُفسر لي من أنا وماذا افعـل» . كان هيـدغـير يستمـع اكثـر مما كان يتكلم . ومن هذا الاستـماع الـذي يصـل الى حدود الصمت ولدت إمكانية التوافق دونما جواب ، ذلك ان الجواب كان قد حوّل ما هو موضوع للتفكير الى مشكلة ، اي كما يوضح ذلك ليبنيتز الى مقترح ، ترك جزء منه في البيـاض . . . تماماً مثلما نحن نطلب مرآة تتمكن من جمع أشعة الشمس في نقطـة واحـدة . الشـاعـر هو بالفعل ، هذه المرآة ، ولكنه ليس اطـلاقـا «للطلب» . واذا ماهـو حرص دائماً على التخفي ، فلأنـه خطـر بالنسبـة للفكـر ، غير أنه خطر صحي . «ثلاثة أخطار تهدّد الفكر .

والخطر الرائع هو منذ ذلك الوقت صحي ، انه بجوار الشاعر وهو بالقرب من نشيده أيضاً .

الخطـر المـاكر هو أكثر الأخطار حدّة وقسوة . انه الفكر نفسه . عليه أن يفكّر مسايراً منحدراً مدبراً في ما لا يعرفه إلّا نادراً .

أمّا الخطر الضار والمفْسد فهو الذي يخلُط ويشوّش كل شيء .

وأعني به التفلسف . » .

هكـذا يحدث هيـدغـير نفسه لما تتغير الريح فجأة ، مزمجرة في اخشاب البيت ، ولما يصبح الطقس رديئاً .

اذا ما كان الشّعر والفكر قريبين من الكلمة ، فانه ليس على الشاعر ان يظل على الأقل بالنسبة للمفكر الطرف الآخر من حوار محفـوف بالمخاطر ، يفرض على الفكر تحفظاً نادراً . يقول هيدغير: «الحـوار مع الشعـر ، اذا ما كان حواراً ينطلق من الفكر ، يهدّد دائما بتشويش الكلمة الشعرية عوض ان يترك لها عُذوبة صوتها» . وأكثر غمـوضـا هو الحـوار بين الشـاعـر والشـاعـر . هكـذا هو لدرلين في «هـامبـورغ» (Homburg) في ترجمـات «اوديب» و«انتيغـون» وفي المـلاحظـات التي تتبـع هذه الـترجمـات ، في حواره مع سوفـوكل . وهكـذا تحاور «رونسـار» مع الشعـراء الاغـريق تمامـاً مثلما تحاور «راسين» مع «اوربيد» و«فيكتور هوغو» مع «فرجيل» . وهكذا تحاور

«رني شار» في «البحث عن القاعدة والقمة» مع «مالارمي» و«بودلير» و«رامبو» وغيرهم[. . .] .

ولكن الا تسمح محاولتنا الحوارين، الذي هما كما يحدّدهما هيدغير، حوار الشاعر مع الشاعر، وحوار الفكر مع الشعر، بمحاولة ثالثة هي حوار الشعر مع الفكر؟ لايقول هيدغير شيئاً بخصوص هذا الموضوع . أما «شار» ، فيسعى دون ان يوضح الى إبراز الأخطار التي يمكن ان تنْجم عن ذلك . الشّعر بدأ أحيانا خلال تاريخه كما لو أنه متحالف مع مهنة الفكر . ودون ان يتخلى الشعر على ان يكون نفسه، عرف كيف يبتكر الفن الذي يؤهله ان يفكر في مسائل ومواضيع مختلفة . كذلك كانت قصيدة بارمينيد، وبندار، وماذا عن هيرقليطس؟ ان كلمة هيرقليطس تضرب في القلب دون ان تظل ما قبل الهدف ودون ان تضيع في ما وراء الكواكب [. . .] . ثم جاء عصر أصبح فيه الشاعر طفيليّا بالنسبة للفيلسوف . ومنذ ذلك الوقت قام السؤال التالي : كيف يمكن للشعر أن يتحاور مع الفكر؟

الفكر في أيامنا هذه لغة حزينة لا يحييها الا الجدل من حين لآخر . لهذا، لايجد الشعر اذا ما طمح في التحاور مع الفكر، في الفلسفة الحالية شيئا ذا أهمية . وهذا كان خطأ السوريالية التي اعتقدت ان الانفتاح على الفلسفة الحديثة ممكن، وربما يساعد على خلق نماذج ابداعية جديدة . يقول هيدغير: «من العلم الى الفكر ليس هناك ممرّ . ليس امامنا إلاّ ان نقفز . والفلسفة ليست الفكر . انها فقط ـ وهكذا يحددها هيغل ـ طريقة خاصة للفكر، بها يصبح الفكر معرفة، أي معرفة من خلال المفاهيم . هذا هو الفكر كفلسفة . ان تكون بالنسبة لهيغل، الشكل المكتمل للفكر، هذا واضح، ولكن هل هذا الوضوح كاف في حدّ ذاته . أليس هناك فكر عميق دون ان يكون فلسفياً (هيرقليطس على سبيل المثال)، أو مثلما يصف هيدغير في «رسائل حول الانسانية»، مسرحيات سوفوكل . اذن، ليس في ان يغوص في الفلسفة، لكي يصبح الفكر عميقاً، وانما حين يتخلص منها . وعندئذ يصبح حسب تعبير هيدغير «تحطيماً للفلسفة» . غير أننا لا بد ان نفهم كلمة «تحطيم» حسب المعنى الذي يمنحه إيّاها رني شار في البيت التالي : «واخيراً، اذا ما أنت أردت ان تحطّم فعليك ان تحطم بأدوات زفافيّة» .

والذي لا يَعْسُرُ تنفّسه، لايمكن ان يتعلم شيئاً . والحكمة ليست جاهزة طول الوقت . انها لا تحضر الا عند اشتداد الأزمات . ودون يأس أوتشاؤم، ودون أن تكون مدينة للانسان بشيء، ودون ان تكون متحرّرة من أي قلق، هي تريد لنا الخير وتستحثنا . القدماء عرفوا حكم «أبيقراط» وأوصلوها لنا . وإذا ما كان التقاء الشعر بالفكر عند «شار» هو حكمة فلأننا «نلامس زمن اليأس الأقصى والأمل الذي دونها سبب، الزمن الذي لايمكن أن يُوصف» .

إن البون الشاسع بين الشعر والفكر ربما يكون بسبب وجود الشعر من قبل بينما الفكر لما يشرع بعد في التفكير . أوبالاحرى لم يبرز الفكر إلا لكي ينحرف في الحال الى فلسفة، أي الى ميتافيزقيا . الحوار مع الشعر لا ينطلق إلاّ من فكر بالكاد يكون ممكنا وهذا الفكر يمكن ان يكون عندئذ فكراً متخلصاً من الميتافيزقيا ومن مفاهيمها . ولاينفتح الشعر إلاّ على مثل هذا الفكر . ان الفكرة التي شغلت هيدغير كثيراً، والتي هي الحوار مع الشعر، اذا ما كان ذلك ممكناً في المستقبل، هي في مقدّماتها مع ذلك أقل خبرة حين تخاطر بالاستماع الى الشعراء . غير انه اذا ما انفتح الشعر من جانبه على الفكر، فان هذا الانفتاح لايفترض البتة، مثلما أعتقد خطأ، نزعة أو اعلاء للكلمة الميتافيزيقية . انه بالأحرى التمثل الميتافيزيقي الذي يفجره الشعر حسب رغبته . بوثبه واحدة هو يسبق الفكر دون ان يتمثل هدفه في أن يتقدمه . يقول هيدغير «ان مصير العالم يعلن عن نفسه في اعمال الشعراء من قبل ان يكون واضحاً وجليّاً مثلما هو الأمر بالنسبة لتاريخ الكائن» . ويقول شار: «عند كل أنهيار للدلائل والبراهين، يجيب الشاعر بصلية من المستقبل» . كل ماهو صلية ينقذ ويحيي . وهيرقليطس كان منقذاً من هذا النّوع . واذا لم يتمكن الفكر من أن يُدْركه وهو في بعده الممتدّ قبل المرحلة السقراطية الا من خلال توسّط فيه الكثير من المكابدة، فان الشاعر كان قد استدل اليه منذ زمن طويل ولجأ اليه كما يلجأ الى سقيفة . وهكذا فإن التناقض بين البطء التأملي الذي يفكر مسايراً منحدراً مُدْبرا وبين القصيدة السريعة والمتوثبة يحمي تقارباً أكثر سرية . وموضع هذا التقارب هو في مجال واحد، هو مجال الكلمة واللغة التي تتكلم بها [. . .] .

يقول «شار» تحت شجرة الكستناء : «القصيدة بلاذ اكرة . ما يُطلب منّي هو ان أتقدم» . وقد قال من قبل : الشعر، من بين كل المياه الصّافية، هو الذي يتباطأ كثيراً عند انعكاسات جسوره» .

وكان هيدغير يعشق هذه السرعة التي يتمثل قانونها في حرق المراحل . واذا هو لم يكن الا عند مروره، واذا هو لا يترك إلاّ أثارا، فان الشاعر مع ذلك ينطلق من اقصى البعيد باتجاه المستقبل . غير ان الانسحاب الذي منه ينبثق السهم لايكون عمقاً إلاّ من خلال حياة الحركة التي لايمكنه التحكم فيها . «الشعر الحديث له بلاد خلفيّة لا شيء معتمٌ فيها غير سياجها . لا عَلَم يمكنه ان يُرفرف طويلاً فوق طوف الجليد هذا الذي، منساقاً الى نزواته، يمنح نفسه لنا ثم يستعيدها . غير انه يرشد عيوننا الى البرق والى منابعه العذراء» (رني شار) ان الفكر الذي يصبح أكثر تفكيراً من الفلسفة هو طوف الجليد الذي لا مهمة له غير ان يواجه وبصبر آخر غير صبر التاريخ الذي لا يُعلم الا الصحراء . ولكن ها شيئاً فشيئا، وفي ريح انقشاع الجليد، يترجرج الساكن . والذي لم يكن، يستعيد الحياة . وتشرع كلمة الكائن في الكلام، مجيبة حسب رغبتها على كلام الشاعر الذي لم يسبقها إلاّ لكي يجد فيها صداه .

هكذا التقى، مرة وذات مساء صيف، شخصان مختلفان غير انهما من جنس واحد . والاثنان متلفّعان بوحدة مضيئة ذلك انهما لا يتباينان إلا في نفس الهَمّ الذي يحتفظ من الكلمات بهدف ان تكون كلمة .

ملاحظة : وقع تصرّف طفيف في بعض الفقرات وذلك بهدف تسهيل النص على القراء

كلمة حول الندوة التي عقدت في المركز الثقافي الدولي في مدينة الحمّامات

التقارب المتبادل ـ عن طريق الترجمة

كثيرا ما استشهد بابن خلدون في الندوة التي دعا اليها المركز الثقافي الدولي حوالي عشرين شخصاً في أواخر يوليو/ تموز. لم يكن ذلك فقط لأنّ ابن خلدون ولد في الاراضي التونسيّة وقضى فيها جزءاً من حياته أيضاً، بل ولأنّه «عالم الاجتماع العربي»، ولربّما لأنّه كان أوّل فيلسوف عربي في علم التاريخ والذي فكّر في نشأة الحضارة والحضارات والذي أعطى رأيه في علاقة الحضارات المختلفة بعضها مع بعض. إنّ ملاحظة ابن خلدون بأنّ الشعوب المغلوبة تقلّد الشعوب المنتصرة في طرق معيشتها وتأخذ عنها الكثير، استخدمت بأشكال مختلفة أثناء الندوة كنقطة انطلاق لأفكار تتعلّق بنشاط الترجمة.

لقد كان موضوع الندوة «الترجمة وحوار الثقافات. والهدف من وراء هذا اللقاء المحمود أن يخدم كمحاولة أولى للجمع بين أشخاص يهتمّون بمسألة الاتّصالات الثقافيّة مع آخرين إمّا يترجمون إلى العربيّة أو منها. وبالاضافة إلى ذلك فلقد تواجد بين الحضور بعض المؤلفين التونسيّين ممّا أتاح الفرصة أمام الضيوف الغير تونسيّين لاستقصاء المعلومات عن النشاط الأدبي المعاصر في تونس وبالطبع إنشاء علاقات شخصيّة أيضاً.

إن تنوع نشاطات المشتركين واهتماماتهم أدّي إلى تنوّع مواضيع المحاضرات التي ألقيت. وهكذا تكلّم مثلاً الدكتور مسعود ضاهر من الجامعة الأمريكية في بيروت عن الدور التاريخي للبنان في الوساطة بين الثقافات العربيّة والأوروبيّة، الدور الذي أخذه لبنان على عاتقه منذ القرن السادس عشر على الأقل والذي لايزال قائماً حتى اليوم، وخصوصاً من قبل العديد من العلماء والمثقفين اللبنانيّين الذين يعمل قسم منهم في دول غربيّة وقسم آخر حاز على تقدير عالمي.

دون الاشارة الى بلد معيّن عالجت محاضرة الدكتور جلّول عزّونة التونسيّ نظريات التأثير والتأثّر بين الثقافات المختلفة (ابتداءً بفخر الدين الرازي ومروراً بمونتيسكيو إلى هشام جعيط)، وكذلك محاضرة ابن بلده الدكتور أبو يعرب المرزوقي الذي عالج فيها كيفيّة مساهمة نشاطات الترجمة في التقدّم التكنولوجي.

وفي مجال الترجمة الحديثة من الأدب العربي إلى لغات أخرى قُدّمت ـ بالاضافة إلى آراء الشاعر المغربي عبد اللّطيف اللعبي عن إمكانية ترجمة الشعر من لغة إلى أخرى ـ أوصاف لأوضاع معيّنة ومحاولات لتقديم حلول لمشاكل محدّدة: ماذا تُرجم حتّى الآن؟ ماذا يترجم في الوقت الحاضر؟ ماهي المشاكل التي يواجهها المترجمون. لقد قدّم السيّد عبد الوهّاب الدخلي لائحة كاملة بجميع الأعمال الأدبية التونسية في اللغة العربيّة التي يمكن الحصول عليها بلغات أوروبيّة. فكون اللغة الفرنسية تحتل مكان الصّدارة في هذا المجال لايُدهشنا أبداً. ولكن أن تُذكر اللغة الألمانية مرّة واحدة فقط فهذا شيء مُخجل الى حدّ ما.

ومن مناطق لغويّة أخرى حاضرت الدكتورة ايزابيلا كاميرا دافليتّو من روما عن الوضع في إيطاليا، كما وحاضر الدكتور فينديريش من بيرن عن الوضع من المناطق التي تسودها اللغة الألمانية. وفي كلتا الحالتين يوجد تواز مُلفت للنّظر: إنّ الجوّ السياسيّ في كلا البلدين يزيد من صعوبة انتشار أدب عربيّ معاصر فيها. وبكلمات أخرى صريحة: فإن العرب، وحتى يومنا هذا، لاينعمون بسمعة طيّبة هناك. ويُضاف إلى ذلك، انّه حتى اليوم وفي الأوساط الأكثر ثقافةً لا يرد الى الخاطر عند ذكر «الأدب العربي» سوى «ألف ليلة وليلة». فأي حديث عن الأدب العربي يبدأ وينتهي هنا. وبما أنه لايرد شيئاً، أويكاد، على الصفحات الأدبيّة في الصحف الايطالية او في المانيا الاتحادية أو سويسرا من البلدان العربيّة فإن مجال التعريف بهذا الأدب، والذي هو من مقوّمات ازدياد الاهتمام في الموضوع، يصبح ضئيلاً جداً. وعند هذه النقطة أشعلت محاضرتان أخريان عن نشاطات معيّنة بريقاً من الأمل في أن ينشأ تعاون واسع النطاق في مجال ترجمة أعمال أدبية عربية معاصرة وتبشر حتى في الحصول على دعم من قبل البلدان العربية. لقد وضّحت السيّدة ريتا عوض من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، نشاطات هذه المنظمة، والتي ـ بالنسبة للترجمة ـ دعمت حتى الآن ترجمات إلى العربيّة، إلاّ أنها قد توافق على دعم العمل الشاق للمترجمين والناشرين في البلدان الأوروبيّة دعماً مالياً. أمّا السيّدة ندى عبد الله، فإنها تعمل مع Institut du Monde Arabe (معهد العالم العربي) وهو المعهد الذي لايزال في مرحلة التأسيس حالياً في باريس، والذي تكاد تشترك فيه جميع الدول العربية بالاضافة الى الحكومة الفرنسية. وهناك، لا تتواجد فقط إمكانيات استقاء المعلومات ـ مثل مكتبة وفيديوتيك ومتحف ـ بل إنّه يُنشر منذ سنتين بتكليف من المعهد العربي

وبدعمه المادّي بوادر مجلّدات من مشروع ضخم لترجمة الأدب العربي المعاصر.

هنا لرُبّما يضع المرء ابن خلدون خلفه، لتبنّي القول، بأن التقليد يحدث بترتيب الرُّتب والقوى: الأطفال يقلّدون الوالدين، والرّعية تودّ أن تتصرف كالملوك، والمغلوبون يأخذون معارف وعادات المنتصر. وربما مازال يحدث هذا حتى اليوم في بعض المجالات، التي يسبق البعض فيها البعض الآخر. لقد حدث ذلك فعلاً. وهذا أيضاً بُحث في الندوة في الحمامات - بالنسبة للأدب في بداية النهضة العربية، في مرحلة إدماج المؤلفات الأدبية في محيط جديد.

أمّا اليوم فلقد طوّر كل بلد عربي صوته الأدبي الخاص به؛ فهناك المؤلفات التي تتحدث عن البلد، عن الناس فيه، عن تصرّفاتهم، عن تفكيرهم، عن آمالهم وعن مخاوفهم. أي أنه تظهر اليوم مؤلفات يمكن أن تُقرأ وتُفهم كمصدر للمعلومات بمعناه الواسع. ولهذا السّبب بالذات - وهذا ما يتفق عليه المترجمون من العربية على الأقل - يجب ان يكون في مجال اهتمام البلدان العربية، أن يُسمع صوتها أو أصواتها خارج العالم العربي. ولكن لكي يُسمع الصوت يجب أن تترجم هذه المؤلفات، ويبدو أن بعض الدول العربية، وأيضاً اتحادات الكتّاب أو المعاهد الثقافية الشبيهة بالذي في الحمّامات، بدؤوا بالاهتمام البطيء الحذر في أولئك الأشخاص الذين، هم وحدهم، يستطيعون إسماع الأصوات العربية خارج العالم العربي - ألا وهم المترجمون.

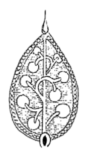
كيف نتابع المسيرة إذن؟ هذا السؤال طرح في مدينة الحمّامات أيضاً، ولقد أشير إلى إمكانيّات مختلفة. توجد في الأساس مشكلتان (هذا بالنسبة لجميع الدول الأوروبية): مشكلة المال ومشكلة الاستعلام واستحضار الموادّ.

إنّ مشكلة المال تعني أنّه بالنسبة للوضع الحالي، في المرحلة الأوّليّة بكون عدد النسخ قليلاً جداً، وبصعوبة يمكن لدور النشر تحمل تكاليف الترجمة لوحدها، لذا فيجب الحصول عليها من مؤسّسات معيّنة، كما يحدث في دول كثيرة، مثل ألمانيا الاتحاديّة وسويسرا، التي تقدّم الدّعم المالي لترجمة مؤلفات آدابها القوميّة إلى لغات أجنبيّة.

أما مشكلة الاستعلام واستحضار المواد فتعني أنّه لا يسهل دائماً على المستعربين الأوروبيين أن يُكوِّنوا صورة واضحة عن النشاطات الأدبيّة في الدول العربية المختلفة وأن يحصلوا فوق ذلك على المؤلفات. وهنا يكون من المحبّذ جداً، ليس فقط إن تكرر ندوات مثل تلك الندوة في الحمّامات، بل وأن تستخدم أكثر فأكثر، أوّلا لافساح مجال التعارف بين المترجمين من مختلف البلدان، وثانياً لاعطائهم المعلومات الكافية عن التطوّرات الأدبية والثقافيّة العامّة بشكل محدّد.

هل يمكن لأحلام التقارب المتبادل أن تتحقّق أم لا؟

هارتموت فيندريخ



اخبار واحداث ثقافية

نهضة مصر كقوة عالمية ـ معرض في متحف (رومر وبليتسيوس) في هيلدسهايم.

تتسم السنوات مابين ١٤٠٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد للدولة الجديدة في مصر الفرعونية باهميتها التاريخية لمنطقة الشرق الادنى كلها حيث نهضت مصر فيها وأصبحت القوة المسيطرة على تلك المنطقة.

وترتبط هذه الحقبة من تاريخ مصر القديمة باسماء الفراعنة تحتمس الثالث وامنوفيس الاول والملكة حتشبسوت وامنوفيس الثاني. وتعكس آثار وفنون ذلك العصر هذه النهضة بوضوح جلي. ولأول مرة يخصّص معرض خاص لهذه الفترة التاريخية الهامة نظمه متحف (رومر وبليتسيوس) * في هيلدسهايم، وافتتح في ١٩٨٧/٨/٣ على ان يغلق أبوابه في ١٩٨٧/١١/٢٩ وقد خصص المعرض المذكور للامراطورية الفرعونية التي امتدت حدودها آنذاك لتشمل آراض شاسعة من الاردن ولبنان وسوريا وفلسطين والسودان.

ويقدم المعرض في هيلدسهايم اكثر من ٣٠٠ قطعة اثرية جمعت له خصيصا من ٢٠ مجموعة للآثار المصرية القديمة، كل واحدة منها ذات شهرة عالمية. (من القاهرة والاقصر وبوسطن ونيويورك وبروكسل وباريس وستوكهولم وفلورنسا وتورينو وبرلين ولايبزج وميونيخ وهانوفر). وتشمل القطع التماثيل والنقش البارز والرسم والحلي المصنوع من الذهب والعقيق والفيروز واللازورد. ونجد بجانب تماثيل الحكام والوثائق الخاصة بهم قطعا تنعكس فيها الحياة اليومية لرعاياهم، منها الادوات المنزلية وادوات الحرفيين والثياب المختلفة وادوات الزينة والحلي، تعطي صورة عن معيشة الناس العادين من الحرفيين والفلاحين. ومن اجمل القطع المعروفة نموذج طبق الاصل من مقبرة صنوفر عمدة طيبة، العاصمة ومركز الحكم في عهد امنوفيس الثاني. وفي جزء خاص من المعرض تقابلنا معتقدات قدماء المصريين عن العالم الآخر على شكل الشواهد والتوابيت، والادوات الفاخرة المصاحبة لصاحب المقبرة في رحلته الى العالم الآخر وكتب الموتى، كلها شواهد على امنية الانسان الفاني في حياة مابعد الموت.

ويرافق هذا المعرض معرض آخر للفنان المصري المعاصر عبد الغفار شديد المقيم منذ سنوات طويلة في المانيا الغربية وعنوانه (الماضي كحاضر). وعبد الغفار شديد من مواليد عام ١٩٣٨ في القاهرة ونشأ في منطقة الدلتا. وموضوع العديد من اعماله في الرسم هو الاهرامات. التي هي رمز للنور والشمس مثله في ذلك مثل قدماء. المصريين.

أعمال الفسيفساء البيزنطية في الاردن

تمكن متحف ماقبل التاريخ في ميونيخ وهو تابع للدولة البافارية من تنظيم معرض فريد من نوعه في الخريف وذلك بالاشتراك مع مصلحة الآثار في المملكة الاردنية الهاشمية، معرضاً عن اعمال الفسيفساء الارضية من العهد البيزنطي في الاردن اي من القرنين السادس والسابع بعد الميلاد، وهي شواهد اكتشفت اكثرها مؤخراً في الاردن.

كان الاردن دائماً من أهم البلاد الواقعة على خط سير القوافل التجارية ويحتوي على آثار تاريخية هامة من هذه الحقبة من تاريخه. ونجد في وقت مبكر جدا مجموعات مسيحية استقرت هناك، تدل على ذلك الكنائس العظيمة بارضيتها المبنيّة من الفسيفساء الثمين، كما يقدمها لنا المعرض في ميونيخ. وغالبية القطع المعروضة من القرن السادس، من عهد القيصر جوستينيان، المعروف بتشجيعه للفن البيزنطي المسيحي خلال فترة حكمه، بالذات في ذلك الجزء من الامبراطورية الرومانية كمحاولة جادة لحمايتها من تأثير القبائل البدوية وامبراطورية الغساسنة وقد بنيت العديد من الكنائس في هذه الحقبة وزينت بالفسيفساء الثمين. ويقدم المعرض نماذج من هذه الكنائس بارضيتها المميزة. وتتخلل الفسيفساء رسومات من التراث الاغريقي مفسرة حسب تعاليم الديانة المسيحية، منها حيوانات ومناظر للصيد مستوحاة من الحياة الريفيّة وماشابه ذلك.

ومن الصفات المميزة للفسيفساء في الأردن مناظر المدن واحيائها، المرتبطة ارتباطا وثيقا باسفار الحجاج، مثال على ذلك ارضية الكنيسة في بلدة مأدبة التي بها صور تدل على أنها كانت محطة على طريق الحجّ.

كان فن الفسيفساء اذا على مرتبة كبيرة من الارتقاء عندما دخلت الجيوش الاسلامية منطقة الأردن، بحيث طلب السادة الجدد من الفنانين تزيين قصورهم الصحراوية، ونحن نرى

أعمالهم التي قاموا بها في خدمة امراء المسلمين دليلاً على تواصل هذا الفن العريق، تواصل بدأ في العصر الاغريقي واستمر حتى عصر الخلفاء وبفضله أصبح الاردن جسرا بين القارتين اسيا وأوروبا.

ففي عهد الامبراطور بومبي (٦٣ ق.م.) ضم الاردن الى سوريا، ثم اصبحت تحت حكم ترايانوس (١١١ الى ١١٤م) محافظة مستقلة باسم (ارابيا) وفي النصف الاول من القرن الاول الميلادي استقرت فيه اول مجموعة مسيحية، زاد عددها في عهد القيصر قسطنطين زيادة كبيرة، اما في خلال فترة حكم جوستنيانوس الاول الاول (٧٢٥ الى ٥٦٥م) فازدهر من الناحيتين الاقتصادية والثقافية. وكل القطع المعروضة في ميونيخ من هذه الحقبة التاريخية..

عوالم غريبة ـ تخيلات اوروبية

كان لمعهد العلاقات الخارجية في مدينة شتوتجارت فضل كبير في تنظيم فعالية ثقافية مهمة في الخريف الماضي تحت شعار (عوالم غريبة وتخيلات اوروبية) شملت في الفترة مابين ٩/١ و٢٨/١١/١٩٨٧ مجموعة من المحاضرات الثقافية والمعارض والعروض المسرحية والموسيقية والافلام حول نظرة اوروبا الى البلدان والقارات الغريبة عليها مع الكشف عن الجذور التاريخية والاجتماعية والحضارية لهذه النظرة واشكالها المختلفة. وقد ساهمت كل من مقاطعة (بادن فورتمبرج) ومدينة شتوتجارت مساهمة فعالة فيها.

إن الغريب والدخيل والبعيد جغرافيا كان دائما عامل اثارة خصبة لمخيلة الاوروبي في الفنون والادب والموسيقى والمسرح وحتى في الفن المعماري. حاول الانسان الغربي ان يخلق لنفسه عالما جديدة مثيرا باستخدام تلك العناصر الغريبة القادمة من بعيد في اعماله وبالذات العناصر القادمة من الشرق. ونذكر هنا بالذات حفلا ضخما شمل كل جوانب العمل الثقافي من نحت وتصوير واعمال يدوية وعمارة وفوتوغرافيا والافلام والمسرح والموسيقى كانت غايته الكشف عن السحر الكامن في هذه العوالم الغريبة.

وقد نظم معرض ضخم في متحف الفنون جذب اليه آلاف الزوار، كما نظم أيضاً احدى عشر معرضاً في متاحف مختلفة في مدينة شتوتجارت والمدن الصغيرة المحيطة بها. مع عروض في الاوبرا وبرامج اذاعية وتليفزيونية حول نفس الموضوع. وانتهى الاحتفال بندوة استمرت ثلاثة أيام شارك فيهاكتاب وفنانون وعلماء من جميع انحاء العالم.

كان هدف الندوة الكشف عن السحر الكامن في هذه العوالم الغريبة وتناقضه مع قناعة الاوروبي بان حضارته هي النموذج الأمثل. وهذه القناعة عاقته دائماً عن الانفتاح على العوالم الغريبة والمؤثرة في مخيّلته. وفي عصرنا هذا المتسم بسرعة وسهولة التنقل بين القارات هناك اسئلة جديدة تطرح نفسها وخاصة في مجال فهم وتوضيح الروابط الحضارية بين مختلف شعوب العالم. وهذه الاسئلة طرحت في الندوة المذكورة. وكانت فرصة ثمينة للعاملين في الميادين الثقافية والعلمية لكي يتبادلوا الارءا حول موضوع حساس ومفيد.

ونظراً لاهمية الاسئلة المطروحة حول الروابط بين اوروبا وبين العالم العربي الاسلامي فانه في نيتنا ان نتعرض لاهم جوانب هذا اللقاء بين الحضارات والثقافات في العدد القادم من فكر وفن.

* ومتحف (رومر وبليتسيوس) في هيلدسهايم من أهم واشهر متاحف الآثار المصرية القديمة في العالم. ومعروضاته الدائمة مركزة على آثار الدولة القديمة، اي حقبة بناء الاهرامات الكبيرة وفراعنتها. (٢١٥٠ الى ٢٦٥٠ قبل الميلاد)، افتتح المعرض في هذا العام بعد عمليات تجديد استمرت ثلاث سنوات. ومعروضاته كلها تقريبا من مقابر الموظفين الواقعة غرب هرم خوفو بالجيزة. ومنهم شخصيات بارزة مثل الوزير هميونو، ابن اخ خوفو، المفتش الاول على اعمال بناء الهرم الكبير. وتمثاله في هيلدسهايم من الحجم الكبير وهو فريد من نوعه ذلك انه التمثال الوحيد الذي يجسد شخصاً عادياً.



مهــرجــان الشعــر العــربي الايطالي في جبلينا:

صقلية تحتفل بماضيها العربي

جبلّينـا قريـة صغـيرة في جزيـرة صقلية، ضربها الـزلـزال ليلة ١٥ يناير/ جانفي ١٩٦٨. وقـد هدمت بكـاملهـا. وكان عدد الضحايا ٢٠٠ شخصاً.

وهـذه القـريـة التي تقـول المصـادر التـاريخية ان اسمهـا مشتق من الاسم العـربي «بين الجبلين» تنظم في كل صيف مهـرجـانا ثقافيا لمواساة أهلها وتخفيف الآم النكبـة التي حلت بهم. وفي هذا العـام قرّرت جبلينـا الا تتغـافـل عن ماضيهـا العـربي. ولـذا نظمت اللجنـة الخـاصـة بالمهـرجـان ندوة للشعـر العـربي الايطالي يومي ١٨ و١٩ يوليـو المـاضي ودعت اليهـا شعراء ايطاليين وعربا من الدرجة الاولى.

في مقال له صدر عام ١٩٣٣، كتب غيـوسيبو انطونيو بورجيس يقول بان سبب مأساة صقلية هي الاصطدام مع افريقيا الـذي حدث مرتـين: المرّة الاولى خلال العصـور القـديمـة أي في عهد قرطاجنة. والمرة الثانيـة خلال العصور الوسيطة أي عنـد دخول العرب المسلمين الى الجزيرة. ويضيف بورجيس قائـلا ان الاصطـدام الثـاني كان افظـع من الأول بل انـه اعنف من أي ثورة جيـولوجية اذ انه عزل الجزيرة عن القـارة. ويختـتم مقـالـه هذا بهذا الاستنتـاج الغـريب: «ان عالمنـا (أي الحضارة الغربية» هزم من طرف «البربرية» الافـريقيـة. غير ان الملوك النـورمـان من حسـن الحـظ حطمـوا التأثـير العـربي الاسـلامي واعـادوا علاقـة الجزيرة بالقارة كأمتن ما يكون!».

غير ان المـؤرخ الفـرنسي الكبـير بروديـل الـذي يعتبر أهم متخصص في تاريخ البحـر الابيض المتـوسـط يؤكـد ان صقليـة لم تكن دائـما ايطـاليـة حتى في منتـوجـاتهـا الفـلاحيـة فالتّين الـوحشي والاغـاف والألـوة اتـوهـا من امـريكـا، واليـوكاليبتيس من استراليا، والطماطم من البيرو، والباذنجان من الهند، والفلفل من غويـانـا، والـذرة الصفراء من المكسيك، والـبرتقـال والليمـون والسكـر وايضـا الـزرابي، والحرير والقطن من افريقيا عند دخـول العـرب المسلمـين اليهـا. ويعلق الـروائي الفـرنسي المعـروف «دومينيـك فارنـونـديز» صاحب رواية «في يدي الملاك قصـة حيـاة بازوليني الفائزة بجائزة غونغور عام ١٩٨٣، على كلام بروديـل قائـلاً: «من الاكيـد ان العـرب جعلوا الجـزيـرة تعيش فترة رخاء وسعادة، ليس فقط لانهم ادخلوا اليهـا النظافة الجسدية وفن الزراعة وتـربية الخيول وانما لأنهم جلبوا معهم عالما جديدا من الاشكال والمواد والالوان والروائح.»

والنـدوة الشعـريـة التي انتظمت في جبلينـا اكـدت بطـلان راي بورجيس، وجعلت الصقليـين والشعـراء الايطـاليين الـذين حضروا الندوة يقتنعون بان العرب لم يتركوا لهم البرتقال والليمون والحرير وانما ايضا الشعر.

وقـد قال ادونيس معلقـا على هذه النـدوة: حين استـمعت الى الشعـراء الايطـاليـين يقـرأون الشعر العربي باللغة الايطـاليـة شعـرت اني عربي وايطـالي في نفس الـوقت، وان الاخـر ليس الا اسـما للذات لكن بلغة أخرى. فالشعر يخلق في الانسـان الاحسـاس بان وجوده لا ينحصر في هويتـه، وبأنـه هو نفسـه وغـيرهـا. وهو على هذا المستـوى يوحـد بين البشـر، فيما وراء اختـلافـاتهم القـومية والايديولوجية. وقد اعطى لشعوري هذا بعدا خاصا كوننا استمعنـا جميعـا ونحن بين أحضـان البحر الابيض المتـوسـط اننا من حضارة واحدة، وكأننا نستعيد لحظة شعرية من تاريخ هذه الجزيرة حيث كان الشعراء العرب ينشدون قصـائـدهم في الجلسـة نفسهـا الى جانب الشعـراء اليـونـان والـلاتـين في بلاط فريـديـريـك الثاني وابنه مانفريد من ملوك النـورمـان. هكـذا بدا لي ان الحـوار بين الـذات والآخـر، بين الشـرق ممثـلا هذه اللحظة بالعروبة، والغرب ممثلا بايطاليا، جوهـري فضـروري كهـذه العنـاصر التي تتشكـل فيها الطبيعة: الهواء والضوء والماء والـتراب. في هذا الضـوء ندرك اليـوم اكثر من أي وقت مضى ان شعـوبنـا فيـما وراء اختـلافـاتهـا، وفيـما وراء التقنيـة الحـديثة ايضـا، شيئـا واحدا مشتركا وموحدا ودائما انـه ذلك الشيء الذي يؤسسه الشعراء كما يقول هولدرلين وهو ما يتجسد في الابداع الشعري.

كيف نظمت هذه الندوة؟

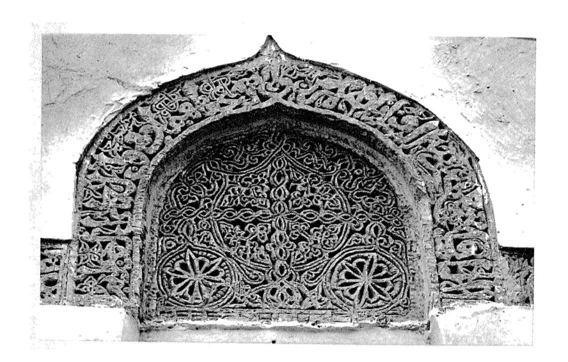
الفضل يعود الى الانسة فرانسيسكا كاراو التي تتقن لغـات عديـدة من بينهـا العـربيـة. وهي ابنـة رئيس بلديـة قريـة جبلينا. وقد تعلمت العربية في روما ثم في القاهرة واطلعت اطلاعا جيدا على التراث الشعـري العـربي القديم والحديث. وفيه كتبت دراسـات متعـددة. ومنـذ سنـوات اهتمت بالشعـراء الصقليـين العـرب من امثال ابن حمديس وابن البسري ومحمد ابن القطـاع وابن الطـوبي والتميمي وابـو علي الحسن وغـيرهم. وكـانـت رغبتهـا هي تعريف الشعـراء الطليـان بهم واطلاعهم على جانب مجهول من ثقافة صقلية القديمة.

تقول فرانسيسكا كاراو: لقد درست في الجـامعـة الامـريكية بالقاهرة وحضرت محاضرات سهير القلماوي والدكتور سكوت والدكتور بدوي وغيرهم. في القاهرة بقيت سبـع سنـوات. وهنـاك استطعت ان اطور معـرفتي بالثقـافـة العـربية عموما وبالشعر العـربي قديمـه وحـديثـه بطبيعـة الحال. كتبت عن المتنبي وايضـا عن طه حسـين وعن عبـاس محمـود العقـاد كما كتبت عن الشعر الحديث وعن الرواية الحديثة. واخر دراسـاتي كانت حول جحـا العربي وجحا الصقـلي. انت تعـرف ان هذه الشخصيـة هي من اطـرف شخصيات الثقافة الشعبية في صقليـة تمامـا مثلما هو الحـال عندكم في العـالم العـربي. وهنـاك كتـاب صقليـون

عديدون كتبوا عنها . وفي هذه الدراسة قمت بمقارنة بين هذين الشخصيتين . عندما عدت الى ايطاليا رغبت رغبة شديدة في تعريف الايطاليين بالشعر العربي . وأول عمل قمت به هو اني قمت بترجمة أولية لقصائد شعراء صقليون عرب ، وعرضتها على اكبر شعراء ايطاليا في الفترة الراهنة من امثال زونزوتي وماريو لوتزو وشالويا وفيفياني وبورتا وفورتيني وغيرهم وطلبت منهم صياغة تلك القصائد شعريا . وهكذا بدأوا في انجاز هذا العمل الذي اعتبرته الصحف الايطالية واحدا من أهم الاحداث الثقافية لهذا العام .

معرض تخليدا لذكرى العالم الرحالة كارستن نيبور

نظمت المكتبة الملكية في كوبنهاجن معرضا لتخليد ذكرى كارستن نيبور، بدأ الاعداد لها في صيف عام ١٩٨٤ ، بمناسبة زيارة الملكة مارجريت الثانية ملكة الدانمارك للمملكة العربية السعودية . ووضع كتالوج المعرض في مدينة (كيل) عاصمة مقاطعة (شليزفيج ـ هولشتاين) .



Ulrich Haarmann: Geschichte der arabichen Welt. Unter Mitwirkung von Heinz Halm, Barbara Kellner-Heinkele, Helmut Mejcher, Tilman Nagel, Albrecht Noth, Alexander Schölch, Hans-Rudolf Singer, Peter von Sievers.
Verlag C. H. Beck, München 1987, 720 Seiten.

اولـرش هارمن: تاريخ العالم العربي. بالاشتراك مع هاينس هالم وبربارا كيلنر - هاينكله وهلموت مايشر وتلمان ناجل والبرشت نوت، والكسندر شولش وهانس - رودلف زينجر وبيتر فون سيفرس. دار النشر بيك، ميونيخ ١٩٨٧، ٧٢٠ صفحة.

هذا هو العمل الثاني لمجموعة من علماء التاريخ الشبان حول العالم العربي، بعد صدور كتاب (الاسلام المعاصر)، نشره فيرنر انده وأودو شتاينباخ في دار النشر (بيك) في ميونيخ. ومن السمات المميزة لهذه المحاولة القيمة ان هؤلاء العلماء المنتمين الى الجيل الجديد من المستشرقين يرسمون صورة للتاريخ العربي متعددة الجوانب وشاملة في ذات الوقت حتى يقترب هذا العالم وتاريخه من اذهان الجمهور العريض.

ومحرر الكتاب وهو اولرش هارمن (من مواليد عام ١٩٤٢) استاذ للدراسات الاسلامية في جامعة فرايبورج، والكتاب الآخرون المشاركون في اصدار هذا العمل القيم، جميعهم اساتذة للتاريخ وللدراسات الاسلامية في جامعات المانية مختلفة.

ويشمل نطاق المؤلف التاريخ العربي منذ القرن السابع الميلادي أي منذ بروز العرب كعامل مؤثر في مجرى تاريخ العالم، وحتى تكوين الدول العربية في القرن العشرين. ومن الناحية الجغرافية فان الشرق الأدنى والمغرب يتبؤان موقعاً محوريا في هذا العمل، فنجد دراسات ليست فقط حول التاريخ السياسي وانما ايضا حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحتى مقالات عن الحضارة العربية وحقبها المختلفة، يتضح من خلالها ان هذه الحضارة العربية - الاسلامية واجهت ازمات داخلية وهزات من الخارج على مدى التاريخ، من بينها انتقال مركز السلطة من مكان الى مكان على فترات متباعدة اومتقاربة من البداية من شبه الجزيرة العربية الى سوريا، ثم الى العراق وبعدها الى مصر بل والى اقطار اخرى.

ومن بين الازمات التي اضطرت الحضارة العربية الى التصدي لها الغزو المغولي للامبراطورية الاسلامية في القرن الثالث عشر وهو أول تحدّ جذري لها من قبل قوة غير اسلامية، اما التحدي الثاني الذي واجهته وما فتئت تواجهه فهو النفوذ الأوروبي الغربي الذي اجتاحها في آواخر القرن الثامن عشر ويحاول اخضاعها حتى بعد انحلال الدول الاستعمارية. ويشدّد المؤلفون على أن هويّة العالم العربي الاسلامي وسياساته مازالتا واقعتين تحت هذا التأثير.

• • •

Adel Theodor Khoury: Lexikon religiöser Grundbegriffe. Judentum- Christentum - Islam. Verlag Styria, Graz, Wien, Köln 1987. 1175 Seiten

عادل تيودور خوري: معجم المفاهيم الدينية الاساسية. اليهودية والاسلام والمسيحية. دار النشر (ستيريا، جرتس فيينا. كولون ١٩٨٧. ١١٧٥ صفحة.

من السمات المميزة لوقتنا هذا الاهتمام المستجد بالقضايا الدينية، يصاحبه الوعي بضرورة الحوار بين الاديان المختلفة. والاديان السماوية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والاسلام، التي طبعت تاريخنا وحضارتنا بطابعها ومنها يتوقع الانسان في الغرب وفي الشرق على السواء ان تعطيه الاجابة حول معنى حياته وغاياتها وحول امكانياته في السيطرة على حاضره والتخطيط العقلاني لمستقبله.

ويعطي هذا المعجم للقارىء المهتم معلومات موثوقاً بها حول مبادىء تلك الأديان الثلاثة، بوصف اسسها البارزة في مقالات مستقلة منها مقالات حول تعاليمها الاساسية وقيمها ونواميسها، والشعائر السائدة في كل منها والسلوك الديني اليومي للمؤمنين بها. مع تصوير هذه المبادىء الاساسية في علاقة كل دين منها بالآخر وتفهمه له، مما يساعد على تقييم وزنها في اطار الدين الواحد من ناحية ومقارنتها بالاديان الاخرى من ناحية ثانية مع ابراز نقاط الاتفاق والفروق بينها..

وقد نتجت عن الفوارق بين الاديان الثلاثة طوال التاريخ لا مساجلات لاهوتية وفقهية فحسب وانما ايضاً حروب واشتباكات ذات اشكال متنوعة. ويحاول هذا الكتاب ان يساهم في توطيد القناعة بأن لكل اهل الكتاب الحق في الحياة.

ومحرر هذا المعجم، عادل تيودور خوري (من مواليد ١٩٣٠ في تبرين بلبنان) استاذ لعلم الاديان في جامعة مونستر الالمانية.

• • •

Isma'il Raji al Faruqi: Judentum, Christentum, Islam. Trialog der Abrahamitischen Religionen. Aus dem Amerikanischen von Anton Joseph Dierl. Dagyeli, Frankfurt am Main 1986

اسماعيل راجي الفاروقي: اليهودية والمسيحية والاسلام. حوار ثلاثي بين الاديان الابراهيمية. ترجمه عن اللغة الامريكية انطون جوزيف ديرل. دار النشر داجيلي، فرانكفورت ١٩٨٦.

غاية هذا الكتاب هي ايضا ان يكون جسراً بين البشر ذوي الحضارات والاديان المختلفة محاولاً تخطي المواقف المتناقضة عن طريق الحوار. ومؤلفه اسماعيل راجي الفاروقي كان حتى وفاته في عام ١٩٨٦ استاذا للدراسات الاسلامية في جامعة (تيمبل) في فيلاديلفيا بالولايات المتحدة. وساهم علماء من الاديان الثلاثة في تأليف الكتاب بمقالات ودراسات حول دينهم وتصوره للعالم ونظامه كل من المنطلق الخاص به.

Bernard Lewis: Die Juden in der islamischen Welt. Vom frühen Mittelalter bis ins 20. Jahrhundert. Aus dem Englischesn von Liselotte Julius. Verlag C. H. Beck, München 1987. 216 Seiten.

برنارد لويس: اليهود في العالم الاسلامي. من فجر العصور الوسطى حتى القرن العشرين. ترجمه عن الانجليزية ليزلوته يوليوس.

دار النشر (بيك). ميونيخ ١٩٨٧. ٢١٦ صفحة.

يعد برنارد لويس من أهم علماء الدراسات الأسلامية في الولايات المتحدة، ويصف في كتابه هذا العلاقة بين اليهود والمسلمين من بداية القرون الوسطى وحتى قرننا هذا. فالديانة اليهودية لم تكن غريبة لا على المسلمين ولا على المسيحيين. كانت عقيدة تشابه عقيدتهم، وان كانت أقدم. وكان للتراث اليهودي المسيحي في الغرب مثيله في الدولة الأسلامية أي تراث اسلامي يهودي.

ولذلك نرى أن العلاقات الثقافية والحضارية بين الديانتين اليهودية والأسلامية، على الأقل في العصور الوسطى، على قدر عميق من الترابط والتداخل بحيث نستطيع القول بوجود مايسمى بتكافل Symbiosis حضاري. طبعاً كانت هناك ازمات في هذه العلاقات، لكن التسامح في حق اليهود كان متوفرا في جميع الحقب. ولذا فانه لايمكننا ان نتحدث عن اضطهاد اليهود في المجتمعات العربية الأسلامية.

كان اليهود في العالم الأسلامي أقلية مثلهم مثل العديد من الأقليات الاخرى، وغالباً ما كان الدور الذي يلعبونه أقل بكثير من دور تلك الاقليات. وهذا هو السبب في ان الكتاب يبدأ بلمحة حول علاقة الاسلام بالاديان الاخرى عامة ثم يتطرق الكاتب بعد ذلك الى بحث منشأ وتطور التراث الأسلامي اليهودي وتتابعه في الحقبة الكلاسيكية الشاملة للقرون الوسطى.

ويركز الجزء الاخير من الكتاب على الامبراطورية العثمانية آخر الامبراطوريات الأسلامية العظمى التي كانت تعيش فيها مجموعات يهودية كبيرة ومهمة، ويربط بين تغلغل نفوذ الغرب في الامبراطورية العثمانية وبين تدهور التراث الأسلامي اليهودي المشترك.

تقع الاهمية الآنية لهذا الكتاب في طرحه للتاريخ المشترك بين العرب واليهود في وقت تواجهنا فيه مرحلة خطيرة من هذا التاريخ تتمثل في اشتداد الصراع بين العرب واليهود خاصة بعد قيام دولة اسرائيل.

برنارد لويس، مؤلف هذا الكتاب استاذ لتاريخ الشرق الادنى في جامعة برنستون وقد سبق لفكر وفن ان قدمته لقرائها في احدى اعدادها السابقة.

• • •

Anton Joseph Dierl: Geschichte und Lehre des anatolischen Alevismus - Bektasismus. Dagyeli, Frankfurt. am Main 1985. 290 Seiten.

انطون جوزيف ديرل: تاريخ وتعاليم العلوية البكتاشية في الاناضول. دار النشر (داجيلي). فرانكفورت ١٩٨٥، ٢٩٠ صفحة.

يؤمن ٢٥٪ من سكان تركيا بالمذهب العلوي الذي برزت في نطاقه الطريقة البكتاشية عرفت في اوروبا عن طريق الانكشارية.

نشأت الطريقة العلوية البكتاشية مع نزوح القبائل التركية من آسيا الوسطى مارة بايران لكي تصل بعدئذ الى الاناضول. وكان منطلقها مذهب التكهنية التركي وتصورات مختلفة من المذهب الشيعي، اضيفت اليها شيئاً فشيئاً طقوس اناضولية عريقة في القدم وعناصر من ديانة المجوس مع دخول التأثيرات المسيحية واليهودية عليها. ولايجب ان ننسى كذلك تصورات عديدة من الحركات الانشقاقية في الاسلام مثل الباطنية والحركة القرمطية.

ويعد المذهب العلوي البكتاشي في عداد طوائف الاسلام. ومن سماته الارتباط بالطبيعة والتواضع ومحبة الغير وهو منتشر كمذهب خارج تركيا في سوريا ومصر والبانيا وبين المهاجرين الاتراك في اوروبا الغربية.

يقدم هذا الكتاب لأول مرة نظرة شاملة باللغة الالمانية عن اصول البكتاشية العلوية وعن شعائرها ونظرتها الى الامور الدينية والدنيوية.

• • •

Alev Tekinay: Über alle Grenzen. Erzählungen. Buntbuch Verlag, Hamburg 1986. 106 Seiten.

اليف تكيناي: متخطيا كل الحدود. قصص قصيرة.

دار النشر (بونتبورخ). هامبورج ١٩٨٦، ١٠٦ صفحة.

اليف تكيناي من مواليد ١٩٥٢ في ازمير، وتروي في قصصها قصة الأنسان المتخطي لكل الحدود الحضارية، رابطة بين الأسلوب الواقعي للكتاب الالمان المعاصرين وبين العناصر الحزينة في التراث القصصي التركي. وتقيم اليف تكيناي في ميونيخ وحصلت على درجة الدكتوراه في الادب الالماني في عام ١٩٧٩ وتدرس منذ عام ١٩٨٣ في جامعة اوجسبورج. هذا وقد حصلت على جائزة المعهد الالماني لتدريس اللغة الالمانية للاجانب تقديراً لقصصها واعمالها الأدبية الأخرى.

• • •

Idries Shah: Der glücklichste Mensch. Das große Buch der Sufi-Weisheit. Aus dem Englischen von Thomas Poppe. Verlag Herder, Freiburg 1986. 255 Seiten.

أدريس شاه: اسعد الناس. كتاب الصوفية الكبير. ترجمة عن الانجليزية توماس بوبه. دار النشر (هيردر). فرايبورج ١٩٨٦، ٢٥٥ صفحة.

يعالج هذا الكتاب التراث الصوفي مقدما لتاريخ الطرائق الصوفية الأربعة الكبرى مع تعاليم مشايخ الصوفية وتفسيرها على هدي اهتمامات ومشاغل انسان القرن العشرين.

Frauen in Afrika. Erzählungen. Herausgegeben von Irmgard Ackermann. Deutscher Taschenbuch Verlag. München 1987.

المـرأة في افـريقيـا . قصص قصيـرة . من تدوين ونشـر ارجـارد اكـرمـان . ادر النشر (دويتشر تاشنبوخ فرلاج) ميونيخ ١٩٨٧ .

الـقـصص الـثـماني عشـرة في هذا الكتاب من تأليف كاتبات من بلاد افريقية مختلفـة ابتـداء من السنغـال وحتى افريقيا الجنـوبيـة . وأعدادها ينشر لأول مرة باللغة الألمـانية . والنصوص كلها غنية بالتأملات النقـديـة والاعتـزاز بالنفس تنعكس فيهـا أوضـاع النسـاء الافـريقيات في مجتمعاتهم المختلفـة ، أوضاع مازالت مجهولة في البلاد الاوروبيـة . والنـاشـرة السيـدة ارجـارد اكـرمـان ، استـاذة في معهـد اللغة الالمانية بجامعة ميونيخ .

Fatima Mernissi: Geschlecht - Ideologie - Islam. Aus dem Französischen von Marie Luise Knott und Brundhilde Wehninger. Frauenbuchverlag München 1987.

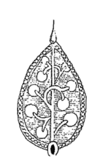
فاطمـة المـرنيسي : الجنس والايـديولوجية والاســلام . ترجمة عن الفرنسية ماري لويز كنوت , وبرونهيلده فيننجر .
دار النشر (فراونبوخ فرلاج) . ميونيخ ١٩٨٧ .

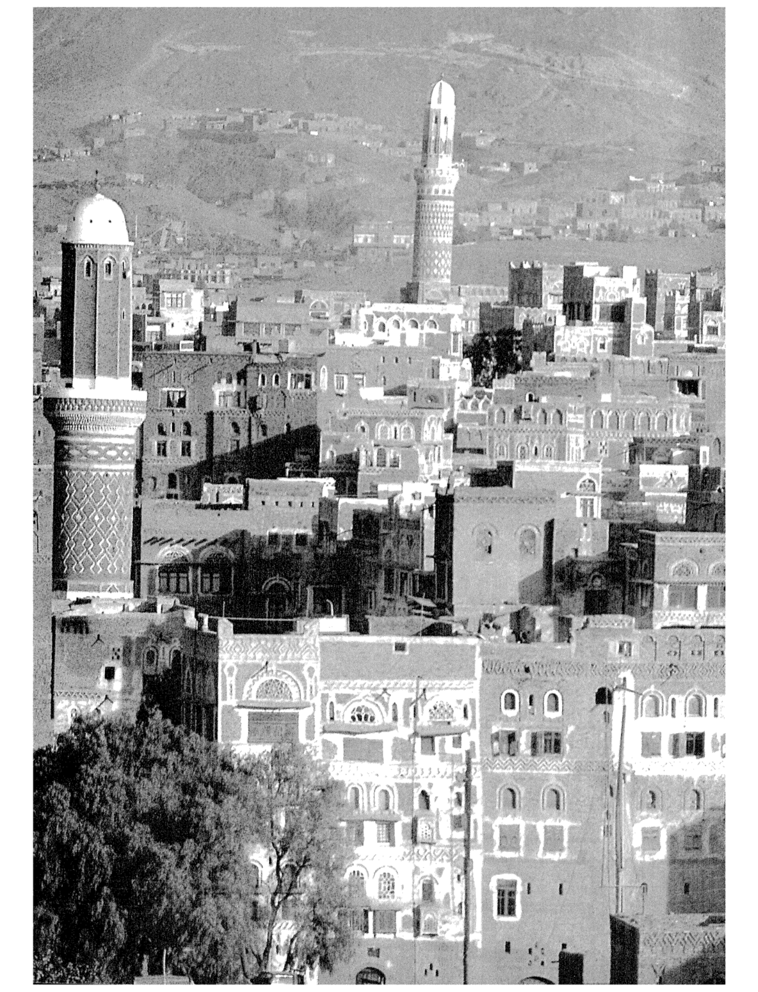
تقـدم لنـا فاطمـة المرنيسي في كتابها هذا دراسـة متعـددة الجـوانب عن العلاقة بين المـرأة والـرجـل في المجتمع الاسلامي ومجتمــع ما قبـل الاسـلام ، استنـاداً الى النصــوص الاســلاميـة الكـلاسيكيـة . والكـاتبـة استاذة لعلم الاجتماع في جامعة الـربـاط ، والفت الكتـاب بعـد دراسـة مستفيضـة للادبيـات الاسـلاميـة اردفتها بحوارات واستفتاءات بين النساء المغربيات .

لكــن فاطـمــة المــرنيسي لا تكتب بصفتهـا عالمة فقط وانما تكتب ايضاً كامرأة عانت كثـيراً من قيـود مجتمعها وهي تروي بصـراحـة كبـيرة احـداثا ووقائع عاشتها أو عايشتهــا . واسلوبهـا ليس اسلوب الطعن الهجــومي مثــل زميلتهــا المصـريـة نوال السعداوي وانما اسلوب امرأة لا تحتاج الى المسـانـدة من أي ايـديـولـوجيـة . وسيرتها الذاتية مثال للمعاناة التي تواجهها المرأة في المجتمع الاسلامي المعاصر في تأرجحه بين التراث والحداثة .

وقد ولدت فاطمة المرنيسي في مرحلة سمح فيها للفتيات بالدخول الى المدارس ثم بالوظيفة بعد ذلك . غير ان هذه الحرية النسبية لم تخفف عن المرأة عذاباتها ومعاناتها .

وفي تحليـلهــا للتركيبــة الفــوقيــة الايـديـولـوجيـة لهذا المجتمـع المـار بازمـة حضـاريـة حادة تذكـرنـا فاطمـة المرنيسي بجملة مأثــورة للعـلامـة الفيلسـوف ابن رشد ، دونه منذ أكثر من ٧٠٠ عام ولم يفقد شيئاً من حداثته ، يقول ابن رشد :
(من أهم أسبــاب انحطـاط العـالم الاسلامي العلاقات بين المرأة والرجل) .
ولذلك فنحن نتمنى لهذا الكتاب الشجاع ان يجد قراءاً كثيرين وخاصة بين الرجال .






INTER NATIONES
FIKRUN
WA FANN
46
KEULE
Miche
CCCP